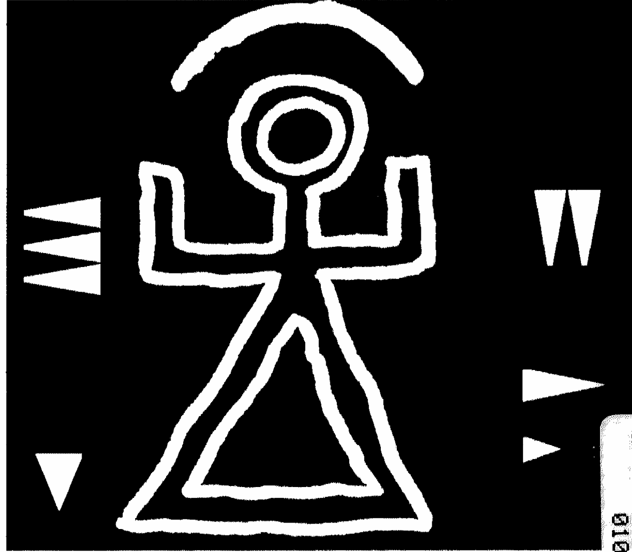
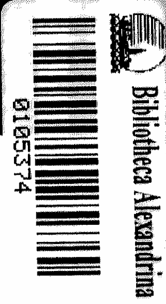
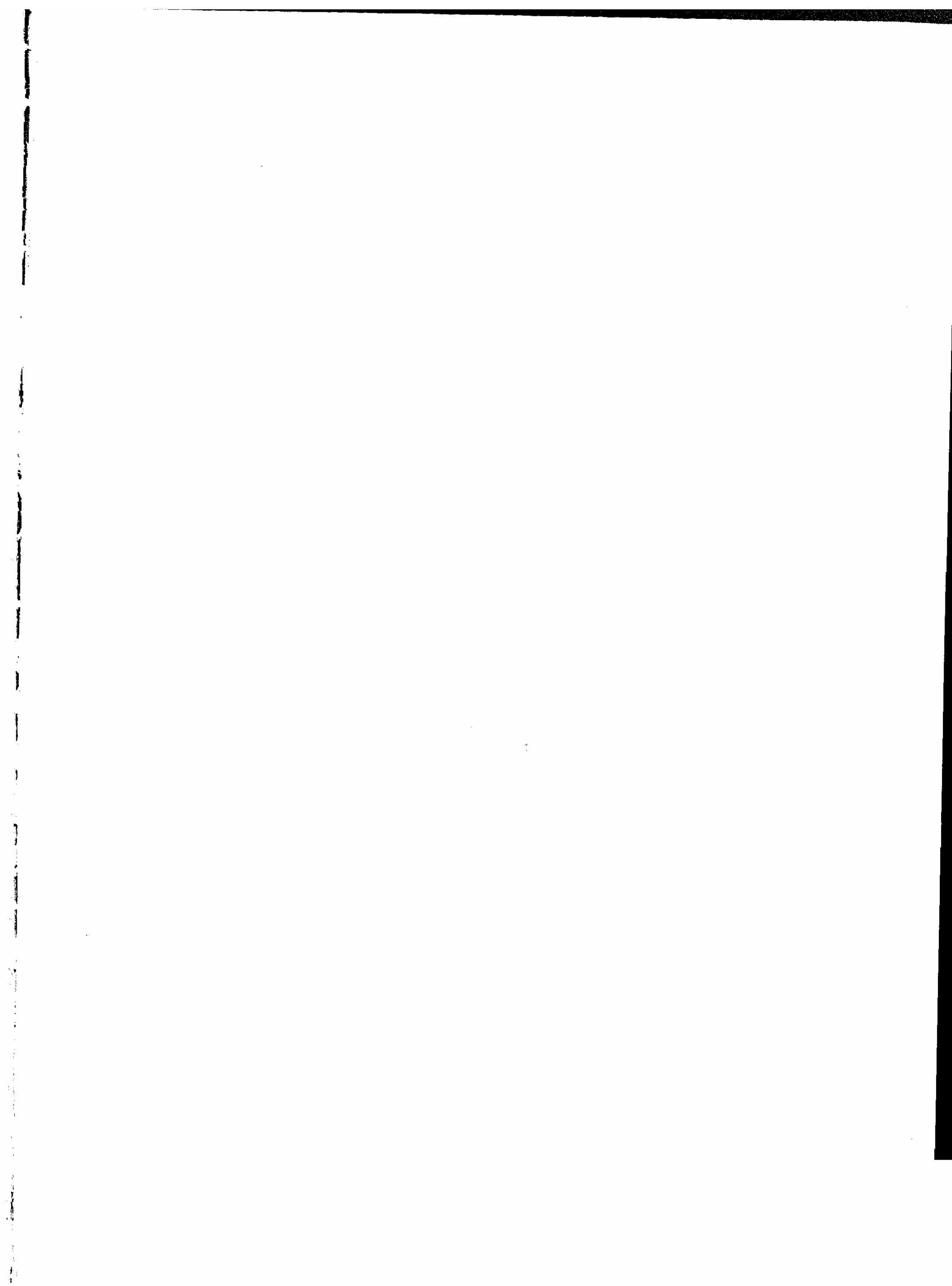
جان مازيل

تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية





ترجمة : ربا الخش



تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)

* تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)
* تأليف: جان مازيل
* ترجمة: ربا الخش
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الطبعة الأولى 1998
* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية - ص. ب 1018 - هاتف 422339

العنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية:
Avec Les Phéniciens
à la poursuite du soleil
sur les routes
de l'or et de l'étain

10827

939.44
م ا ز
ن

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف 939.44
رقم التسجيل ٤٠٠٧٦

جان مازيل

تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)



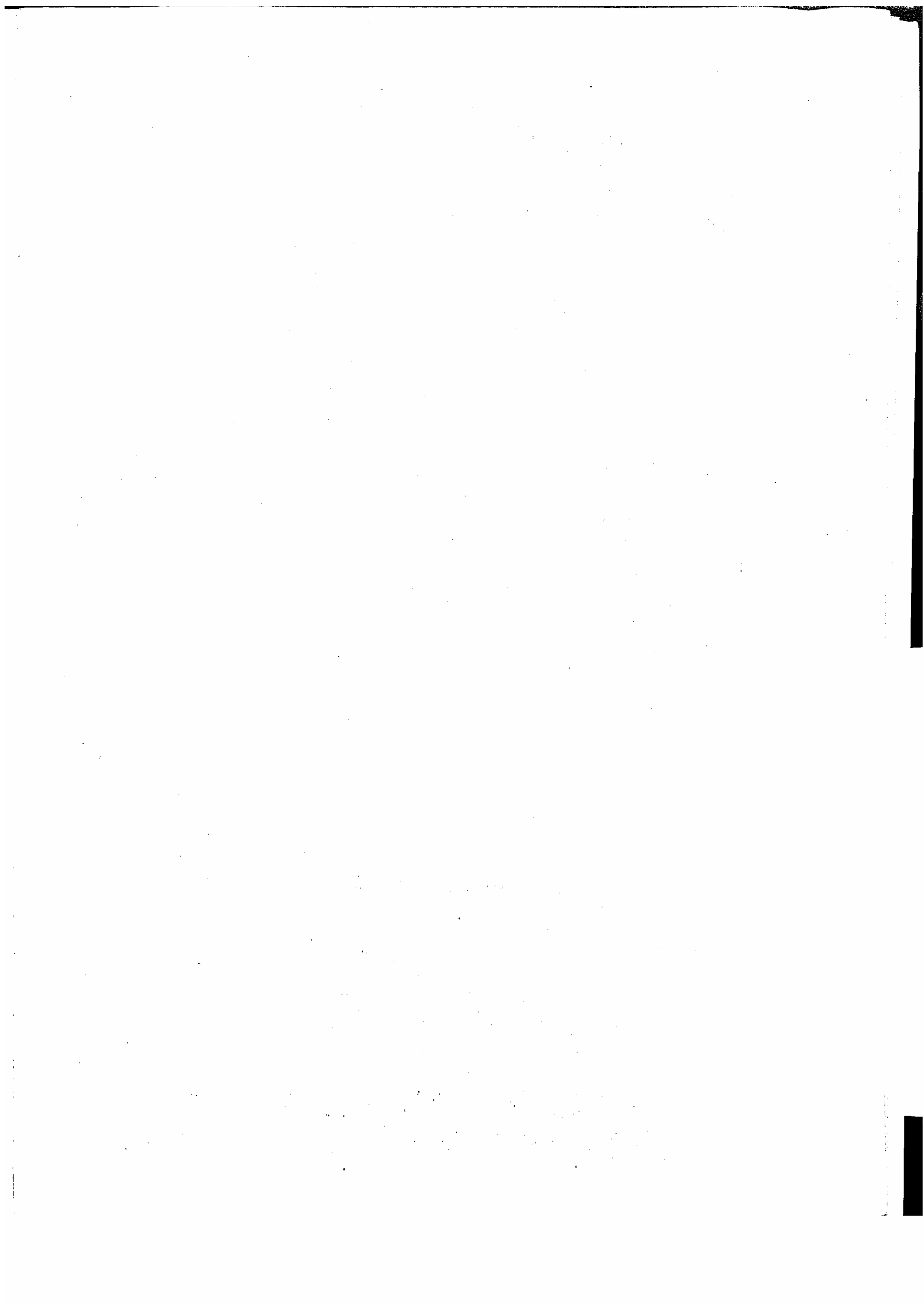
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

939.44
الحضارة الفينيقية

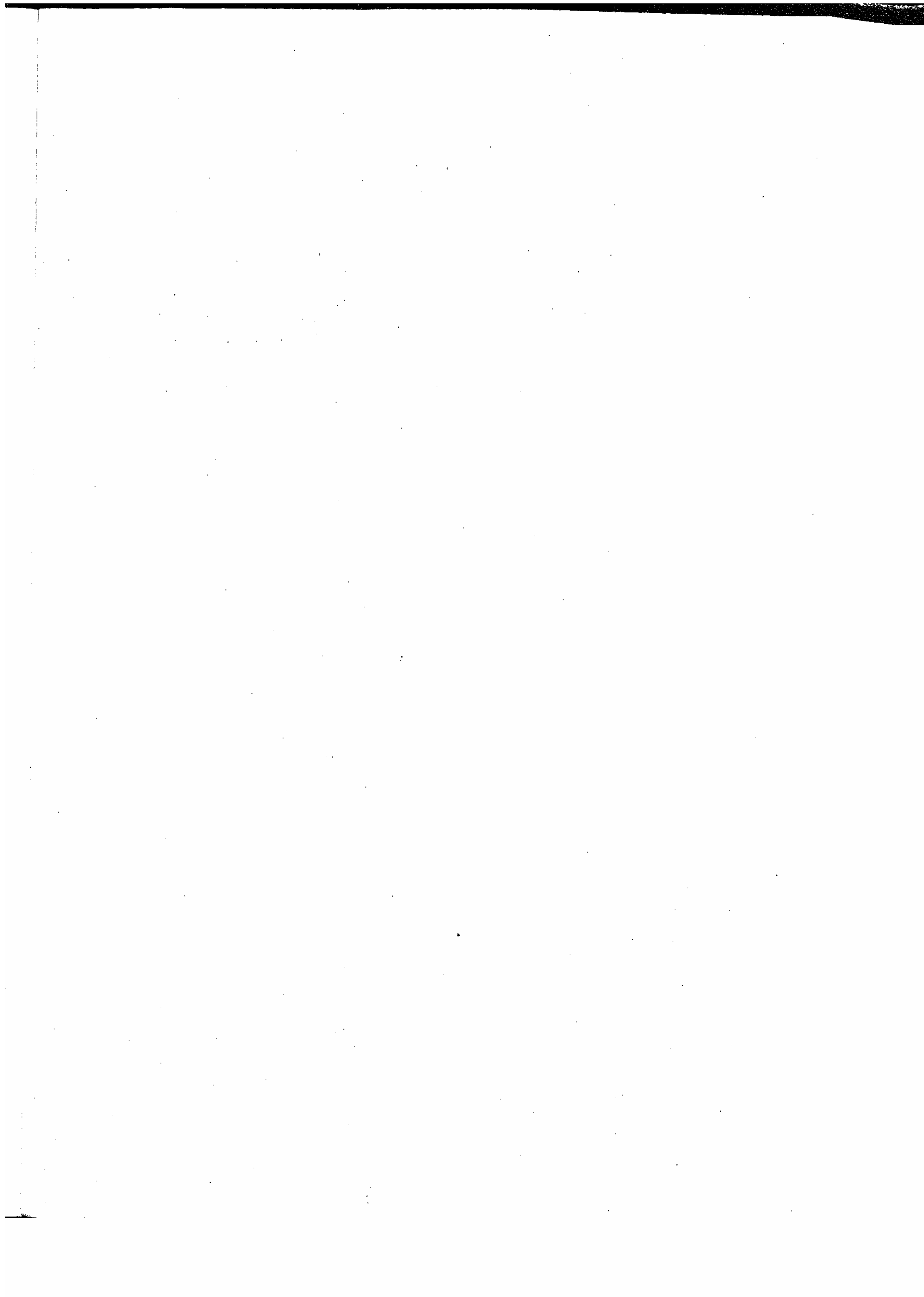
ترجمة: ربا الخش

تقديم ومراجعة عبد الله الحلو

دار الحوار



الفهرس



تقديم

ماذا يجب أن نفهم تحت عنوان:

«مع الفينيقيين سعياً وراء الشمس على دروب الذهب والقصدير»؟.. ربما أوحى للبعض، وللوهلة الأولى، أن الأمر كله يتعلق بنشاط الفينيقيين في تجارة الذهب والقصدير فحسب. ولكن هذا العنوان بالواقع أعمق من حرفيته.. إنه اختصار لحقبة حضارية عالمية مديدة بكل مافيها من نشاطات ملاحية واسعة وتأسيس لمدنٍ ومراكز تجارية استمرت قروناً كثيرة على المدى الجغرافي لحوض البحر المتوسط وماجاوره وماتعداه إلى نواحٍ وبحارٍ ومحيطاتٍ أخرى.

وهذا الاختصار الذي تطلّب خمسة وخمسين ألفاً من الكيلومترات في جولات بحرية وبرية قام بها «جان مازيل» الباحث في التاريخ الفينيقي، نتج عنه الكتاب الذي بين أيدينا، المتواضع في حجمه، الضخم في محتواه، العميق إلى مالانهاية في رؤياه.

الحقيقة أن محاولة الغوص إلى حقبة تفصلنا عنها قرابة الأربعة آلاف سنة، بحيث لاتظهر منها إلا نتف ضبابية من المعلومات، هي حتى الآن بالنسبة للتاريخ الفينيقي (الكنعاني) وبشكل عام تاريخ غربي سوريا من المحاولات المجهدة. فهو تاريخ واسع موغل في القدم مليء بالأحداث. ومع ذلك فالمعلومات التي تظهر في كثير من الكتب عن هذا التاريخ لاتعكس إلا ومضات قصيرة متقطعة منه.

من المعروف أن هذا التاريخ الطويل لم يعثر عليه مكتوباً في نصوص تعادل هذه الآلاف من السنين، بل أن معظمه يتم تجميعه منذ عقود كثيرة من الزمن استناداً لما قدمته وتقدمه الأرض بين الحين والآخر من رموز ونقوش وفنون وبقايا حياة حضارية. بعضه ماثل للعيان، وبعضه محفوظ أو مخزون، وبعضه الآخر مجهول أو اندثر تماماً وصار في ذمة الماضي، وهذا البعض المختلف والمشتت هنا وهناك هو ماحاول الباحث «مازيل» تتبّعه وتلمّسه وتفحّصه عن قرب على مدى هذه الآلاف الكثيرة من الكيلومترات.

ورغم أن التاريخ الفينيقي (الكنعاني) يبدو واضحاً للوهلة الأولى، فإن هذا الوضوح بالواقع يتجلى على الأكثر خلال الألف الأول قبل الميلاد، أما الألف الثاني وماسبقه فلم تنطق مخلفاته إلا بالقليل البسيط إذا قارناه مع ماقدمته مراكز حضارية أخرى في بلاد الشام والرافدين. فهناك سيل من المعلومات المكتوبة في أكداس ضخمة من الألواح الطينية، التي مكنت الباحثين من تكوين أطر عامة واضحة لحقب عديدة قديمة من تاريخ تلك المراكز. أما التاريخ الفينيقي فلم يقدم في مراحله القديمة حتى الآن مايمكن معه تكوين هيكل تاريخي واضح متكامل التفاصيل.

ولكن التاريخ الفينيقي مع ذلك، وضمن إطاره العام، يمثل في نظر العالم اليوم (كما كان قديماً) وميض تلك الحضارة التي شملت حيويتها الجارفة كل العالم المعروف في حينه وتجاوزته حتى «أميركا»، الأمر الذي صار اليوم مسلّماً به سواء وجدت نصوص صريحة واضحة أو لم توجد بعد.

وعندما يصف بعض الباحثين «بابل» بأنها كانت في عصر ازدهارها وقوتها «دماغ العالم القديم»، فسوف يجد القارئ في هذا الكتاب أن المراكز الفينيقية كانت بالنسبة لحوض البحر المتوسط أيضاً بمثابة القلب الذي ينشر الدم ويبعث الحياة.

إن المسألة الأكثر إرباكاً في كل بحث يتناول التاريخ القديم لإحدى مناطق الهلال الخصيب هي محاولة التوصل لمعرفة أصل الجماعات السكانية ماقبل العربية التي أقامت دولاً حضارية هنا وهناك، وخاصة بالنسبة لحقب زمنية موغلة في القدم.

فمسألة: من أين جاء الفينيقيون (الكنعانيون)؟.. هي تماماً كمسألة: من أين جاء الأكاديون والآشوريون والسومريون والأموريون والآراميون والفلسطينيون؟... إلى غير ذلك... هذه المسألة التي رافقت دائماً الدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأدنى القديم منذ قرابة القرنين من الزمن، وانتهت إلى التفسير الذي اصطلح عليه المستشرقون وصار من ثم نظرية متعارفاً عليها ومسلّماً بها شكلياً وتم اعتمادها في المؤلفات العربية المعاصرة، ألا وهي قدوم هذه الجماعات من شبه الجزيرة العربية بشكل موجات هجرة كبيرة في فترات متباعدة، الأمر الذي استندوا فيه إلى ظاهرتين: أولاهما أوجه الشبه القوية بين اللغات أو اللهجات التي انتشرت في

الهلال الخصيب وبين اللغة العربية. والثانية هي كون صحارى الجزيرة العربية في الأزمنة القديمة مفتوحة على بادية الهلال الخصيب ومنطقة تنقل حر واسع للقبائل البدوية، هذا التنقل الذي مازلنا نلحظه حتى اليوم، و كون أراضي الهلال الخصيب تمتعت منذ أقدم الأزمنة بتلك الجاذبية للقبائل المتنقلة و كانت عاملاً أساسياً في استقرارها.

ولكن على الرغم من أن تنقلات الجماعات البشرية هنا وهناك وهجراتها البعيدة أو القريبة أمر معروف منذ أقدم الأزمنة، فإن نظرية ماسمي بـ «موجات الهجرة السامية» من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وبالشكل الذي تم تصوره لدى بعض المؤرخين، بقيت تفتقر إلى الأدلة المادية القاطعة.

وفي سياق هذه النظرية يرى الباحث «مازيل» في الفصل الأول من هذا الكتاب (وفقرة من الفصل الثامن والثلاثين) أن الفينيقيين جاؤوا من قلب الجزيرة العربية، وعلى التحديد من قبائل «الحميريين». فيرى بذلك أن هذه التسمية أصل لتلك وأن تسمية فينيقيين تعني تبعاً لذلك «الرجال الحمر».

ولكني أرى بهذا الصدد أنه لابد من تسجيل ملاحظات عديدة تضعف من شأن هذا الرأي أكتفي بأهمها:

○ المعروف حتى الآن عن جنوب الجزيرة العربية أنه حوالي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد فقدت مملكة السبئيين أهميتها لتحل محلها مملكة الحميريين التي استمرت سيطرتها حوالي القرنين من الزمن، أي حتى أواخر القرن الأول الميلادي عندما انهار احتكارها للتجارة وهاجر الكثير من التجار الحميريين إلى الشمال حتى مناطق سيطرة الأنباط وساحل أفريقيا الشرقية. ولكن خلال القرن العشرين قبل الميلاد، الذي يجعله «مازيل» بداية للاستقرار الفينيقي (الحميري) على الساحل لم يكن أي شيء معروفاً عن قبائل الحميريين أو غيرهم في جنوب الجزيرة العربية.

○ مما هو معروف أن الجماعات السكانية عندما تهاجر إلى ناحية أخرى تحمل معها تسميتها ولاتتخذ تسمية أخرى. ومن الأمثلة القريبة على ذلك قرية من قرى دمشق في العصر القديم كانت تسمى «الحميريون» نسبة لجماعة من الحميريين قدمت واستوطنت هناك (وجاء ذكرها عند كل من ابن عساكر وياقوت الحموي. وقد خربت فيما بعد).

○ هناك أدلة كثيرة على أن الفينيقيين أنفسهم، سكان المدن الساحلية، كانوا في كل أدوار تاريخهم يعتبرون أنفسهم «كنعانيين» ولم يوجد مايشير إلى أنهم وصفوا أنفسهم ولو مرة واحدة بالحميريين في أي وقت كان، كما لم يقولوا عن أنفسهم «فينيقيين» لأن هذه التسمية لم تكن محلية ولم تستخدم محلياً بل كان الإغريق هم الذين أوجدوها واستخدموها وبعدهم الرومان. وحتى بعد زوال قرطاجة كان من بقي في أفريقيا من سكانها يدعون أنفسهم «كنعانيين».

○ إن لفظة «حمير» أو «حميريين» رغم وجود الجذر الثلاثي «ح م ر» فيها ليس مؤكداً أنها تحمل مدلول «الشعب الأحمر» أو «الرجال الحمر» وبالتالي فإن إطلاق اليونان تسمية «Phoeniki» بمعنى «الرجال الحمر» لايعني بالضرورة أنهم أخذوها عن اسم «حميريين».

○ هناك مثال جدير بالذكر عن الالتباسات التي تحصل في التسميات ومدلولاتها: «تدمر» مدينة البادية السورية سميت باليونانية ثم باللاتينية «بالميرا Palmyra». وهذه التسمية هي اشتقاق من كلمة «بالما Palma» التي تعني شجرة النخيل. أي أن «بالميرا» لها باليونانية مدلول «مدينة التمر أو النخيل». ولكن بالمقابل رغم أن كلمة «تدمر» الآرامية تحتوي شكلياً على الحروف «ت م ر» وتوحي من حيث ظاهرها أن للتسمية علاقة بالتمر، فإن الحقيقة غير ذلك، والتسمية اليونانية «بالميرا Palmyra» بُنِيت على التباس في المدلول ربما نتج عن كون التمر من جملة المواد التي كانت بين الصادرات التدمرية إلى اليونان.

وعليه فمن المنطقي أن يكون إتجار الكنعانيين بصباغ الأرجوان (الأحمر) واحتكارهم لسر إنتاجه قد دفع باليونان لإطلاق تسمية «فونيكي» عليهم، الأمر الذي ذكره «مازيل» أيضاً بصورة ثانوية رغم ميل أغلب المؤرخين للأخذ به.

○ وأخيراً إذا حاولنا أن نوفّق بين ماورد في مطلع الكتاب من بداية لاستقرار الفينيقيين في القرن العشرين قبل الميلاد وبين مايتبع في الفصل الرابع (جبيل - حاضرة الكتابة) من أن أولى المنازل الحضرية في جبيل تعود لحوالي 3000 قبل الميلاد وأن فترة «العموريين» - القادمين من أقاصي الصحراء السورية - ابتدأت فيها حوالي 2000 قبل الميلاد، أدركنا حينذاك مدى الإرباك الذي يرافق مسألة البحث عن أصول الفينيقيين أو غيرهم.

إن الباحث الاختصاصي يستطيع استنطاق الأوابد الصامتة والمخلفات الفنية

وغيرها، ليكون من ذلك إطاراً تاريخياً حضارياً كما كان الحال هنا مع «جان مازيل»، ولكنه مهما تعمق في عمله فلن يستطيع استنطاق الجماعات البشرية التي تفصلنا عنها عدة آلاف من السنين لجعلها تتحدث عن أصولها. وحسبنا من حديثها ماتنطق به مخلفاتها وماحفظه عنها الآخرون.

تشرين الأول 1997

د. عبد الله الحلو

* توضيح:
للتمييز بين حواشي المؤلف وملاحظات المحقق أبقي على ترقيم حواشي المؤلف كما جاءت في الأصل. بينما استخدمت نجمة صغيرة للإشارة إلى ملاحظات المحقق

تمهيد

حوالي القرن العشرين قبل الميلاد بدأ بالاستقرار في المناطق الساحلية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط شعب صغير كان له شأن عظيم:

إنهم الفينيقيون، الذين يلقبون أيضاً بـ «الرجال الحمر».

منذ ذلك العصر ابتكروا وطوروا تدريجياً شكلاً جديداً من أشكال الحضارة قائماً على التوسع السلمي والمبادلات التجارية والصناعة والإبحار. إنهم الذين ابتكروا أبجديتنا الحديثة المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. ويعد هذا الاكتشاف أكثر أهمية بالنسبة لذلك العصر من اكتشافنا اليوم للعقل الإلكتروني.

وينسب إليهم أيضاً اختراع الزجاج واللون الأرجواني والنظريات الذرية. وهم الذين أسسوا مدناً رائعة وبنوا معابد. وهم أيضاً من قدّس الشمس والأنوثة الكونية المتمثلة بالربة عشتروت. والمعتقد أن يكونوا قد عرفوا آخر المطلعين على سرّ عالم تصعب علينا الإحاطة به تماما. وقد سُمّي مؤسسو فينيقيا القديمة الذين استقروا على سواحل لبنان الحالي فينيقيي الشرق، وذلك لتمييزهم عن فينيقيي الغرب الذين سكنوا في شمالي أفريقيا وأسسوا قرطاجة منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

لقد سعيت خلال ست سنوات كاملة وراء هؤلاء الغزاة الأوائل للبحار متتبعاً أثرهم على مدى القرن العشرين فوق البر والبحر على دروب القصدير والذهب حيث عثرت شيئاً فشيئاً على موانئهما.

خلال ست سنوات لم أكتفِ بالتنقيب تحت التربة وحسب وإنما تابعت عملي هذا بشكل تحريات واسعة في ستة عشر بلداً من العالم، تعرفت على جزرها وأشباه جزرها، شعرت تحت قدمي برمال شواطئها واهتديت إلى جدران معابدها. سعيت خلف الشمس حتى بلغتُ قصدير البحار الباردة وذهب البحار الساخنة. وعندها فقط توضحت الصورة الحقيقة المتعلقة بموقع أو أداة أو نص أو بالغموض العجيب للأساطير.

باريس 25 تشرين الثاني 1967

المؤلف

ملاحظة خاصة تتعلق بهذا العمل الجديد:

قبل نشر هذا الكتاب حظيتُ بأحسن تكريم عندما تلقيت على هذا العمل وساماً لم أكن أعتقد بأني أستحقه، إنها جائزة: سعيد عقل التي كانت تمنح دورياً في لبنان كمكافأة على العمل أو البحث الذي يسهم في تقدم المعرفة المتعلقة بحضارة الفينيقيين. وفي الواقع كانت مكافأتي الأجمل هي مقابلة سعيد عقل، ذلك العالم بالآداب القديمة، وذلك الشاعر الذي يحيي أكثر الكنائس تحمّساً لعلم الفينيقيين.

باريس 25 **حزيران** 1968

المؤلف

مدخل
مشكلة المصادر

منذ بداية هذا العمل واجهت مشكلة المصادر، إذ أنه لا شيء أخطر من أن نعتمد نظريات الكتاب الذين سأسميهم «من العصر الرومانسي».

لقد مرّ زمن في منتصف القرن الأخير، حيث كانت التصورات الرومانسية تضع الفينيقيين في كل مكان، فقد اعتُبر النوراج «Les Nouraghes» في سردينيا فينيقيين. والبربر في أفريقيا الشمالية كانوا فينيقيين، وجزيرة مالطا فينيقية. والأمازون كان بلد ال «بونت Pount» وجزر الأنتيل كانت كلها أسماء فينيقية، ومدينة «تور Tours» كانت مرتبطة بروابط غامضة مع مدينة صور، كما أن ال «بيغودين Les Bigoudens» كان يُتوقع أن يكونوا شرقيين، والبعض يرى أن البنادقة كانت لهم روابط قربى مع الفينيقيين.

كما وجدت في ذلك الوقت نزعة إلى إعطاء عمر أكبر للفينيقيين. فكان الكتاب يُرجعون تاريخهم إلى زمن يبدأ في بعض الأحيان بالألف الرابع قبل الميلاد. أما بالنسبة للديانة فقد كانت عيونهم تبرق وخيالهم يبتهج لمجرد استحضار عبادات الخصب التي كانت تمارس في معابد عشتروت وآلاف الهبات التي كانت تقدم إلى كاهنات معبد بعل. زد على ذلك، عند ذكر رجل أو امرأة استسلما للبغاء، ألم يكن يقال: عكف على عبادة بعل؟... من الواضح إذاً أن البغاء المقدس كان يمارس في المعابد الفينيقية ومن المحتمل أيضاً أن طقوساً جماعية بهذا الصدد كانت تمارس حسب تغيرات الفصول لاستنزال النعم السماوية والخصوبة للأرض.

إن الفكرة الخاطئة التي كانت مأخوذة عن الشرق في القرن الماضي لم يكن يُفهم من خلالها إلا أن مسألة الجنس ومسألة الروح مشتركتان بشكل طبيعي تماماً ودون مواربة.

والرواية الغنائية الأثرية الكبيرة «سالامبو Salammbo» التي وضعها «فلوبير Flaubert» في سنة 1862 تمثل نقطة الأوج في هذه التصورات الرومانسية عن العصر القديم، وقد اعتبرت تتويجاً لذلك العصر.

ولم يبدأ علم الآثار بالقاء بعض الأضواء الأكثر دقة على موضوع الفينيقيين إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبين الحين والآخر كانت تخرج من القبور المكتشفة حديثاً وبقايا المعابد بعض التحف الفنية وأبرز المصادر عن الفينيقيين هي:

● المكتبات الحجرية:

لقد وجدت نصب عديدة، نذرية أو تذكارية، وكتابات محفورة على التوابيت الحجرية صنعتها أيدي ماهرة خبيرة، وهذا كله يبدو وكأنه مكتبات حقيقية من الحجر تعوضنا عن غياب الأدب الفينيقي الحقيقي. وتعتبر مصادر ممتازة من أجل دراسة الأبجدية الشهيرة المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً، وهي أصل لكل أبجديات حوض البحر الأبيض المتوسط.

وتلك النقوش لها الفضل في تسليط الضوء وتقديم المعلومات الحقيقية عن بعض الشؤون الدينية أو غيرها. مثال ذلك تلك اللوحة البرونزية التي وجدت في «إيبيزا Ibiza» والتي تحمل النقش التالي:

«لقد قام بصنع وترميم ونذر هذا الحائط الحجري الكاهن عبد إشمون بن أزرو بعل من أجل سيدتنا، من أجل الربة تعنيت القادرة، ومن أجل الإله جاد. وكان هو نفسه مبدع ذلك البناء وعلى نفقته...»

● الكتّاب الإغريق واللاتين:

تعتبر آثار المؤرخين والجغرافيين والشعراء الإغريق والرومان مصدراً آخر في معلوماتنا عن الفينيقيين، إلا أن هذا المصدر في بعض الحالات يجب استخدامه بتحفظ. وبهذا الصدد يجب ألا ننسى أن الإغريق غالباً ماكانوا على خلاف مع فينيقيي الشرق. أما فينيقيو الغرب فقد ظلت روما في صراع معهم حتى سقوط قرطاجة نهائياً. إن كثيراً من الكتب التاريخية الموجودة بين أيدينا، لابل أغلبها يؤيد رأي الكتّاب الذين ينتمون إلى فئة المنتصرين.

ألم يكتب «بلوتارك» في حديثه عن القرطاجيين:

«إنه شعب متسلط، ذليل بلاشك أمام المنتصرين، وطاغٍ مع المهزومين، ونذل في المواقف المخيفة»..؟

ولكن «بلوتارك» الذي لم يستطع تكوين حصيلة واسعة كان على كل حال شديد

الاهتمام بتملّق الرومان الذين نال حظوة عندهم. وقد ارتكب خطأً تاريخياً إذ أصدر حكماً شاملاً على شعب بكامله منطلقاً من مراقبة مجموعة محدودة أرغمت بشكل مأساوي على الصراع ضد إرادتها.

● **الكتاب المقدس:**

يعتبر العهد القديم من الكتاب المقدس مصدراً آخر ذا قيمة أرفع من أجل الإحاطة بموضوع الفينيقيين. ويتجلى ذلك بشكل خاص في سفر الملوك ثم سفر حزقيال. ترجع نبوءات حزقيال الأولى إلى سنة 593 قبل الميلاد. بعد ذلك مباشرة نشعر من خلال نصوصه بأن احتلال أورشليم من قبل نبوخذ نصر سنة 587 ومرارة النفي إلى بابل لهما علاقة ظاهرة بهيجان نبوءاته ضد مدينة صور وحقده عليها.

● **الأساتذة المعاصرون:**

وأخيراً هناك أهمية كبيرة لأعمال الأساتذة المعاصرين الذين نذروا حياتهم بكاملها للدراسة الواقعية الدقيقة لهذه الحلقة أو تلك من الحضارة الفينيقية. وبهذا الصدد لابد من الإشادة بذكر بعضهم مثل: الأمير موريس شهاب و«Donald Harden» و«Maurice Dunand» و«Bernabo Brea» و«Santa Olalla» وغيرهم. كما يجب أن نخص بالتقدير ذلك الفريق الشاب اللامع من علماء الآثار التونسيين الذي قام بتشكيله «Gilbert charles Picard». والكل عازمون على تجديد شباب الفينيقيين ووضعهم في موضع أقرب مايكون منّا، كما كان يقول في عام 1964 الأستاذ النابغة «ساباتينو موسكاتي Sabatino Moscati» في مؤتمر باليرمو Palerme:

«إن فترة الأوج في الحضارة الفينيقية يمكن تحديدها مع بدايات عصر الحديد حوالي 1000 قبل الميلاد، أما انحطاطها فيبدأ في زمن غزوة الاسكندر الكبير بعد 700 سنة...».

إلى جانب الأساتذة الكبار الذين كانوا دائماً متعقّلين في كتاباتهم، ولكن في بعض الأحيان أكثر تحرراً في تصريحاتهم، يجب الإشادة بذكر عدد من المثقفين الهواة الذين يتصفون بالحماس في هذا المجال. فلقد أخذوا بيدي إلى بعض المواقع وأطلعوني على ملفات سرية وحققت بحماسهم هذا فائدة لايستهان بها.



تسلسل زمني عام

المراحل الزمنية الكبرى ـ السيطرة الشرقية على البحار

قبل الميلاد ـ

5000	التجمعات البشرية الأولى في جبيل.
3000 ـ 2900	في جبيل، أولى المنازل الحضرية.
2900	أرسل الملك المصري سنفرو (آخر ملوك الأسرة الثالثة) حملة بحرية لجلب خشب الأرز من لبنان.
2750	تأسيس صور ومعبد ملقارت (كما يقول فيكتور بيرارد).
2100 ـ 2000	غزو جبيل من قبل العموريين الذين قدموا من تخوم الصحراء السورية.
2000	تأسيس مملكة مينوس في جزيرة كريت وبناء قصور كل من كنوسوس وفايستوس.
1750	في كريت، دمار قصور مينوس إثر هزة أرضية عنيفة.
1725 ـ 1580	إعادة البناء في كريت وانطلاقة عصر التوسع الكريتي الكبير.
1400	نهاية السيطرة الكريتية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. الدمار الثاني لقصور كنوسوس وفايستوس.
1250	في جبيل وفي عهد الملك أحيرام تطورت وترسخت الأبجدية البسيطة المؤلفة من 22 حرفاً.
1200	تأسيس الصوريين لمدينة «عتيقا Otika» بالقرب من خليج تونس.
1200	التأسيس المفترض لمملكة ترشيش (حسب رأي ـ Schulten ـ). غزو مايسمى بشعوب البحر للساحل الفينيقي والصوريون يستكشفون سواحل البحر المتوسط.
1100	الصوريون يؤسسون مدينة «غاديرGadir» التي سميت قادس في العصر الروماني و «Cadiz» من قبل الأسبان في هذا العصر. ابتداء

	الرحلات الميحطية (الأوقيانوسية) للصوريين.
970	حسب رواية التوارة، تبادل الصوريون التجارة مع مملكة ترشيش وحملت سفنهم الذهب إلى الملك سليمان صهر حيرام ملك صور.
970 - 936	عهد حيرام ملك صور العظيم.
821	أسس الصيدونيون المركز المسمى «كمبه Kambe» في خليج تونس.
814	تأسيس قرطاجة بجوار «كمبه» و «عتيقا» من قبل المهاجرين الصوريين.

الأحداث الرئيسية في بقية العالم

قبل الميلاد -

4200	تقريباً: ابتكر علماء الفلك المصريون تقويم السنة الشمسية.
2750	بناء الأهرامات المصرية الكبيرة. اكتشاف معدن البرونز.
2500	الغرب الأفرو - أوروبي: بناء الآثار المغليثية الكبيرة.
2100	تقريباً: هجرة أبراهام إلى فلسطين - بدء تاريخ الآباء المؤسسين في التوراة.
2057	تأسيس مملكة بابل.
1955	حمورابي ملك بابل.
1580	إخراج الهكسوس من مصر.
1370	نفرتيتي.
1300	السيكوليون (قبيلة من إيطاليا القارية) يستقرون في صقلية ويشكلون أول استيطان فيها، وخاصة في جهتها الشرقية.
1270	رمسيس الثاني.
1250	بدء عصر الحديد.
1215	حرب طروادة.
1020	موت داوود ملك العبرانيين. خلفه ابنه سليمان.
1000	عصر الحديد يبدأ في أوربا الوسطى والشمالية.
960	تشييد معبد أورشليم.
882	آشور بانيبال، الملك الآشوري - الكلداني.
800	ظهور الإغريق على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. الكلتيون يُدخلون الأدوات والأسلحة الحديدية إلى أسبانيا حيث ابتدأ عصرهم الذهبي.
720	سيطرة الإغريق على مضيق مسّينا وتراجع الفينيقيين إلى غربي صقلية حيث وجدوا هناك الإيليميين واندمجوا معهم.

700 الملاحة الفينيقية تشمل كل حوض البحر المتوسط.

681 وقوع صور وصيدا تحت السيادة الآشورية.

654 تأسيس القرطاجيين لمدينة إيبيزا.

600 حسب افتراض «أفيينوس Avienus» وصل بحارة ترشيش في عهد الملك «أرجنتونيوس» (654 - 543) إلى بريطانيا للبحث عن القصدير.

586 بداية حصار صور من قبل نبوخذ نصر الملك البابلي الذي هدم المدينة سنة 573. بعدها استلمت صيدون مقاليد النفوذ الفينيقي.

550 بدأت قرطاجة الحصار البحري لمملكة ترشيش مغلقة مضيق جبل طارق بوجه سفنها ومانعة نقل المعادن عبر حوض المتوسط الشرقي والأوسط - رحلة الأميرال القرطاجي هملكون نحو الشمال باحثاً عن طريق المعادن الذي تكتّم عليه الترشيشيون بغيرة شديدة.

539 استيلاء قوروش الملك الفارسي على بابل. بدء عصر الإزدهار الكبير بالنسبة للموانىء الفينيقية في عهد السيطرة الفارسية.

535 معركة «علاليا» البحرية عند الشواطىء الكورسيكية. انتصار كبير للقرطاجيين الذين تحالفوا مع الإتروريين ضد الفوكيين الذي فقدوا نفوذهم على جزيرتي كورسيكا وسردينيا.

509 نجاح قرطاجة في السيطرة على مملكة ترشيش. أول معاهدة رومانية - قرطاجية حصل البونيون بموجبها على اعتراف الرومان بحقهم في الملاحة في غربي البحر المتوسط انطلاقاً من رأس «فارينا».

480 معركة «هيمير Himere» أو «ترميني Termini» في صقلية وملاحقة «هيرون Heron» و «جيلون Gelon» لجيش هاملقار الذي حاول احتلال الجزيرة مستفيداً من صراع الفرس في اليونان.

450 تقريباً: رحلة حنون القرطاجي البحرية.

348 المعاهدة الرومانية - القرطاجية الثانية. زادت روما من قوتها البحرية وأصبح لسفنها الحق في الإبحار حتى ترشيش.

332 - 331 حصار وتدمير صور من قبل الإسكندر الكبير وتحول المدن الفينيقية إلى مدن هلنستية (يونانية).

776 أول ألعاب أولمبية.

754	الزمن المتفق عليه لتأسيس روما.
639	تصريح يوشيا ملك اليهود.
612	سقوط نينوى عاصمة الآشوريين في يد البابليين.
600	تأسيس مرسيليا من قبل الفوكيين (حسب زعم حزقيال).
	تأسيس «Mainake» من قبلهم أيضاً «بين قادس ومضيق جبل طارق».
593	أقوال حزقيال عن نبوءته الأولى.
587	استيلاء نبوخذ نصر على أورشليم ونفي اليهود إلى بابل.
538	مرسوم «إكبتانا» الذي سمح قوروش بموجبه بعودة اليهود المنفيين في بابل منذ 49 عاماً. ويعتبر البعض هذا التاريخ بمثابة تاريخ لتأسيس الوطن اليهودي.
500	بداية الفترة التي سميت: عصر «بريكليس».
480	معركة سلاميس.
440	تأسيس مدينة «بيري Piree» في اليونان.
	هيرودوت (480 - 435).
304	بناء تمثال رودس العظيم كذكرى لانتصار الرودسيين على «ديمتريوس» ابن «أنتيجونوس» ملك سوريا، الذي حاصر المدينة سنة كاملة.
300	تأسيس قرطاجنة على يد هسدروبعل.
264	بداية الحرب البونية الأولى.
260	أغلقت قرطاجة مضيق أعمدة هرقل كلياً.
241	نهاية الحرب البونية الأولى ـ تخلت قرطاجة للرومان عن صقلية وسردينيا ـ نهاية السيطرة القرطاجية في الحوض الأوسط للبحر المتوسط.
225	معاهدة الإيبر بين قرطاجة وروما التي حددت توسع النفوذ الروماني جنوباً حتى النهر المذكور «الإيبر».
219	استيلاء هانيبعل على «ساغونت» المستعمرة الفوكية الهامة التي تحالفت مع الرومان ـ تحركت روما من جديد معلنة الحرب البونية الثانية.

218	الحرب البونية الثانية ـ اجتياز هانيبعل لجبال البرينيه والألب.
216	هانيبعل ينتصر في معركة «كان Cannes» في شبه جزيرة إيطاليا ـ وينتصر في معارك «تيسّين Tessin» و«لاتريبيا La Trebie» و«تراسيمين Trasimeme».
217	أشار «تاكيتوس Tacitus» إلى «Hibera» كمدينة مخلصة لقرطاجة.
206	غزو قادس من قبل الرومان.
207	معركة زاما ـ خسر فيها هانيبعل المعركة مع سيبيون الأفريقي أمام قرطاجة.
201	استسلام قرطاجة للرومان دون شرط ـ نهاية الحرب البونية الثانية.
150	نهضة جديدة في قرطاجة.
149	الحرب البونية الثالثة التي أثارتها روما.
147	سيبيون يغزو قرطاجة ويدمرها. السكان الباقون على قيد الحياة يرحلون عن أرضهم. هانيبعل يرحل عن قرطاجة باتجاه سوريا.
	نهاية السيطرة الشرقية (الفينيقية) على غربي حوض البحر المتوسط.
125	تأسيس قرطاجة الرومانية من «كايوس سمبرونيوس غراكوس Caius Sempronius Gracehus».
251	دمرت روما «ليباري Lipari» بوحشية، وذلك انتقاماً من سكانها الذين تحالفوا مع القرطاجيين في الحرب البونية الأولى.
56	انتصر يوليوس قيصر في موقعه «موربيهان Morbihan» وأخضع الفينيسيين.

الجزء الأول

فينيقيّو الشرق

- مخترعون عظام
- بنّاؤو معابد
- وأول من قهر البحر



الفصل الأول

● **أصول فينيقيي الشرق:**

إن البحث عن أصول فينيقيي الشرق يتعلق بعلم الآثار بمقدار ما يتعلق بالاسطورة. هذا الشعب المقدام الذي استقر على سواحل لبنان الحالي لم يلبث أن أثبت مزاياه المتفوقة خلال الألف الثاني قبل الميلاد وشرع بالغزو السلمي لبحار العالم بين القرنين الثالث عشر والتاسع قبل الميلاد. لكن من كان بالفعل أولئك الرجال الذين كانوا يزعمون بأنهم «الرجال الحمر»؟...

كان الإغريق بشكل خاص هم الذين أطلقوا عليهم تسمية «Phoeniki» التي كان لها عندهم مدلول «الرجال الحمر».

وبما أن الفينيقيين كانوا خلال ذلك الزمن قد ابتكروا الصباغ الأرجواني فقد اعتقد بعض الباحثين بأن هذا الاسم قد أعطي لهم لتخليد صناعة قومية اقترنت بهم.

● **الرجال الحمر:**

في الواقع كان لهذه التسمية أصل أقدم من ذلك بكثير. إذ كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيقة بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من شبه الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعى ب «الشعب الأحمر» أو الحميريين. إننا نجد بالواقع في لفظتي «حِمْيَر وحِمْيَرِيّن» الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي مازال في أيامنا هذه يعني في العربية الإحمرار.

وليس مستبعداً أن يكون هؤلاء الحميريون قد أعطوا اسمهم أيضاً للبحر الأحمر الذي كانوا يقصدونه والذي لابد أنهم قد عبروه أثناء رحلتهم الطويلة إلى الغرب.

وقد كان الحميريون يشكلون في العصر القديم من القرن العشرين قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي أشهر تكتل عرقي وسياسي في جنوبي شبه الجزيرة العربية. وكانوا يحتلون حضرموت الحالية. وكانت أراضيهم تمتد قديماً من عدن حتى مسقط. هذا ويبدو أن مملكة حمير كانت لها علاقات قرابة وثيقة مع مملكة سبأ. ومن المحتمل أن هاتين المملكتين قد شكلتا خلال عصور طويلة مملكة واحدة. وإن عدد الهدايا التي

تذكر نصوص التوارة أن ملكة سبأ قدمتها إلى سليمان كافية لإعطاء فكرة عن ثراء هذه المملكة. فكان من ذلك: مئة وعشرون وزنة من الذهب وأطياب كثيرة جداً وحجارة كريمة[1]. ولابد أن هذه الهدايا من الطيوب قد اشتملت أيضاً على البخور الضروري للمعابد ولخدمة البيوت الملكية. ومن الجدير بالذكر دائماً أن سواحل حضرموت حملت في تلك الأزمنة اسم «سواحل البخور».

إن لغة الحميريين، التي تدعى أيضاً «العربية الجنوبية القديمة» تبدو وكأنها اللغة الأم للفينيقيين. والكتابات التذكارية التي وجدت في النقوش الحميرية لها بعض الصلات مع الكتابات الفينيقية والعربية.

كان المصريون القدماء يطلقون على مملكة حمير اسم «بلاد البون». وإذا رجعنا إلى قصة «ماسبيرو Maspero»[2] وجدنا أن هناك ألفاظاً مثل «بون» أو «بوانيتي» أو «بويني» وكل هذه الكلمات تعني أيضاً الفينيقيين، كما تعني بالتالي البونيين أي سكان قرطاجة. زد على ذلك أن الحميريين قد سبقوا الفينيقيين في إقامة علاقات تجارية، قبل استقرارهم على الساحل اللبناني، مع الهند وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا. كما سبقوهم في اكتشافهم لمنطقة «أوفير» الغامضة، والتي لم ينجح أحد حتى الآن بالتحقق من هويتها أو موقعها. وأخيراً ببناء منازل عالية مؤلفة من عدة طوابق كالتي سنراها فيما بعد في صور.

إن المنطقة التي استقروا فيها، هذه الرقعة الساحلية، أو هذا الممر بين البحر وجبال لبنان، كانت فيما قبل ذلك قد استوطنتها قبائل كنعانية متحضرة. وقد امتازت هذه القبائل بفنونها الزراعية. وقد تجعلنا النصوص التوارتية نحلّق في الخيال أحياناً من خلال وصفها لبلاد كنعان، تلك البلاد التي تشتمل علىأغلب السهول الخصبة المرتفعة والمنخفضة للبنان اليوم.

وهكذا نشأت سلالة جديدة شيئاً فشيئاً وأقامت في بقاع مختلفة من الساحل مراكز حضارية نشيطة جداً، هي علائم حقيقية للإتحاد بين التجارة الساحلية والاستثمار الزراعي. شعب جديد ذو خصائص متميزة ورث عقلية الحميريين المغامرة وصلابة المزارعين الخشنين، واشتهر باسم الشعب الفينيقي[*].

---

(1): سفر الملوك الأول: الإصحاح العاشر.

(2): قصة قديمة عن شعوب الشرق.

(*): سبق أن أشرت بالتفصيل في تقديم الكتاب إلى التباس التسمية والنقاط البارزة في هذه المشكلة - المحقق -

الفصل الثاني
الحياة الدينية عند الفينيقيين

من المؤسف أنه لم يبق من المدن الفينيقية القديمة آثار مرئية جديرة بالذكر. حيث أضاعت معالمها في كل مكان تقريباً الطبقات الأثرية الهلنستية والبيزنطية وبقايا قصور الصليبيين والأسوار العربية، باستثناءأوغاريت على ساحل سوريا الشمالي، حيث عثر البروفسور «شيفر Schaeffer» على أشياء مدهشة وبالأخص تماثيل صغيرة لبعض الآلهة، أجمل ما فيها ذلك التمثال الذي يرمز إلى الإله «إيل» وعلى رأسه تاج مزين بأوراق من ذهب.

● **الآلهة:**

انتشر من أوغاريت على طول الساحل الفينيقي شكل من أشكال الديانات قائم على فكرة الخصوبة والتعلق الروحي بالشمس وعبادة الظواهر الطبيعية الخارجة عن سيطرة الإنسان.

لقد ساعدت عمليات التنقيب في أوغاريت في الكشف عن ألواحها الفخارية المكتوبة بالرموز الأوغاريتية التي هي مرحلة انتقالية بين المسمارية القديمة والأبجدية الفينيقية المبسطة التي استخدمت اعتباراً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وهذه الألواح الفخارية التي تعود لأواسط الألف الثاني قبل الميلاد قدمت معلومات عن الديانة الكنعانية التي عرفت آلهة عديدة أبرزها «إيل» كبير الآلهة ثم «شمش» إله الشمس و«عليان بعل» إله الحياة و«موت» إله الموت و«رشف» إليه الجيوش، والأصح إله البرق، والإلهة العظيمة «عشتروت».

انتقلت ديانة وكتابة أوغاريت حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى بقية المدن الساحلية الفينيقية التي اعتمدتها بعد أن بسّطتها قليلاً، فقد اختصرت رموز الكتابة من ستة وثلاثين إلى اثنين وعشرين رمزاً.

كما حلّ تدريجياً محل تلك الآلهة الكثيرة ثالوث أعظم يضم كلاً من «إيل» الإله الأكبر و«بعل» الذي هو السيد و«بعلة» التي هي عشتروت، بالإضافة إلى إله شاب هو مبدأ الحياة والعمل يدعى في أوغاريت «عليان» وكانت له تسميات أخرى، إذ دعي

«ملقارت» في صور و «إشمون» في صيدا و«أدونيس» في جبيل. وكان «ملقارت» و«إشمون» يُرمز إليهما بشخص محارب منتصر أو بحّار عظيم. وإننا لنجد في كلمة «ملقارت» الجذر (م ل ك) الذي نجده في كلمة ملك والذي يعني الرئيس الأعلى(*). ألم يعتبر ملقارت هو الرئيس الأعلى المسيّر لرحلات الفينيقيين البحرية الكبيرة والرئيس الروحي لتلك الشركات التي كانت تتوسع بتجارتها من صور عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؟... أما أدونيس الذي هو تجسيد آخر من هذا الثالوث، فتقول الأسطورة أنه وُلد يوم مسير في الجبال المنتصبة فوق جبيل في أفقا بالقرب من الينابيع المتفجرة من ذلك الشلال الكبير الذي مازال يحمل اسمه. ويقال أنه ذهب إلى الصيد بالرغم من تحذيرات عشيقته الإلهة «أفروديت» وأصيب بجرح قاتل عندما هاجمه خنزير بري مزق له فخذه وظل دمه ينزف وهو ممدد على بساط من العشب الطري، ثم تسرب دمه في الأزهار - كما تعبر الأسطورة - وهكذا نبتت شقائق النعمان التي تتفتح بكثرة خلال الربيع في الريف اللبناني.

أما بالنسبة لنهر أودنيس الذي يصب في البحر إلى الجنوب قليلاً من جبيل ففي كل سنة في ذلك الوقت تسيل مياهه حمراء، «إنه دم أدونيس»... هكذا يقول الفلاحون المسنّون.

وقد وجد «موريس دونان Maurice Dunand» العبارات المناسبة لتعريف قوة هذا الإعتقاد إذ كتب:

«.. كان القدر يتحكم بحياة الإله الشاب كما يتحكم بحياة الناس بالرغم من قوانين السماء وجهنم. إن دم أدونيس لم يكن سوى الينبوع المتدفق للسعادة التي تتخلل كل الأشياء، حياة معززة ومتجددة للطبيعة..»

أقام الفينيقيون إذاً في كل من صور وصيدون وجبيل عبادة بعل وعشتروت بالإضافة إلى ألوهية ثالثة تتفق وطموحاتهم في كل مدينة وهذه الآلهة كانت تمثل ثلاث قوى: الشمس والقمر والعقيدة أو المبدأ الإلهي في عمل الناس. فهي إذاً تشكل الثالوث الأعظم. ومن الجدير بالملاحظة أن قبرص القريبة من هذه المراكز التجارية الفينيقية حلت فيها عبادة أفروديت محل عبادة عشتروت. وربما كانت أفروديت في الواقع ترجمة يونانية لإسم «أشتوري أو أفتوري» الذي يعني أيضاً

(*) الأصح هو أن «ملقارت» لفظة ناتجة عن دمج الكلمتين «ملك» و«قرت» أي: مدينة، بحيث أن المقصود بالتركيب هو: ملك أوسيد المدينة - المحقق -

عشتروت. وقد انتقلت عشتروت/ أفروديت، هذه الإلهة القمرية وربة الخصب، بما لايقبل الجدل إلى العالم الإغريقي بواسطة الفينيقيين. وكانت أشهر معابدها في قبرص وفي جزيرة «Kythera» وعلى جبل «Eryx» وكانت هذه المعابد مقصودة بكثرة وعرفت بممارسة البغاء المقدس حيث كانت أكثر كاهناتها تستقبل لهذه الغاية البحارة والمسافرين الذين يتبرعون بمبالغ كبيرة لشؤون العبادة. وقد كانت لعبادة أفروديت شهرة واسعة في المدن الواقعة على سواحل البحر المتوسط وبالأخص في «كورنت Corinthe» حيث يروى أن ما يقارب الألف من البغايا كن ينتظرن الحجاج.

ومن ثم تطورت العبادة في العصر الروماني حيث عبد الرومان عشتروت أو بالأحرى أفروديت تحت إسم «فينوس Venus» واعتبرت بفضل ولدها «إيناس Enee» بمثابة أم للشعب الروماني.

بالرغم من سيادة إله الشمس الأكبر «بعل» فإننا سنكتشف الأهمية التي أعارها الفينيقيون دائماً للإلهة العظيمة التي انتشرت عبادتها في كل أنحاء البحر المتوسط مُدخلة فيما بعد إلى قرطاجة الربة البونية «تعنيت» الشهيرة ومهيئة السبل فيما بعد لظهور الديانة المسيحية، ديانة مريم. وفيما عدا الثالوث الأعظم كانت في فينيقيا آلهة صغرى أو عبادات محلية لانعرف عنها إلا القليل. وسنذكرها في سياق البحث عندما نصبح على طرق الذهب والقصدير بحثاً عن المنشآت الفينيقية القديمة.

● العبادة:

بالنسبة للديانة الفينيقية، أو الكنعانية عموماً، كان جوهر العبادات يعكس اهتماماتهم الزراعية. إذ كانوا يتوسلون إلى الآلهة كي تمدهم دائماً بالخبز والماء والصوف والكتان والزيت والخمر والحليب والعسل. فكان إذاً لابد من وجود أعياد عندهم تتفق مع تغيرات الفصول والحياة الزراعية كمواسم الزرع والربيع والحصاد والبيع وقطف الثمار.

وكانت عبادة الآلهة تقام في الهواء الطلق أو في المعابد. وقد وجدت عندهم مذابح بسيطة أقيمت في الأماكن المرتفعة وبعض المواقع المختارة لجمالها الطبيعي أو تميزها بجاذبية روحية قوية، مكرسة خصيصاً لتقديم القرابين للإله بعل أو غيره من الآلهة.

وقد عثر في أوغاريت على دعائم معبد كان للإله بعل يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كما عثر في جبيل على بقايا معبد يدعى «معبد المسّلات». أما بالنسبة لمعبد صور الشهير، الذي لم يبق منه شيء، فمن السهل أن نتصور مخططه استناداً لما هو معروف من أن مهندسين معماريين ومقاولين وبنائين من صور هم الذين قاموا بانشاء معبد أورشليم الغني عن التعريف.

وكان يقوم على خدمة المعابد كهنة كرسوا حياتهم للآلهة تحت إمرة كاهن أكبر، ويقال لهم بشكل عام «قديشيم» ـ أي قديسون ـ وكانوا يرتدون سترات بيضاء طويلة دون حزام، ومازلنا في هذا العصر نشاهد شبيهاً لها يدعى «الجبة».

● **القرابين أو الأضاحي:**

استمر تقديم القرابين عند الفينيقيين زمناً طويلاً. وعُرفت عندهم بشكل خاص التضحية بالأطفال. وكانت تقام شعائرها غالباً خارج المعابد. وبمرور الزمن، وخاصة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، أخذ الفينيقيون تدريجياً يستعيضون عن التضحية بالأطفال بتقديم قرابين من الحيوانات كأكباش الغنم والطيور وغيرها.

وكان المضحي يتبع تقليداً معيناً، إذ يتقدم مع الحيوان المضحّى به واضعاً يديه فوق الرأس كتعبير عن طلب البركة.

لقد كانت هنالك علاقة بين أشكال الاعتقادات ومبدأ تقديم القرابين، فالمضحي يشعر بأنه قد تخلص من ذنوبه ونقائصه التي ذهبت في دم ولحم الضحية، ويعتقد أن الدم يصله مع القداسة وبذلك يضاعف الكثير من ثمرات هذه الصلة. هذا وان مفهوم التقدمات من الأغذية أحياناً للآلهة يتطابق إلى حدٍ ما مع الاعتقادات الصوفية بشكل واضح.

وإن كانت الأضاحي من الحيوانات لاتصلح فعلياً لتعبّد الآلهة، فهي تسهم إسهاماً كبيراً في تأمين الحاجات الغذائية لأولئك الكهنة في المعابد.

أما الظروف التي كانت تقدم فيها الضحايا فلم تكن تختلف عند الفينيقيين إلا نادراً عن تلك الشروط التي جاءت عند العبريين محددة في سفر اللاويين كما يلي:

ـ ذبائح أو تضحيات العبادة.

- ذبائح او تضحيات المغفرة أو العفو عن الذنوب.

- ثم تضحيات الشكر للآلهة.

● **معتقدات الموت:**

كان الموت محاطاً بطقوس خاصة. ويتبين من كل المقابر الكبيرة الفينيقية أو المتأثرة بالفينيقيين أن الأموات كانوا يعاملون بكثير من التقدير.

وكان الفينيقيون (وبشكل عام الكنعانيون) يعتقدون بأن الجسد لا تسكنه روح فحسب، وإنما يرون أن هناك «نفش» أي نفس (مادية أو نبتية) وهناك «روح»(*) وأن المتوفى لايفقد لدى موته سوى الروح ويحتفظ في قبره بالقرب من جسده بنفسه (المادية أو النبتية) التي تحتاج لأن تأكل وتشرب، وحتى لأن تتنزه أو تتأمل الطبيعة ولذا كانت المقابر الفينيقية عموماً في أماكن عظيمة توحي بالمهابة وغالباً على الشواطىء الصخرية المطلة على البحر. وكانوا يعملون على تأمين نقل الماء للمتوفي. ومما يسترعي الانتباه اختلاف نماذج القبور، إذ أن المقابر الكبيرة في جبيل وقرطاجة وأوتيكا وسردينيا وإيبيزا وطنجة كانت قد صممت بطريقة مختلفة تماماً.

كيف تفسر ياترى ذلك التجويف الموجود في النهايتين السفليتين داخل سراديب الدفن الحجرية في مقبرة أوتيكا؟... إن مثل هذا التجويف لم يلاحظ في أي مقبرة أخرى أو تابوت حجري في مكان آخر.

والفينيقيون، أولئك الناس الواقعيون الذين يعلقون أهمية كبيرة على التراث المادي، كانوا نادراً ما يدفنون مع موتاهم في القبور أشياء ذات قيمة كبيرة. والاستثناء الوحيد من ذلك هو تلك الأشياء الجنائزية التي وجدت في التوابيت الحجرية لبعض ملوك جبيل والتي دفنت مع شعاراتهم الملكية، ومن بينها حلي أو أمتعة ثمينة وهبات جنائزية وهدايا من أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة في مصر.

● **سعياً وراء الشمس:**

الواضح في مجموعة الاعتقادات والطقوس والعبادات التي كانت قوام الديانة الفينيقية أن الفكرة المسيطرة هي سلطة الشمس الواقعية وفكرة الخصب. وهكذا

(*) لم يكن هذا تقليداً كنعانياً أو فينيقياً صرفاً بل كان معروفاً في كل المناطق السورية. والواقع أن كلمتي نفس وروح مشتركتان في كل ما يدعى «اللهجات السامية» وليس بينهما من حيث المدلول إلا اختلافات سطحية حسب الاستخدام. والكلمتان لهما علاقة بالحياة والموت في آن واحد - المحقق -

كان التعلق الروحي بالشمس يشكل الحافز للتوسع في الإبحار نحو الغرب(*).

لكن معابد عشتروت المكرسة للحب، والتي ترمق البحار على طول طريق الشمس، تذكرنا بأن الديانة الفينيقية كانت أيضاً ديانة الأنوثة الكونية.

وأخيراً يبدو أن إهمال الآلهة المتعددة والأهمية التي خصّوا بها الإله الكبير «إيل»، يبدو أنه قد هيأ ـ كما كان بالنسبة للديانة اليهودية ـ السبيل الثاني نحو الوحدانية (الإيمان باله واحد).

أليس أمراً مثيراً أن ندرك أن المسيح في استغاثته الأخيرة قد طلب لنجدته الإله الفينيقي الكبير «إيل»؟...(**)

(*) لا أود مجاراة المؤلف في هذه الفكرة بحرفيتها، لأنه لما كانت التجارة البحرية هي المحور الأساسي الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية للمراكز الساحلية الكنعانية فمن المنطقي أن يكون حافز التوسع في الإبحار ثم إقامة المستوطنات اقتصادياً أكثر منه روحياً، خاصة أنه من المعروف عن الكنعانيين أنهم احتلوا المرتبة الأولى في التجارة البحرية للعالم القديم. ومن الطبيعي أن وصولهم إلى جهات مختلفة من البحار كان يتبعه إنشاء مراكز عبادة، بحيث أن ذلك يعتبر نتيجةً وليس هدفاً أو غاية ـ المحقق ـ

(**) يجدر بنا أن نفهم هذه العبارة بمضمونها الحقيقي وليس بحرفية الكلمة من حيث ظاهرها. فكلمة «إيل» بعد أن كانت عند الكنعانيين (والبابليين أيضاً) إسماً لإله معين صار فيما بعد كبير الآلهة، تطورت في آرامية العهود اللاحقة، اللغة التي تكلمها المسيح، وأصبح لها مدلول الشمولية بحيث صار يقصد بها الإله بشكل مطلق. فعندما صرخ المسيح بالآرامية: «إيلي.. إيلي.. لما شبقتني؟...» وتعني بالضبط: «إلهي.. إلهي.. لماذا تخليت عني؟..» لم يكن المقصود بذلك الإله الفينيقي «إيل» بالتحديد بل الإله بشموليته الكونية ـ المحقق ـ

الفصل الثالث
فينيقيا ومدنها

عندما يهبط القادم إلى بيروت في مطارها الدولي يلاحظ وقوعه في تلك البقعة المحصورة بين ساحل البحر المتوسط وسلسلة جبل لبنان الغربية ويرى ترتيبات لمرفأ جوي حديث.

في تلك المنطقة المحصورة بين سوريا الحالية وفلسطين تكوّن لبنان الحالي من هذا السهل الساحلي الضيق والسلسلة الجبلية ومنخفض البقاع الغني الممتد فيما وراءها. لكن الفينيقيين أنفسهم لم يسيطروا على أراض بمثل هذا الإتساع، إذ كانت منشآتهم تقتصر على مدن تجارية ومرافىء(*). وكان رواد الملاحة هؤلاء قد أسسوا مدناً مثل صور وصيدون وبيروت وغيرها فوق رؤوس ساحلية اشبه بالجزر وبروزات صخرية ضيقة. ومن منشآتهم أيضاً أوغاريت القديمة وأرواد وهما تتبعان سوريا الحالية. ونخص بالذكر جبيل التي يقول البعض أنها أقدم مدينة في العالم. وقد سُكنت، كما قال «موريس دونان»، في الألف السادس قبل الميلاد ـ أي قبل الفينيقيين بزمن طويل، وقد وجدت في جبيل بقايا أول نوع من المنازل بني بالأحجار المربعة.

● **أشجار الأرز:**

كان تاريخ الفينيقيين أول ما انطلق من شهرة أشجار الأرز التي غطت في العصور القديمة أكبر مساحة من جبال لبنان. ونصوص العهد القديم تعود مراراً إلى ذكر الأرز في لبنان. من ذلك مثلاً ما جاء في سفر حزقيال، الإصحاح الحادي والثلاثين:

«... هو ذا أعلى الأرز في لبنان جميل الأغصان وأغبى الظل وقامته طويلة وكان فرعه بين الغيوم...».

إن هياكل القصور القديمة، المصرية والآشورية، في ذلك العصر، وحتى معبد أورشليم، قد بنيت كلها من خشب أشجار الأرز اللبنانية. كما كانت أحواض السفن

(*) من المعروف أن الكنعانيين انتشروا في كل سوريا العميقة التي تتجاوز البقاع شمالاً والبحر الميت جنوباً إضافة إلى المناطق الساحلية. إلا أن تسمية فينيقيين وحصرهم بالشريط الساحلي أصبحت بمثابة اتجاه تاريخي عند أغلب الكتاب. وقد ورد في تقديم البحث التعليق على ذلك ـ المحقق ـ

في صيدون وصور تستهلك منه كميات هائلة. وهذا هو سبب الاجتثاث شبه الكلي لغابات جبال لبنان، حيث نرى اليوم منحدرات شاسعة جرداء تظهر متلألئة عند هطول الثلج شتاء، وتزينها وسمة لطيفة من الزهور التي تنبت في الربيع والصيف. وهكذا لم يبق من غابات الآرز سوى حوالي ثلاث أو أربع مئة شجرة تنتصب فوق هضبة عالية غير بعيد عن بلدة بشرّي. في ذلك الموقع تصمد أشجار الأرز هادئة في الغابة القديمة، غابة حقيقية مقدسة تقع تحت رعاية كاهن ماروني. والمعروف أن لبنان الحديث اختار شجرة الآرز كشعار وطني له.

في بيروت أطلعني مدير دائرة الخدمات الزراعية على شجرة أرز متحجرة محفوظة في مستودع المدينة، كان قد عُثر عليها مطمورة في الأرض على عمق بضعة أمتار، وذلك خلال عملية شق طريق جبلي. وقد صرح «جورج بورجي» من المعهد الفرنسي لعلم الآثار، الذي كان يرافقني، صرح بأنه كان يجب بناء صرح قومي لحماية هذا الكنز. وحدثني قائلاً:

«علينا أن نكون واضحين، فشجرة الأرز المتحجرة هذه قد عرفت الفينيقيين. ويعتقد الخبراء أن عمرها كان يبلغ من سبع إلى ثمان مئة سنة عندما تركت في مكانها منذ أكثر من 2000 سنة...».

كانت أشجار الأرز تقطع في الجبل وتنقل حتى الساحل حيث تحوّل إلى ألواح مربعة، وتحمل فوق سفن أو تسحب بطريقة التعويم على الماء. ثم تنزل في أمكنة من السواحل أقرب ما يمكن إلى الورشات التي تتزود منها.

وعلى المسافات البرية باتجاه مدن الرافدين كانت القوافل تنقل هذه الأخشاب. وقد خُلّدت عمليات النقل البحرية والبرية على لوحات فنية كبيرة كانت في معبد سرجون بمدينة «خورساباد» يمكن مشاهدتها الآن في متحف اللوفر. وهي رقع مرسومة حقيقية منذ ذلك العصر.

بين جبل لبنان والبحر كانت تمتد رقعة من الأرض طويلة خصبة، هي التي نعرفها اليوم. وفيها توجد ثمار الجنة التي ورد وصفها في نصوص العهد القديم على لسان حزقيال كما يلي:

«... عناقيد من العنب ذات حبات مليئة بالسكر والشمس... ذخائر من الحليب ومن العسل...»

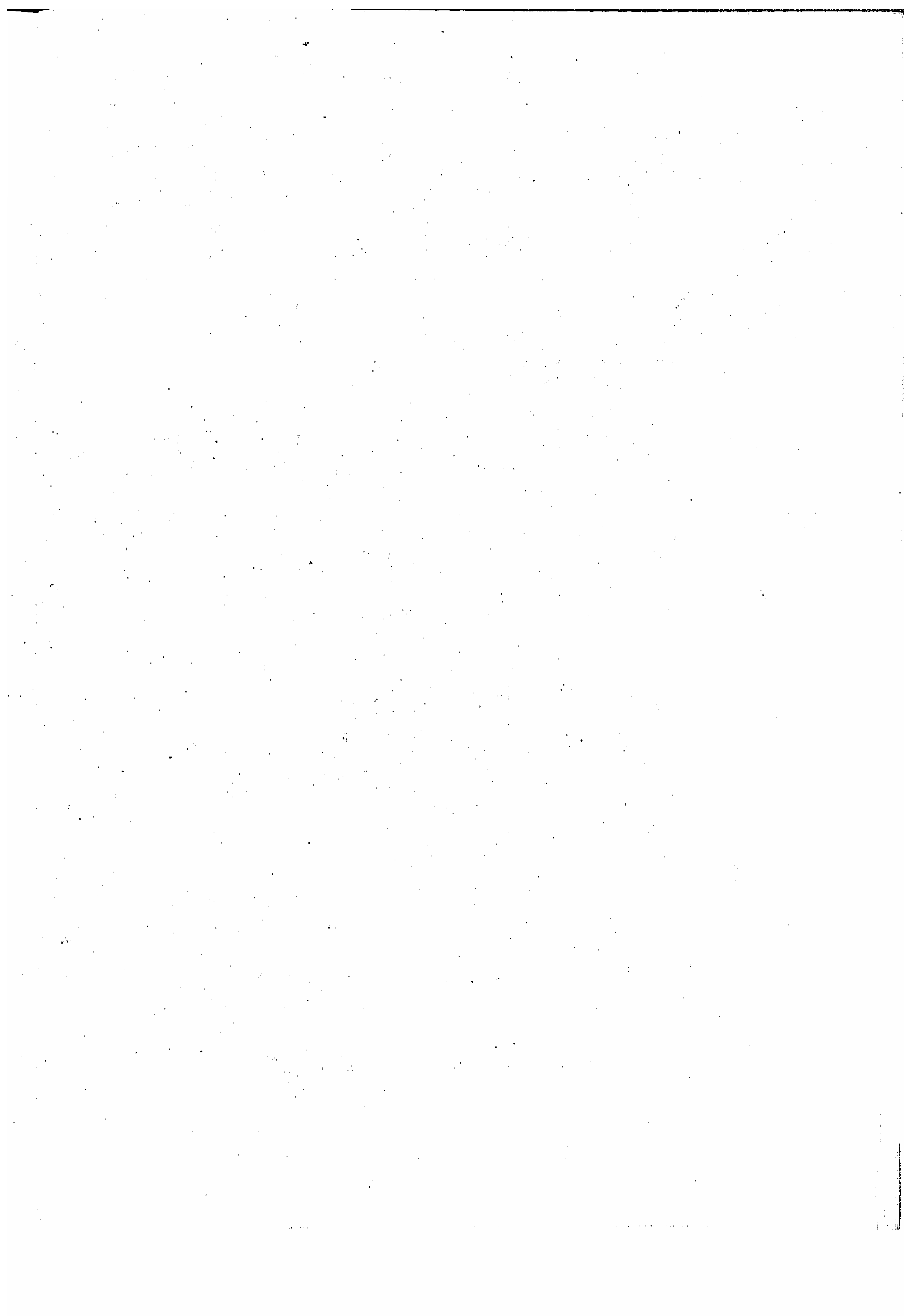
وعلى مر القرون استمر رخاء العيش على هذه البقعة من الأرض. وإذا كان ثراء

المدن الفينيقية وغنى بساتينها هما سبب الأطماع عند الآخرين فقد اجتذبت بشكل خاص تيارات إنسانية وثقافية ذات فائدة أتت من الشمال (الحثيين) ومن الشرق (بلاد الرافدين: بابل وآشور) ومن الجنوب (مصر).

وفي هذا الوضع غير المستقر للمدن الساحلية «النشيطة جداً» نشأت شيئاً فشيئاً سلالة سكانية جديدة تحت تأثير الفعالية والوعي وتطور التقنيات والفنون. إنها حضارة حقيقية مركبة ذات شهرة عالمية.

لأول مرة في تاريخ العالم القديم أقامت جماعة صغيرة من الناس نظاماً جديداً لتبادل البضائع وتبادل الثروات والفكر الذي انتشر في كل أنحاء البحر المتوسط انطلاقاً من هذه المراكز:

جبيل - صور - صيدون - بيروت.



الفصل الرابع

جبيل «بيبلوس».. حاضرة الكتابة

تعتبر جبيل المدينة الفينيقية الوحيدة التي تظهر فيها بوضوح طبقة الركام الأثري الفينيقي. وتتراءى هذه المدينة للناظر وكأنها حديثة العهد قد نشأت بالأمس رغم عمرها الذي يقارب الثمانية آلاف من السنين.

فهنا تتراكب وتتشابك مدن حقب حضارية مختلفة تبتدىء ب جبيل العصر الحجري الحديث (النيوليتيك)، ثم جبيل ذات المنازل الحضرية الأولى (حوالي 3000 قبل الميلاد)، وجبيل العموريين الذين قدموا من أقاصي البادية السورية حوالي 2000 قبل الميلاد، وجبيل القرن الثامن عشر قبل الميلاد حيث كانت موجة الهكسوس الذين جلبوا معهم فن ترويض الحصان وصنع العربة.

هذا وتكشف لنا عمليات التنقيب الأثري عن عهد طويل من النفوذ المصري يمتد مابين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد. ثم خلال العصر الذهبي لفينيقيي الشرق حتى القرن السابع قبل الميلاد. ثم نتبين بعدها ملامح السيادة الآشورية والبابلية حتى سنة 539 قبل الميلاد، وآثار النفوذ الفارسي قرابة القرنين من الزمن.

يبدو أن فترة النفوذ اليوناني كان لها تأثير على جبيل أكثر من بقية المدن الفينيقية. ففي هذه الفترة بطل استخدام الاسم الكنعاني القديم «ج ب ل» حيث أطلق عليها اليونان اسم «بيبلوس».

لماذا «بيبلوس Byblos»؟...

هذه الكلمة اليونانية تعني أساساً: الورق، وصار يقصد بها: الورق المكتوب، وبالتالي: الكتاب، حيث اعتبرت بذلك المدينة الأم للكتابة ومنها أيضاً بقيت تسمية: «Bible» ـ الكتاب المقدس ـ في اللغات العالمية حتى اليوم. وهي مدينة الأبجدية الحديثة الأولى.

أجمل المعالم الأثرية الفينيقية في جبيل هو ما يدعى معبد المسّلات (أو النصب). وقد تبين لدى القيام بعمليات التنقيب الأولى في ركام الفترة البابلية أنه كان يوجد في

القسم السفلي منها معبد آخر أكثر قدماً وسابق لزمن الأموريين الذين أعادوا بناءه. وللتمكن من تحري بقايا هذا المعبد القديم دون خسارة الإكتشاف الأول عمد الباحث الأثري الفرنسي موريس دونان، وهو الذي اقترن اسمه باسم مدينة بيبلوس منذ سنوات طويلة، عمد إلى نقل بقايا المعبد الفينيقي من مكانه بضع عشرات من الأمتار باتجاه الشرق، معيداً بناء هذه البقايا بدقة وبنفس الاتجاه.

وقد دعي معبد المسلات (أو النُصب) لوجود عدد كبير منها في فنائه تتراوح ارتفاعاتها بين 25 سنتمتراً وثلاثة أمتار، انتشرت للغرابة دون أي تناسق أو ترتيب. وهذه الأحجار التي أقامها الحجاج أو كهنة المعبد بناء على رغبة المؤمنين، تمثل إما صور الآلهة نفسها وإما شاهداً عن مجموعة من المؤمنين أمام الآلهة. والمدهش في الأمر هو أن هذه النصب قاومت عوامل الزمن واحتفظت بوضع جيد، رغم أنها وهي المحاطة بهالة خرافية دينية، كانت ملعونة ومحكوم عليها بالدمار، سواء من قبل أنبياء اليهود أو من قبل مبشري المسيحية، أو فيما بعد من قبل النبي محمد. ألم يذكر القرآن المسلمين بقوله: «إنما الأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون..»؟... وفي موضع آخر تُحذر المؤمنون من رجس الحيوانات المذبوحة أمام الأنصاب. لقد دامت إذاً الاعتقادات المتعلقة بهذه الحجارة المتحدرة من العالم الفينيقي والمصري قروناً عديدة. وكانت هذه النصب تسمى «بيت إيل» أي بيت الإله.

في ذلك المعبد في بيبلوس كانت هذه النصب ذات أشكال مختلفة جداً فتارة هي مسّلات نحتت باتقان، وتارة أخرى أكوام بسيطة من الحجارة الضخمة المربعة. كما أن مايثير الإعجاب في هذا المعبد مرساة بدائية من الحجر ذات شكل هندسي، في جزئها الأعلى توجد فتحة لمرور الحبل الذي كان يساعد على تحريكها.

ماهو الهدف ياترى من وجود هذه المرساة هنا؟...

أهو تكريم بعد عملية إبحار شاقة؟... أو ربما دليل نذري إثر معركة بحرية رابحة، حيث أن المعبد قد اعتُبر معبد الإله «رشف» الذي تُنسب إليه أمور الحرب، وقد دون اسمه فوق أعلى نصب عثر عليه في الجهة الشمالية من الفناء.

أكتشفت في جبيل مجموعة من الكنوز الأثرية الثمينة التي ترجع إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد، من ذلك قيثارة ملكية وسيف له غمد ذهبي وعلب من السبج

(الحجر الزجاجي الأسود) المحاط بالذهب ودروع وغير ذلك... كما عثر أيضاً على التماثيل الشهيرة التي يمكن أن تعبّر عن فن محلي صرف. أما في المقبرة الملكية الكبيرة فقد اكتشف ناووس (تابوت) الملك أحيرام والتوابيت الأخرى الحجرية لأفراد عائلته. وقد نحتت على شكل صندوق له غطاء سميك. ولم تلاحظ نقوش إلا على تابوت الملك أحيرام حيث تبدو التوابيت الأخرى طبيعية.

وقد وجدت في هذه المقبرة الملكية الكبيرة نقوش مختلفة استخدمت فيها الأبجدية الفينيقية الأولى أو أبجدية أحيرام المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. وهي التي صارت للمرة الأولى تأخذ بعين الاعتبار الأهمية اللفظية للأحرف بدلاً من الرموز المتعددة. وقد كان هذا بالنسبة لذلك العصر ابتكاراً عجيباً. هذا وقد اشتُقّت من أحرف هذه الأبجدية اللفظية، بعد أن طرأت عليها تطورات متعاقبة، عائلة الأبجديات البونيه من جهة، والأبجديات الإغريقية اللاتينية في شمالي البحر المتوسط من جهة أخرى. كما أثرت أيضاً على الأحرف العربية والعبرية وبعض رموز اللغة القديمة البربرية في الشمال الأفريقي، التي أصبحت اليوم منسية.

لكن ما الذي تقوله لنا هذه النقوش المكتشفة في المقبرة الملكية الكبيرة؟... هناك نقش على جدار البئر هو عبارة عن تحذير للمتطفلين كما يلي:

«هاهو هلاكك في الأسفل!...».

وهناك النقش الموجود على غطاء تابوت أحيرام والذي جاء فيه:

«التابوت الذي صنعه إيتوبعل ابن أحيرام ملك جبيل لأبيه أحيرام كمسكن أبدي. وإن هاجم جبيل ملك أو حاكم أو قائد واعتدى على حرمة هذا التابوت فليكسر صولجان حكمه وليسقط عرشه الملكي وليهجر السلام جبيل. وأما هو فلْتُمْحَ كتابته...».

ولكن رغم ذلك فإن المقبرة الملكية قد اعتُديَ على حرمتها، إذ وجدت توابيت العائلة الملكية فارغة تماماً وبذلك لايمكننا أن نعرف إطلاقاً ما هي الكنوز التي دفنت إلى جانب الملك وحاشيته، كما أننا لا نعرف إطلاقاً من كان الذين قاموا بذلك.

بالرغم من ذلك عرفت المدينة زمناً طويلاً من الرخاء في الفترة الهلنستية، وبعد إصلاحات وتحسينات من قبل الرومان أصبحت معقلاً منيعاً فيما بعد للمحاربين الصليبيين الذين فرنسوا الاسم الفينيقي القديم ولفظوه: «Giblet».

احتُلت جبيل عنوة من قبل صلاح الدين في عام 1181 ثم استردها الصليبيون الذين تراجعوا فيما بعد بشكل نهائي إلى قبرص عام 1266. أما القلعة (معقل الصليبيين) فقد رممها الأتراك فيما بعد، وهي تحافظ على الميناء الصغير الذي يلفه هدوء ساحر والذي كانت تشغله قبل 3000 سنة السفن وطواقم الملاحين والبحارة وهم في حركة دائبة.

الفصل الخامس

صور

..« ياصور أنتِ قلتِ أنا كاملة الجمال...

تخومك في قلب البحور..

بنّاؤوك تمموا جمالك..

عملوا كل ألواحك من سرو سنير..(*)

أخذو أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري...»

سفر حزقيال، الإصحاح السابع والعشرون : 3 - 5

تقع مدينة صور اليوم على طرف شبه جزيرة فوق بروز صخري يتصل بالساحل اللبناني بواسطة بقعة رملية. وقد تشكلت هذه البقعة حول الحاجز الذي بناه الاسكندر الكبير لاحتلال جزيرة صور الصغيرة، التي استبسل سكانها حتى الموت.

لكن موقع صور لم يكن دائماً فوق هذه الجزيرة الصغيرة. فمدينة صور الأولى - القديمة - كانت تقع في الجهة المقابلة تماماً، فوق البر. وقد تركت المدينة القديمة وبنيت الحديثة فوق الجزيرة لمواجهة ضغط الآشوريين المستمر وهجومهم المتكرر. والمعتقد أن نقل المدينة لم يحصل دفعة واحدة (بشكل هجرة) بل كان تدريجياً في أزمنة مختلفة. ولابد أنه قد تم في أواخر القرن السابع قبل الميلاد - عندما ذكرها حزقيال في نبوءته الأولى وأنشد مجد جزيرة صور التي كانت بأبراجها الحجرية العالية ومنازلها المتعددة الطوابق تعد أحدث مدينة في عالم ذلك العصر -.

● **موارد صور:**

نقرأ في سفر حزقيال، الإصحاح السابع والعشرين: 9 - 25

«... جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيكِ ليتاجروا بتجارتك. فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك. علقوا فيك ترساً وخوذة. هم صيّروا بهاءك. بنو أرواد

(*) سنير تسمية أمورية لجبل حرمون (الشيخ). وقد اختلف المدلول الجغرافي لهذه التسمية في الحقب اللاحقة إذ أطلقها الجغرافيون العرب على كل سلسلة لبنان الشرقي وأحياناً على جزء منها - المحقق -

مع جيشك على الأسوار من حولك. والأبطال كانوا في بروجك. علقوا أتراسهم على أسوارك من حولك. هم تمموا جمالك. ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ياوان وتوبال وماشك هم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك. ومن بيت توجرمة بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك. بنو ددان تجارك. جزائر كثيرة تجار يدك. أدّوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس. آرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت. يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارك. تاجروا في سوقك بحنطة مِنّيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى بخمر حلبون والصوف الأبيض. ودان وياوان قدموا غزلاً في أسواقك. حديد مشغول وسليخة وقصب الذريرة كانت في سوقك. ددان تاجرتك بطنافس للركوب. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة. في هذه كانوا تجارك. تجار شبا ورعمة هم تجارك. بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا اسواقك. حران وكنة وعدن تجار شبا وآشور وكلمد تجارك. هؤلاء تجارك بنفائس بأردية اسمانجونية ومطرزة واصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز بين بضائعك. سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلأتِ وتمجّدتِ جداًفي قلب البحار...»

لم يُعثر عملياً خلال التحريات على أي شيء يذكر من هذه العظمة الموصوفة آنفاً. ويجب القول أن صور القديمة التي غالباً ما هوجمت ونهبت قد هدمت بشكل كامل في عام 574 قبل الميلاد عندما حاصرها نبوخذ نصر وكانت المدينة الجديدة المتألقة، فوق الجزيرة الصخرية الصغيرة، وقد احتلت هي أيضاً، وعند تدميرها الكامل في سنة 331 قبل الميلاد لم يترك فيها جنود الاسكندر الكبير غير أكوام من الأنقاض.

● **حيرام ملك صور.. وسليمان:**

تكمن قصة حيرام عند ملتقى غريب مابين الميثولوجيا والتوارة. كان هذا الملك الأسطوري صديقاً لداودد. وبعد موت داوود غدا صديق وشريك الملك سليمان حتى أنه زوجه بابنته، ويقال أنها كانت زوجته المفضلة. وحيرام من جهته كان، كما تقول الأسطورة، يتحدر من «أجينور» مؤسس صور. وتروي نصوص سفر الملوك الأول قصة زواج آخر بين العبرانيين والفينيقيين عندما أخذ الملك آخاب إيزابل ابنة إيثبعل ملك صيدون.

عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية، ولدى قراءتي لأبيات «Athalie» الشهيرة جداً:

«.. كان ذلك في رهبة ليل دامس

بدت أمامي أمي إيزابل

كما في يوم موتها.. مزينة بأبهة...»

عندها لم أكن أتصور أنني كنت ألتزم بدراساتي الفينيقية من دون أن أعلم ذلك.

وبصدد العلاقة الوثيقة بين الملك سليمان وحيرام الكبير نرى لابد من نقل هذه الرسالة الغريبة من سفر الملوك. الإصحاح الخامس:

«.. فأرسل سليمان إلى حيرام يقول: أنت تعلم أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه. والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وهأنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب إلهي كما كلّم الرب داوود أبي قائلاً أن ابنك الذي أجعله مكانك على كرسيّك هو يبني البيت لاسمي. والآن فأْمُر أن يقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك. وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين...»

....

«وأرسل حيرام إلى سليمان قائلاً: قد سمعت ماأرسلت به إليَّ. أنا أفعل كل مسرّتك في خشب الأرز وخشب السرو. عبيدي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثاً في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله. وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعاماً لبيتي...».

وهكذا...

«... فكان حيرام يعطي سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرّته... وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف مدّ حنطة طعاماً لبيته وعشرين مكيالاً من الزيت.. وهكذا كان سليمان يعطي حيرام سنةً فسنة.. وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهداً...».

حيرام آخر من صور، بارع في صنع البرونز، ارتبط اسمه بمعبد أورشليم، إذ أنه سكب وصنع في هذا المعبد أعمدة وتيجان أعمدة ومزهريات للرماد وأقداحاً لرش الماء المقدس، بالإضافة إلى روائع فنية أخرى كلها من البرونز المصقول.

استمرت أعمال بناء المعبد عشرين سنة، وقد شيد في نفس الفترة القصر الملكي وعدد من المدن والأماكن المحصنة.

ونقرأ بعد ذلك في سفر الملوك الأول، الإصحاح التاسع، 11 ـ 13:

«وكان حيرام ملك صور قد ساعف سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرّته... أعطى حينئذٍ الملك سليمان إلى حيرام عشرين مدينة في أرض الجليل... فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي أعطاه إياها سليمان فلم تحسن في عينيه. فقال ماهذه المدن التي أعطيتني يا أخي؟...».

● **حملة الإبحار الأولى:**

لكن حيرام لم يفعل شيئاً أكثر من تأمين بناء معبد أورشليم. كما كان أيضاً رجل أعماله وله شراكات مع سليمان.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى سفر الملوك وجدنا شيئاً من ثروات سليمان ورحلات سفنه، حيث يُفهم أنه جهز أسطولاً في «عصيون جبر»، التي يُعتقد أنها وقعت قريباً من إيلات على الساحل الشمالي للبحر الأحمر. وأرسل حيرام على سفنه خدمة وبحارته الذين كانوا يعرفون البحر مع خدم سليمان، وذهبوا كلهم إلى «أوفير» وجلبوا من هناك أربع مائة وعشرين وزنة من الذهب.

ويتخلل ذلك وصف زيارة ملكة سبأ للملك سليمان ثم نقرأ: «وكذا سفن حيرام التي حملت ذهباً من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيراً جداً وبحجارة كريمة. فعمل سليمان خشب الصندل درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك وأعواداً ورباباً للمغنين...» (الملوك الأول، الاصحاح العاشر: 11 ـ 12).

ويذكر نفس النص بعد ذلك (22 ـ 25) أن سليمان كانت له في البحر سفن تبحر إلى «ترشيش» مع أسطول حيرام. وكان أسطول «ترشيش» يعود مرةً كل ثلاث سنوات محملاً بالذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس. ويصف النص أن سليمان فاق كل ملوك الأرض في الثراء والحكمة، وأن الناس كانوا يقصدونه للاستفادة من حكمته التي وضعها ربه في صدره، وكانوا يحضرون له معهم الهدايا الثمينة من ذهبية وفضية وألبسة وأسلحة وطيوب وأحصنة وبغال، وهكذا... السنة تلو الأخرى.

لقد فُسرت هذه النصوص تفسيرات مختلفة، وبالأخص في مسألة تحديد موقع تلك البلاد الغامضة «أوفير». وهناك من يحاول الربط بين تلك الرحلات الأسطورية التي استغرقت ثلاث سنوات وبين مناطق أعالي الأمازون في القارة الأميركية.

● عربات وخيول:

لابد أن الفينيقيين وبالأخصّ الصوريين كانوا يوجهون اهتماماً لتجارة ونقل الخيول والعربات. فإذا رجعنا إلى النص الآنف الذكر من سفر الملوك الأول (الإصحاح العاشر: 26 - 29) رأينا الحديث عن أولئك السماسرة الذين كانت مهمتهم تتركز في شراء خيول من كيليكيا وعربات من مصر للملك سليمان. وإذا فكرنا بصورة منطقية وجدنا أن هؤلاء السماسرة لايمكن أن يكونوا سوى فينيقيين من صور.

«وجمع سليمان مراكب وفرساناً فكان له ألف وأربع مئة مركبة واثنا عشر ألف فارس.... وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من الفضة والفرس بمئة وخمسين...».

● سليمان والنساء وعبادة عشتروت:

هناك جانب آخر للعلاقات بين الفينيقيين واليهود، هذا الجانب ليست له علاقة بالتجارة، وإنما بالتأثير القوي للديانة الفينيقية على الملك سليمان نفسه.

إنه نص غريب من سفر الملوك، ذلك الذي جاء في الإصحاح الحادي عشر (1 - 5):

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لاتدخلون إليهم وهم لايدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين....».

هذه العلاقات الودية والتأثيرات الواسعة من مملكة صور على سليمان لم تدم زمناً طويلاً. فقد انحطت في زمن لاحق عندما قام نبوخذ نصر من بابل في سنة 587 قبل الميلاد باحتلال أورشليم ونفي اليهود إلى بابل. لم يغفر اليهود للفينيقيين عدم مجيئهم لنجدتهم. وسنرى كيف استشعروا في حملة نبوخذ نصر على الفينيقيين انتقاماً حقيقياً سينتهي بحصار ودمار صور في عام 574 قبل الميلاد.

ويوجه حزقيال عندئذ اللعنات إلى ملك صور، فترد عباراته في الإصحاح الثامن والعشرين مليئة بالنقمة:

«فلذلك هكذا قال السيد الرب. من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة. لذلك هاأنذا أجلب عليك غرباء عتاة الأمم فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون جمالك. ينزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتلى في قلب البحار. هل تقول قولاً أمام قاتلك أنا إله. وأنت إنسان لاإله في يد طاعِنِك. موت الغلف تموت بيد الغرباء لأني أنا تكلمت يقول السيد الرب...». (6 - 10).

وبعد ذلك:

«... قد ارتفع قلبك لبهجتك. أفسدت حكمتك لأجل بهائك، سأطرحك إلى الأرض وأجعلك أمام الملوك لينظروا إليك. قد نجّست مقادسك بكثرة آثامك بظلم تجارتك فأُخرجُ ناراً من وسطك فتأكلك وأصيّرك رماداً على الأرض أمام عيني كل من يراك. فيتحيّر منك جميع الذين يعرفونك بين الشعوب وتكون أهوالاً ولاتوجد بعد إلى الأبد...» (17 - 19).

بعد هدم صور على يد نبوخذ نصر بنيت المدينة كلها من جديد فوق الجزيرة. ومن المحتمل أن تجديدها كان في الفترة نفسها. وبضرب صور أصبحت لصيدا مكانتها فترة قصيرة من الزمن. واعتباراً من سنة 539 قبل الميلاد ساد عهد من الرخاء سواء بالنسبة لصور أو لبقية المراكز الفينيقية.

ويشير الاستيلاء على بابل من قبل الملك الفارسي قوروش إلى بداية عهد من الصداقة مع الفرس. كما يشير إلى الامتداد الكبير للمدن الفينيقية. وكانت في ذلك أيضاً نهاية فترة نفي اليهود في بابل، ففي عام 538 أقر قوروش مايدعى «مرسوم إكبتانا» الذي ينص على السماح بعودة اليهود إلى فلسطين.

وفيما بعد عرفت صور أيضاً حقبة من الإزدهار في الوقت الذي كان فيه النفوذ الإغريقي يثبت أقدامه في حوض البحر المتوسط. فلقد حاول الفينيقيون دائماً تجنب النزاع المسلح مع الإغريق على طرقهم الساحلية. وكانوا يكتفون بالدفاع عن مواقعهم، وعندما لايستطيعون الاستقرار في المناطق التي كانت تعتبر خاضعة للإغريق لم يكونوا ليفعلوا شيئاً سوى التوقف في المرافئ خلال إنجاز أعمالهم التجارية.

● الاسكندر الكبير وغزو فينيقيا:

لم يكن الاسكندر الكبير بعد دحره للفرس في الشمال السوري ليتحمل فكرة بقاء النفوذ أو التفوق الفينيقي، وكان يعرف بأن السيطرة الإغريقية لايمكن أن تكون شاملة طالما أن هؤلاء التجار الأثرياء وسفنهم يحتفظون باستقلالهم

وامتيازاتهم التجارية. ولذلك رأى قبل توغله في الشرق الآسيوي أنه لابد من السيطرة على المدن الفينيقية المتكبرة وإضافة إله الشمس إلى آلهته وإعطاء عشتروت وجه أفروديت.

● حصار صور:

كان تقدم الاسكندر سهلاً وسريعاً في تلك الرقعة الساحلية الممتدة عند سفوح جبل لبنان، فقد فتحت كل من جبيل وبيروت وصيدا أبوابها للملك المكدوني، لكن صور قررت مقاومته، فكان صراعاً عنيفاً حتى الموت.

حاول الاسكندر بكل الوسائل الاستيلاء على صور. وبعد فشل محاولاته عن طريق البحر شرع في إنشاء حاجز يصل الجزيرة بالشاطئ يبلغ عرضه حوالي 60 متراً ليتمكن بواسطته من احتلال المدينة عن طريق البر.

نظم الصوريون دفاعهم، وقاتلوا ببسالة، فكانوا يقتلون المحاصرين مواجهةً أو غدراً أثناء عملهم فوق الحاجز الضيق، وفي نفس الوقت يرحّلون ليلاً إلى قرطاجة سفنهم محملة بالنساء والأطفال والعجزة. ارتفع الحاجز بالرغم من أن عاصفة كانت قد دمرت منه ذات يوم جزءاً كبيراً. وتابع الإغريق عملهم مستخدمين الألواح الخشبية وأشجاراً كاملة وحجارة صور القديمة وكل المواد الضرورية، وفي نهاية الحاجز وضع الاسكندر الأبراج وعتاد الحرب.

أعدّ الصوريون من جهتهم وسائل جديدة للدفاع. فكانت لديهم دروع صنعوها من قشرة بعض النباتات البحرية. وعجلات ذات دوائر متعددة تدور بمساعدة آلة تتحطم السهام عليها.

بعد الانتهاء من بناء ذلك الحاجز حاول الإغريق ابتداءً من أبراجهم إلقاء جسر على أسوار المدينة. واندفع بعض المكدونيين في الثغرة الأولى لكن الصوريين سرعان ماقتلوهم ورمّموا تلك الثغرة أثناء الليل.

دافع سكان صور عن مدينتهم باستخدام اختراعات مدهشة. فبواسطة شوكة (مذراة) ثلاثية ضخمة من الفولاذ على شكل صنارات كانوا ينتزعون الدروع من الجنود المكدونيين القابعين فوق الأبراج. وكانوا يلقون فوق الأبراج المتحركة بشباك يوقعون فيها المهاجمين، وقذفوا بكتل حديدية محمرة في النار وبالرمل المحمّى لدرجة البياض الذي كان يدخل عبر الدروع والملابس فيحدث حروقاً مؤلمة.

كما تمكن الصوريون، وقد ضاعفوا جهودهم، من أسر قائد مكدوني وقطعوا رأسه بشكل عمودي بضربة فأس.

حينئذ فكر الاسكندر برفع الحصار، لكن كبرياءه منعته من ذلك، فقام عندها بعمل بطولي جريء إلى حد غير معقول. وبهذا الصدد ترك لنا المؤرخ ديودور الصقلي الوصف التالي:

«... أخفض فوق سور المدينة الجسر المتحرك لأحد الأبراج الخشبية ثم اجتازه بمفرده متحدياً القدر ومتصدياً لقنوط الصوريين، ثم أمر المكدونيين أن يلحقوا به، فقادهم ثم اشتبك مع سكان الجزيرة المحاصرين وقتل البعض بضربات رمح وبعضاً آخر بسيفه ودفع بعضاً بدرعه فكسر بذلك عنفوان الشجاعة عند أعدائه. في غضون ذلك هدم المنجنيق في مكان آخر من السور ثغرة كبيرة تسلل المكدونيون من خلالها إلى المدينة. وفي نفس الوقت اجتازت جماعات الاسكندر الأسوار على الجسور المتحركة. واستطاع الاسكندر بذلك الاستيلاء على المدينة. رغم ذلك كان الصوريون قد جمّعوا قواتهم من جديد في الشوارع وألقوا أنفسهم في التهلكة في قتال انتحاري. وكان عددهم يناهز السبعة آلاف. باع الاسكندر النساء والأطفال بالمزاد وأخذ كل الشباب وكان يبلغ عددهم على الأقل ألفين. أما بالنسبة للأسرى فكانوا كثيري العدد ومع أن غالبية السكان سبق ترحيلهم إلى قرطاجة فلم يكن هناك أقل من ثلاثة عشر ألفاً من الأسرى. هذا ماكان من مصير الصوريين الذين تحملوا بالشجاعة أكثر من الحكمة حصاراً عنيفاً دام سبعة أشهر...»

Bibliotheque historique XVII, 46

فيما عدا ذلك، ماذا نعرف أيضاً عن صور الفينيقية؟

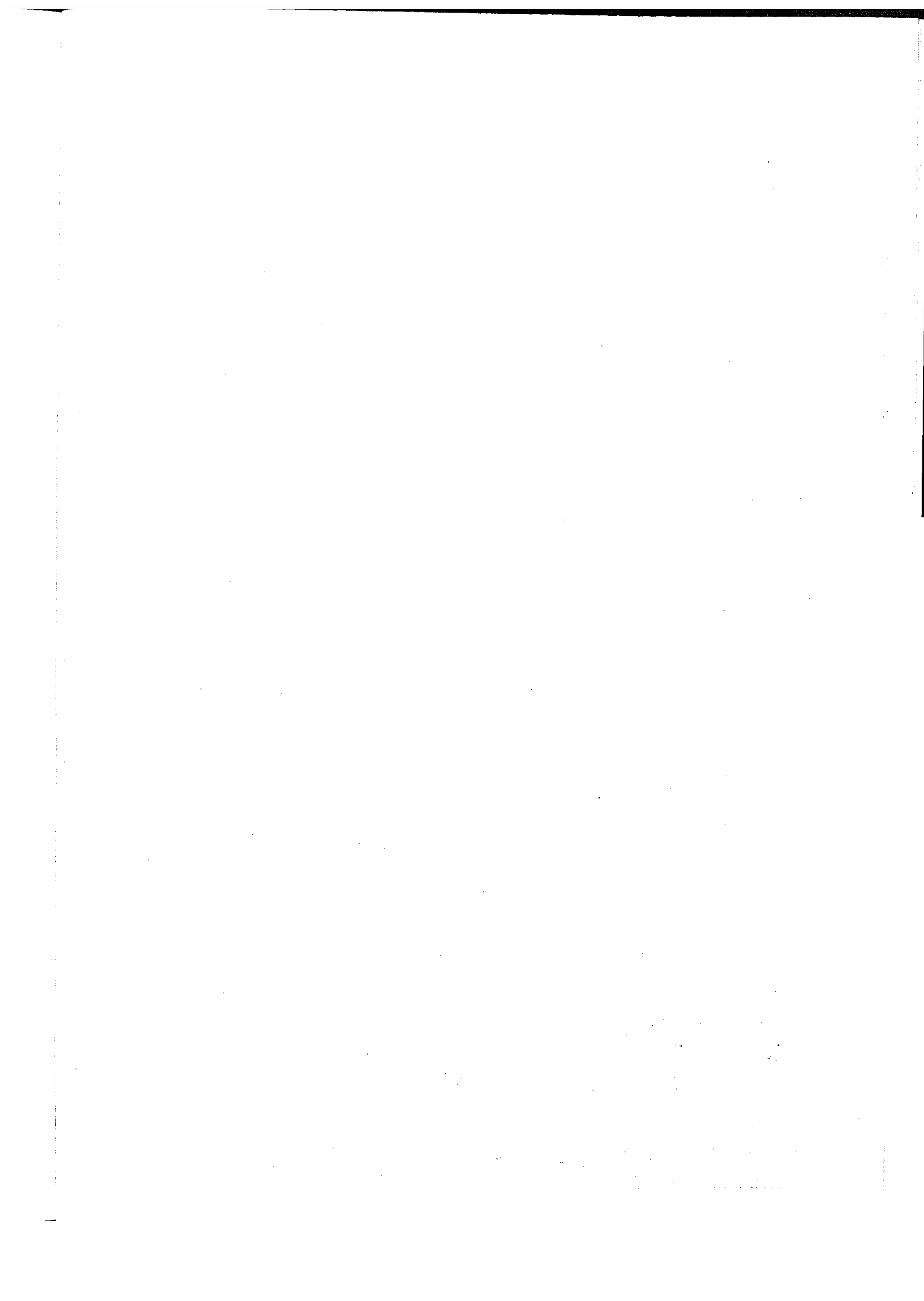
إن الإدارة العامة للآثار في لبنان قد ركزت تحرياتها في نقطتين: الأولى في جنوب جزيرة صور القديمة ليس بعيداً عن الميناء الجنوبي أو الميناء المصري، والثانية انطلاقاً من حقل واسع من الحفريات على امتداد حاجز الاسكندر. فالواقع أن هذا الحاجز الذي يقطع مجرى التيارات الطبيعية قد احتفظ من جانبيه بكميات من الرمال التي شكلت كثباناً عملت شيئاً فشيئاً وعلى مر القرون على تغطية الحاجز الشهير الذي أقامه الاسكندر.

وأخيراً هناك حملة جديدة من التنقيبات قام بها الأمير موريس شهاب المدير العام للآثار في لبنان، حيث باشر بعمليات السبر لأول مرة في وسط الجزيرة القديمة.

ويفترض أن هذه الأبحاث الجديدة قد مكّنت على الأقل من العثور على طبقتين أثريتين بالغتي الأهمية وعلى العناصر الكربونية التي تكونت بعد الحريقين المدمرين: الأول بنهاية حصار سنة 574 (نبوخذ نصر) والثاني بنهاية حصار سنة 331 (الاسكندر).

إن تراكم الرمال والوحول قد حال دون سبر عميق في البحر حاولتُ القيام به في المكان المعتقد أنه الميناء الجنوبي.

كما توجد بقايا هدّمتها عوامل الزمن من جسر كان فوق صخور كبيرة على الشاطئ. لكنني أعتقد أن بين هذه الصخور وساحل شبه الجزيرة جروفاً يمكن أن تكون محتفظة بمفاجآت هامة.



الفصل السادس

صيدون... حاضرة الفكر

خلافاً لصور لم تبدل صيدا (صيدون) موقعها على مر العصور بل بقيت دوماً فوق ذلك البروز الصخري الداخل في البحر حيث توجد المدينة الحالية والتي تمتاز أحياؤها القديمة بطابع مميّز للمدن الشرقية الصغيرة، هذه الأحياء التي طرأت عليها تحولات متعاقبة منذ زمن الإغريق فالرومان ثم العرب والصليبيين.

هناك اعتقاد بأن صيدون كانت قد أُسست قبل صور. ولكن تاريخها الساطع رغم كل شيء ينقصه اعترافان: اعتراف مرويات التوراة واعتراف المؤرخين الاغريق الذين لم يشيدوا بصمودها أمام الاسكندر مثل صور. وقد نستطيع تصور نفوذ صيدون إذا علمنا أن كثيراً من الكتّاب قديماً كانوا عند الحديث عن الفينيقيين يشيرون إليهم باسم الصيدونيين. وكان الصيدونيون روّاد قرطاجة، حيث أسسوا في عام 821 قبل الميلاد في خليج تونس مركز «كامبه Kambe» التجاري.

والفنانون الصيدونيون هم من نحتَ تلك التوابيت الحجرية العجيبة، المصرية الشكل، والإغريقية القديمة برسومها المنقوشة، والتي كانت تطلبها العائلات الفينيقية الكبيرة والعريقة على سواحل البحر المتوسط. عندما قام الاسكندر بحملته فتحت صيدا أبوابها وأرسلت له الهدايا حتى أنها جهزت (وربما على مضض) سفناً لمساعدة أسطوله في محاصرة صور عن طريق البحر. وربما كان السبب في ذلك هو اعتقاد الصيدونيين أن البطولة لاتجدي نفعاً أمام خصم متفوق وأنه من الأفضل الخضوع سلماً للمصير.

وبالواقع عندما اجتاح الفرس الساحل الفينيقي أواخر القرن السادس ق.م كانت صيدون قد قاومت حتى الانهيار، بينما اختارت صور في ذلك العصر الاستسلام.

وبهذا الصدد يذكر ديودور الصقلي أن الصيدونيين من رجال ونساء وأطفال ومسنّين عندما ثبت لهم أنه ليس بإمكانهم رد الفرس عن مدينتهم أضرموا بأنفسهم النيران في منازلهم وفي أسطولهم في الميناء وهكذا هلكوا في الحريق تحت أنقاض مدينتهم. وكان لدى الصيدونيين حماس متّقد لفينيقيا بشكل عام، تجلّى عند بحّارتهم الذين يقال أنهم ساهموا في ترحيل عدد كبير من سكان

صور المحاصرين على سفنهم للتخفيف من مذبحة الاسكندر.

هناك على مسافة قصيرة من الرأس الصخري الذي تقوم عليه المدينة مازالت توجد أنقاض معبد إشمون. وكان الثالوث الإلهي في صيدا يتألف من بعل وعشتروت وإشمون الذي كانت له منزله ومهام الإله ملقارت في صور. وهناك فوق هضبة مطلة على معبد إشمون وعلى البحر توجد مقبرة كبيرة، تم تحرّيها قبل عدة عقود من الزمن من قبل باحث الآثار الفرنسي «رينان» Renan».

والملاحظ أن القبور في هذه المقبرة الكبيرة قد تم نهبها. وهي وإن كانت فينيقية حقاً، أو من العصر الفينيقي، فلم تكن متماثلة تماماً. وأما مايثير الإعجاب فيها فهو تابوت حجري كبير اعتبر لفترة طويلة من الزمن قبر الملك حيرام، ولكن ليس هناك دليل على ذلك. إلا أنه في نفس الوقت من غير المستبعد أن حيرام ملك صور الكبير في القرن العاشر قبل الميلاد كان ملكاً لصيدون أيضاً. وهو الذي ذكرنا فيما سبق أنه كان صديقاً لسليمان والذي مخرت أساطيله البحار بحثاً عن الثروات البعيدة. ورغم التراجع الكبير على مدى عدة آلاف من السنين يبدو لنا أن صيدون قد تمتعت برفاهية في العيش أكبر بكثير مما كانت عليه صور.

● **النظرية الذرية:**

كان ماميّز صيدون عن باقي المدن الفينيقية هو درجة الاهتمام بالبحث عن المعرفة. إذ يقال بأن النظرية الذرية كانت قد اكتشفت منذ 3000 سنة من قبل عالم صيدوني يدعى «موشيوس».

ومن المعتقد أيضاً أن جدول الضرب قد ابتُكر في صيدون، وكذلك نظرية وتر المثلث. ويقال أن فيثاغورث كان قد أسس فيها مدرسته الشهيرة التي تقوم على الرياضيات بقدر ماتقوم على «السحر الخفي للأعداد». كما اشتهر الفيلسوف «بويتوس Boethos» الصيدوني ببحثه الذي يدور حول طبيعة الروح.

ولم تزل صيدا في القرن الحالي تلك المدينة الحديثة التي تشمخ بكل عظمة على طول الطرق المؤدية إلى المدينة القديمة.

وإن أكثر مايلفت الانتباه حالياً هو بعض آثار الصليبيين ومنها مايدعى حصن البحر الذي يربض على صخرة يقال أن معبداً فينيقياً كان يقوم عليها فيما مضى. ويشرف حصن البحر على مدخل الميناء ويتصل باليابسة بواسطة جسر حجري له دعائم قوية. ويعتبر هذا الحصن مع الجسر نموذجاً رائعاً عن فن العمارة الأوربي في الشرق الأدنى.

الفصل السابع
بيروت أو دوام الإزدهار

تقوم بيروت الحالية في نفس الموقع الذي كانت فيه المدينة الفينيقية القديمة «بيريتوس» التي كانت بلا ريب أقل شهرة من مدن الساحل الأخرى. ولكن هذا لايعني أن تأسيسها لم يكن قديماً جداً. فمن المعروف أن «سنخونياتن» المؤرخ الأول في العالم كان قد ولد فيها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن المفترض تبعاً لذلك أن علم التاريخ والجغرافيا كان قد ظهر على يد الفينيقيين.

ومع أنه لم يبق شيء من «بيريتوس» الفينيقية فإن لبنان اليوم يستطيع أن يعلمنا الكثير عن ماضيها، لبنان الذي يحدّه اليوم جيران لايكفّ حقدهم وغليانهم عن إثارة مشاكل مستمرة كما كان الحال مع فينيقيا سالفاً.

● الليبرالية:

يأخذ لبنان اليوم، كما كان أيام الفينيقيين، بالتقاليد الليبرالية الاقتصادية التي وجدت قبل ثلاثة آلاف سنة. وعاصمته الحالية بيروت تحوي على شركات كبيرة مالية وتجارية. وكما كان في صور قديماً تشيد فيها أبنية ترتفع فوق منحدرات صخرية لساحل شديد التقطّع وفي ميناء بيروت توجد منطقة حرة تبلغ مساحتها 125 ألف متراً مربعاً تسمح للسفن من مختلف أنحاء العالم بتحميل أو تفريغ بضائعها. وليس بعيداً عن سفن الشركات الكبيرة ترسو في الميناء القديم آخر المراكب الشراعية الموروثة عن التراث الفينيقي. ومن وقت إلى آخر تقوم هذه المراكب، بكل تأنٍّ بنقل حمولات من الحبوب من نقطة إلى أخرى على الساحل.

● نزعة التوسّع:

في كل مكان نجد هذه الرغبة في التوسع الاقتصادي وهذا النشاط في الأعمال الذي نستدل عليه من خلال الأعداد اللامحدودة من تلك الصفائح النحاسية (اليافطات) ومن خلال أبواب المنازل، حيث يمكننا أن نرى، سواء بالفرنسية أو الانكليزية أو بالعربية عناوين شركات الرأسماليين ذوي الشهرة الكبيرة والممتلكات

الخفية. وتقدم هذه الشركات خدماتها للرأسماليين الدوليين أو أثرياء الأمارات العربية الذين يوظفون الفائض من مدخولاتهم البترولية.

وتستثمر رؤوس أموال هذه الشركات على نطاق واسع كما كان في أيام الفينيقيين في مشاريع كبيرة من أبرزها مجال الملاحة الجوية التي تحتل شيئاً فشيئاً مكانة الملاحة البحرية..

قديماً كان حيرام يموّل رحلات السفن التي كانت تبحر إلى أقاصي العالم المعروف حينذاك، والتي كانت تستغرق ثلاث سنوات (كما مر فيما سبق) واليوم يموّل لبنان برنامج امتلاك الطائرات الحديثة التي تجوب سماء آسيا وأوروبا وأفريقيا واصلةً إياها خلال بضع ساعات مع الموانئ الساحلية الفينيقية القديمة.

والجدير بالذكر أن لبنان بقدر ماهو أرض الاستقبال والترحيب، كان ولم يزل بالدرجة الأولى أرض الهجرة.

● الأساليب التجارية الحالية:

ماذا يفعل اللبنانيون في مغترباتهم؟... لقد توزعوا إلى مجموعات صغيرة من التجار الأحرار. ومن يتجول في مدينة «ريو Rio» أو مدينة «داكار Dakar» سرعان مايرى مخازن الأقمشة والبقاليات التي يمتلكونها وهي تغصّ دوماً بالناس وبالبضائع. ويمكن للإنسان أن يشتري من محلاتهم ماشاء بأنسب الأسعار أو أغلى بقليل لمن أراد الاستدانة. وباتباعهم أسلوب البيع بالدين، الذي عرفوه في أرض الوطن، يحافظ التجار اللبنانيون اليوم في مدن كثيرة من العالم على وضعهم كتجار صغار أو متوسطين أمام السيطرة المتفاقمة للمتاجر الكبيرة والمجمعات العملاقة.

● الأساليب التجارية القديمة:

إن ماذكرناه آنفاً من البيع بالدين طريقة ترجع إلى أزمنة قديمة وليست وليدة هذا العصر، ويبدو أن الفينيقيين لم يكونوا يترددون في ائتمان شركائهم على ديون في مختلف أماكن وجودهم. وكانت طريقة التعامل التجاري مع سكان السواحل الغريبة أو الجديدة تتم كما يلي: ينزل التجار الفينيقيون من سفنهم ماحملوه من بضائع ويضعونها على رمال الشاطئ مباشرة في حين يرقب سكان الساحل ذلك من بعيد. ثم يعود التجار إلى سفنهم مبتعدين بها قليلاً في البحر. وحين يطمئن السكان لذلك يقتربون من البضاعة ويتأملونها ثم يضعون إلى جانبها قيمةً لها ربما تكون مقداراً من الذهب أو مادة أخرى وينسحبون بعيداً. يعود بعدها الفينيقيون

(ربما في الصباح التالي) لينظروا ماوضع زبائنهم من قيمة. فإن اقتنعوا بها كانوا يأخذونها وينصرفون. وإن لم تعجبهم تركوا كل شيء في مكانه وابتعدوا في البحر مرة أخرى، فيعود عندها الشركاء (أو الزبائن) لزيادة شيء على القيمة وينسحبون مجدداً. وربما يتكرر ذلك عدة مرات حتى إذا اقتنع الفينيقيون بهذا المقابل أخذوه وانصرفوا عائدين.

هذه التجارة الصامتة كانت تستغرق في الغالب عدة أيام. وكما نرى كان الفينيقيون يقومون فيها بالمجازفة الأولى عندما يتركون بضائعهم ويبتعدون(*).

هذه الأساليب القديمة قد حلت محلها اليوم دراسات للأسواق برع فيها اللبنانيون، ولكنها أيضاً تتطلب بعض المجازفات التمهيدية. بيروت، هذه الصورة المصغرة للبنان الحديث وللتقاليد الفينيقية عرفت كيف تبقى مكاناً مرموقاً للقاءات الإنسانية ومختلف المذاهب الدينية وللآراء الحرة.

وقد حافظت بعض العائلات الكبيرة على فنون الاستقبالات اللبقة أمثال عائلة فرعون وحلو وشهاب والصلح.

ولاشك أن مايتذوقونه على موائدهم من الأطعمة التي يأتي بعضها من مختلف أنحاء العالم كان قد استمتع بمثله قديماً أصحاب السفن الأثرياء في صور وصيدا وغيرهما. كما أن الطريقة في التعبير وتبادل الآراء تشير إلى وعي وخبرة بمشاكل العالم لايستهان بهما.

● والإيماء أيضاً!...

إضافة لما ذكرنا آنفاً عرفت عن اللبنانيين ممارسة أسلوب الإيماء. فبما أن النساء كانت منذ الصغر تطلع على أسرارهم كان لابد للفينيقيين أن يعرفوا ـ مثل لبناني اليوم ـ فن التفاهم بين بعضهم البعض دونما كلام. على سبيل المثال: حركة حاجب غير محسوسة، هزة رأس مميزة، حركة معينة باليد، أو شكل مامن أشكال الصمت، وغير ذلك... هذه الحركات أو الرموز تبقى مواد القانون الذي كان سهل المنال بالنسبة

(*) هذه التجارة الصامته التي كانت متبعة خاصة مع سكان السواحل الإفريقية أول ماورد وصفها عند هيرودوت الذي عاصر المراكز الفينيقية في القرن الخامس قبل الميلاد.
انظر كتاب: الفينيقيون وأميركا. فصول شغلت العالم. د. عبد الله الحلو. طبعة أولى. بيروت 1991. ص. 159. ـ المحقق ـ

للشرقيين فقط. فإذا وجدت جماعة منهم بين أناس يتقيدون بالتعبير المنطقي شعر أفرادها بشيء من الرفعة أو التميز(*).

ربما تعتبر هذه الأمور التي ذكرناها أحد مفاتيح النجاح في مشاريع الفينيقيين وواحداً من أسباب نجاح الهجرة اللبنانية الكبيرة في عصرنا هذا.

(*) لاشك أن هذه الحركات والرموز المعبر عنها هنا أمر معروف لدى سكان البلاد السورية عامة ـ كما يعرف القارىء المطلع ـ ولم يقتصر على الفينيقيين أو لبنانيي اليوم ـ المحقق ـ

الفصل الثامن
التأثيرات الفنية وفن التركيب

كان موقع المدن الفينيقية عند عقدة طرق عالمية قد أفسح المجال لدى فينيقي الشرق لاستقبال تأثيرات من الحضارات المجاورة. حيث أخذوا بهذه التأثيرات وجعلوا منها نوعاً من التركيب الحضاري.

● أهم التأثيرات:

من جهة الغرب كانت هناك تيارات تأثير كريتية وميكانية وقبرصية ثم من الشمال كانت تأثيرات حثية. ولكن أهم وأعمق منها كانت تأثيرات بلاد الرافدين. كما أن بعض الكنوز الفنية تشير إلى تأثر بالحضارة المصرية. ولكن بدءاً من القرن الخامس قبل الميلاد بدأ التأثير الإغريقي بالظهور تدريجياً ريثما كانت حملة الاسكندر الكبير سنة 332 التي فتحت الباب واسعاً أمام تيار الهلنستية الذي كان له أعمق الأثر.

● تابوت أحيرام الحجري:

من أبرز الأمثلة على التأثيرات المشتركة في الفن الفينيقي كان ماوقع اختياري عليه وهو: التابوت الحجري الضخم للملك صور أحيرام من القرن الثاني عشر ق.م ثم تلك التوابيت الحجرية التي تُنسب إلى صيدون في القرن الخامس ق.م.

عثر على تابوت أحيرام في المقبرة الملكية الكبيرة في جبيل (بيبلوس) وقد وضع في إحدى القاعات التحتية بمتحف بيروت، وقد وجدت أربعة أسود منحوتة باتقان، ربما كانت تحمل التابوت، وهي من التأثير الحثّي والرافدي يمثل المشهد الرئيسي المنحوت على الجانب الأكبر من التابوت الحجري الملك أحيرام فوق عرشه. والواقع أن هذا العرش المحمول على أسود مجنّحة والملابس التي كان يرتديها أحيرام وغطاء رأسه وخصلات لحيته كلها تحمل ميزات الفن لبلاد الرافدين.

يحمل أحيرام في يده زهرة لوتس منكّسة، وهي إشارة الموت. والمعروف أن هذه الزهرة وكل زهرات اللوتس الأخرى ذات الإفريز العلوي المنمنم هي من التأثير المصري. وكذلك وضع أمام الملك مايشبه الطاولة وعليها فاكهة. وظهر حوله أفراد

حاشيته من ندماء ووزراء وخدم، ويظهر التأثير المصري في ألبستهم. ونلاحظ بشكل خاص ارتداءهم ذلك القفطان الشرقي الكبير الذي أصبح فيما بعد الدلالة المميزة للنبلاء والكهنة الفينيقيين.

أما على الجانب الصغير من التابوت فنرى نائحات يشددن شعورهن ويخدشن صدورهن وقد ارتدين ذلك اللباس المسمى «سَقّ» الذي استخدم كلباس للحزن عند العبرانيين والفينيقيين. وفي الأعلى إطار يحيط بالتابوت من جهاته يوحي للناظر بمجموعه من السلاسل الجبلية، وعلى الأرجح بسلسلة من الأمواج المتتالية كرمز للمغامرات البحرية. ويحمل غطاء التابوت تلك الكتابة التي ورد نصّها فيما سبق.

الواقع أنه بالرغم من هذه التأثيرات الفنية المختلفة برز في العناصر المكونة لنقوش هذا التابوت بمجموعها تناسق وأصالة إلى درجة كبيرة. ويبدو أن الفنان الذي أنجزه قد أخذ الأجمل من كل المصادر التي استوحى منها عمله.

● **التوابيت الحجرية الصيدونية:**

إذا انتقلنا من جبيل (بيبلوس) القرن الثاني عشر إلى صيدون القرن الخامس قبل الميلاد فإن أكثر مايثير الإعجاب هو تلك التوابيت الحجرية التي تنسب إلى الطراز الصيدوني.

خلال تنقلاتي على الطرق الساحلية التي ارتادها الفينيقيون شاهدت اثنين من هذه التوابيت كان قد تم اكتشافهما في شرقي صقلية وهما اليوم في متحف باليرمو، وتابوتاً آخر كان قد عثر عليه في قادس. كما يوجد بعض منها في متحف اللوفر وتعتبر من ممتلكات مديرية الآثار الشرقية القديمة. وكل هذه التوابيت تم نحتها بنفس الأسلوب. والتأثير المصري ظاهر بالنسبة لشكل القاعدة. ولكن بدلاً من رأس التوابيت المصرية المنمنم والمحاط بعصابات نجد هنا وجوهاً حقيقية صارمة، تُعزى إمّا إلى فنانين إغريق من العصر السابق أو إلى فنانين فينيقيين تأثروا بهذه المدرسة.

هذه التوابيت يتوقف ظهورها في الزمن الذي سعى فيه اليونان لتجميل الهيكل والوجه البشري نتيجة حرصهم على الجمال الفائق اللذن مسيئين بذلك إلى الواقعية والروح وصدق التعبير.

ومن الممكن بالنسبة للعالم النفساني أو صاحب الفراسة أن يحدد هوية كل من هذه الوجوه.

وإن أكثر ما أثار دهشتي من بينها وجه رجل بدين ذي خدّين منتفخين وذقن

شائكة وعينين واسعتين كأنهما تريدان ألتهام العالم. ويبدو له أنف شريف روماني وفم شهواني. كما تبدو على وجهه الجرأة، وهذا الوجه يتيح لنا أن نتصور صاحب سفن فينيقي كبير تمخر أساطيله البحار وكان يعد أحد الرجال الكبار في ذلك العصر.

ثم هناك وجه آخر، وجه رجل شاب خشن متميز، لابد أنه لم يكن رجل الإدارة الذي يقبع في المكاتب، وإنما ذلك الذي يبقى على رأس العمل كقائد في الجيش أو كأحد ربابنة السفن.

أما تلك المرأة الشابة التي تبدو على وجهها الرزانة والوقار فهي الإلهة الأم في الوسط العائلي.

● تماثيل جبيل (بيبلوس) الصغيرة:

إن استقبال الفينيقيين لبعض التأثيرات الفنية من جيرانهم لم يؤثر على إمكانياتهم الإبداعية. إذ أنتجوا روائع فنية في غاية الجمال بشفافيتها وتجريدها وحداثتها الحقيقية.

وأهم مايجدر ذكره هو تلك التماثيل الصغيرة التي عثر عليها في جبيل بمعبد الأنصاب (المسلّات) الذي ذكر فيما سبق. وهي محفوظة في متحف بيروت. وهي إبداع فينيقي صرف. ولايمكن لأي خبير أن يلاحظ أية علاقة قريبة كانت أم بعيدة بين هذه التماثيل وبين فنون الجيران الكبار الذين سبق الحديث عن تأثيرهم.

صنعت هذه التماثيل من خلائط معدنية لابد أنها كانت تحوي على البرونز والحديد، حيث أن الأكسدة التي تكونت بمرور الزمن أعطتها ألواناً متموجة، فيها أخضر شاحب وألوان برتقالية جميلة للغاية.

وقد عثر على عدد كبير من هذه التماثيل التي تختلف ارتفاعاتها مابين 10 و 20 سنتمتراً. وكانت بالأصل مغطاة بأوراق من الذهب لم تزل تحتفظ بأجزاء بسيطة منها.

يبقى غير معروف إن كانت هذه التماثيل نذرية أو صوراً رمزية إلهية وإن كان لها نوع من السلطة الدينية الوهمية أو لا...

وهي عدا عن جمالها الفني تتميز بصفتين أخريين:

الأولى أنها تبرز لنا لباساً خاصاً هو ذلك القفطان بدون حزام وفي شكل مبتور. والجدير بالذكر أن مختلف طبقات الكهنة في المعابد كانوا يرتدون القفطان الطويل، الأمر الذي نستنتج معه أن هذه التماثيل ربما ترمز إلى آلهة أو كهنة. رغم أني أميل إلى الاعتقاد بأنها تمثل جنوداً أو قواد حرب.

والصفة الثانية هي تلك القلنسوة العالية. ويبدو أن الفينيقيين هم أول من نشر هذا النموذج من لباس الرأس. وهي تشبه الطربوش المرتفع الذي كان بشكله الصارم، مع أو بدون زينة إضافية، رمزاً للسلطة. وقد استمر هذا التقليد عبر العصور مع اختلاف في الشكل حيث يمثله في زمننا الحالي التاج الأسقفي والقلنسوة البابوية.

لقد ظل البحارة في العالم حتى القرن الماضي يعتمرون تلك القلنسوة الفينيقية الكبيرة المحنية إلى الأمام بشكلها الطري والتي أصبحت بمرور الزمن رمز العمل. كما أصبحت رمز الحكم الديمقراطي منذ أن اتخذها القضاة الأوائل في جمهورية البندقية. كما نجدها على رؤوس الذين يرأسون كل المختاريات الفرنسية.

وبالنتيجة يمكن القول أن الفينيقيين لم يتركوا لنا سوى القليل من الروائع الفنية التي تعبر عن شكل من الوحدة الوطنية. وهذا بالواقع غير مستغرب لأنه في الحقيقة لم يكن يوجد وطن فينيقي بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كانت هناك مدن مستقلة عن بعضها البعض شكلت كل منها شبه دولة لنفسها وخضعت بشكل أساسي عند إقامة علاقاتها الخارجية لرغباتها المحلية ومصالحها الخاصة دون أن تجد نفسها مضطرة لاستشارة المدن المجاورة.

وبما أن الفينيقيين كانوا تجاراً كباراً فقد كان من جملة مانقلوه بالدرجة الأولى التحف الفنية وتبادلوا مع الآخرين القيم الثقافية. فكانوا مثلاً يحصلون على التحف الفنية المصرية مقابل مواد خام مثل خشب الصنوبر. وكانوا بلا شك يتقنون عمليات ترتيب التحف الفنية سواء في المستودعات أو في السفن التي تنقلها إلى الطرف الآخر من البحر المتوسط. وهذا يعني أنهم كانوا منذ 3000 سنة قد طوروا صناعة تعتبر اليوم على درجة من الأهمية، ألا وهي صناعة النقل الشاق للتحف الفنية. وفيما بعد تابعت قرطاجة في هذه الطريق مصدرةً الذهب وبيض النعام وبعض الأشياء الأخرى المحلية مقابل المزهريات اليونانية أو الأسلحة المرصّعة في سيراكوز.

كانت المخازن في موانئ الفينيقيين بمثابة المعارض العالمية الكبيرة في أيامنا هذه، والآثار الفنية التي تجتمع فيها كان يقبل على شرائها جمّاعو التحف ومتذوقو الأشياء القديمة بحيث يمكن القول بأن الفينيقيين كانوا من أوائل الرواد في صناعة وتجارة الكماليات والنفائس.

ومازال لبنان في أيامنا هذه يعتبر سوقاً حرةً للآثار الفنية، ويعتبر أمراً عادياً أن نجد عند تجار العاديات نقوداً أثرية وأختاماً من الحجر الزجاجي الأسود وقوارير من الزجاج القديم، دون أن تكون كلها نسخاً حديثة مصنوعة في دمشق.

● **بعلبك:**

وجدت أنه من المستحسن الدخول إلى هذه المخازن بانتظار الساعة التي تذهب فيها بيروت كلها إلى بعلبك فلا يُسمع إلا صرير عجلات السيارات. في معابد بعلبك يقام كل صيف المهرجان الفني الشهير الذي يجتذب إلى لبنان فنّانين ومولعين بالموسيقا وجامعي الآثار الدوليين.

وهكذا خُلّدت تلك المواهب التي نبتت في أرض فينيقيا - حيث تلاقت الفنون - بفضل دأب ومثابرة أنصار التراث الأدبي الذين يقومون كل سنة بهذا الإنجاز الجبار، ألا وهو المهرجان الفني في بعلبك.

إن جمهور المهرجان ليتساءل عن ذلك الشعور السحري الذي يستولي عليه فجأة لدى مشاهدة لوحة «Bejart» التي تمثل «بروميثيوس Prometheus» المكبّل - إله النار الذي يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى - أو لدى استماعه إلى أوركسترا برلين في أعظم الأنقاض الكلاسيكية في العالم. في صفاء ذلك الليل المرصّع بالنجوم ينضم تيار من الانفعال المجهول إلى مواهب أولئك الفنانين المتفوقين.

ربما كان هذا هبة من الإله بعل الذي كان فيما مضى سيد هذه الأماكن. ومازالت القاعدة الأسطورية لمعبد الشمس القديم تحت هذه الأعمدة الرومانية بسرها العجيب وأحجارها العملاقة ذات الهندسة المتقنة. ويبلغ طول بعض هذه الأحجاز 20 متراً. وتزن أكثر من 700000 كيلوغراماً. أي أنه كان يلزم لنقلها جهد أربعين ألفاً من الرجال مجتمعين، والواقع أن هذه الأحجار طرحت بالنسبة لمفاهيمنا تساؤلات أكبر بكثير من التساؤلات حول تماثيل جزيرة «Paques». ورغم هذه التساؤلات فهي تبرهن لنا أن فينيقيا كانت قد شهدت كمالاً في الفن مصحوباً بتقنية عالية في عصر كان لم يزل فيه الكلتيون في أوروبا البدائية يدخلون بدايات عصر الحديد ويدفنون موتاهم في قبور تحت أكوام من الحجارة أو التراب.



الفصل التاسع
المبتكرات المنسوبة إلى الفينيقيين

عدا عن الأبجدية الصوتية تُعزى إلى الفينيقيين ابتكارات كثيرة وإسهامات عديدة في تطور الحضارة البشرية.

● الملاحة:

حققت الملاحة بفضل الفينيقيين انطلاقة جديدة. فقد كانت حتى الألف الثاني قبل الميلاد مقتصرة على الملاحة النهرية التي كان المصريون يقومون بها في نهر النيل خلال الزمن الذي وجدت فيه حضارة الميكانيين وشعوب أخرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط(*).

يُعد الفينيقيون البحارة الأوائل في العصر القديم، الذين جازفوا بأنفسهم في عرض البحر المتوسط الغربي وتوغلوا في المحيط الأطلسي.

● الفلك:

يبدو أن علم الفلك كان مألوفاً بالنسبة إليهم. ومن أبرز الشواهد على ذلك أن نجمة القطب بقيت زمناً طويلاً تدعى «النجمة الفينيقية».

● فن تشييد المعابد والمدن:

كما يعزى إلى الفينيقيين فن قطع الحجر ونحته من أجل البناء، كما رأينا في بعلبك. ومنذ إقامة البيوت الحضرية الأولى في جبيل حافظوا على تقدمهم على مر القرون. وأبرز الشواهد على مهارتهم هو اعتماد سليمان على مهندسين وبنائين صوريين لإقامة معبد أورشليم، أجمل معابد عصره.

● المواد الثمينة... الحلي وفن الصياغة:

مارس الفينيقيون صناعة وتجارة المواد الثمينة وبرعوا فيها. ولم تغفل النصوص

(*) من الثابت أن ملاحة السومريين في مياه الخليج الفارسي تعود لأقدم من ذلك الزمن. حيث وجدت منذ أواسط الألف الثالث علاقات تجارية مع مناطق تقع خارج الخليج - المحقق -

التوراتية ذكر ذلك. فكانوا يشترون المواد الخام، وخاصة الذهب، وينتجون منها مختلف التحف للتجارة، وكانت لديهم بصورة خاصة مهارة في صنع الحلي المفرغة التي قد تكون من أوراق الذهب أو من فتائل معدنية. وهذا النوع من الحلي وجد في مختلف الأماكن الساحلية التي عرفها الفينيقيون والقرطاجيون.

● **النسيج:**

تمتعت منسوجات الفينيقيين القطنية والصوفية بالجودة وصارت لها شهرة، حتى أن رجال ونساء طبقة الأشراف الرومان كانوا يتهافتون على منسوجات صور الرائعة.

● **البرونز والحديد:**

بقي الاعتقاد سائداً زمناً طويلاً بأن الفينيقيين هم الذين ابتكروا معدن البرونز. ولكن الواقع هو أن عصر البرونز كان قد سبقهم ببضعة قرون. ولكنهم على الأقل ضمنوا لأنفسهم استقلاليتهم في تحضير العناصر اللازمة لخليطة البرونز. فالنحاس كانوا يستوردونه إما من جزيرة قبرص أو من «تارتيسوس Tartessos = ترشيش في شبه جزيرة إيبريا». والقصدير كان يرد بشكل رئيسي من جزر البحار الباردة «Cassiterides». وعند دخول عصر الحديد سعى الفينيقيون لتأمين مواقع لأنفسهم في المناطق المنتجة لخامات الحديد مثل جنوب إسبانيا وجنوب غرب سردينيا حيث اشتهرت مناجم تلك المنطقة «Monte Sirai» بنشاطها المستمر.

● **الصباغ الأرجواني:**

كانت للصباغ الأرجواني أهمية كبيرة لزمن طويل في العالم اليوناني الروماني بصورة رئيسية. وكان لهذا اللون ارتباط وثيق بفكرتي السلطة والثراء. ولم يُغفل هوميروس ذكره في الإلياذة (XXII) وهو يصف شخصية «أندروماك Andromache» بقوله: «تنسج على النول داخل منزلها العالي معطفاً مبطناً أرجواني اللون وتنثر عليه رسوماً مختلفة...».

وقد اعتبر اليونان أن الفينيقيين هم الذين أوجدوا الصباغ الأرجواني. وربما كان إيجاده مرتبطاً بأسطورة تقول أن الإله ملقارت نفسه قد اكتشفه بالصدفة عند رؤيته أنف كلبه وقد اكتسب لوناً أرجوانياً من الأصداف حيث كان يتنزه على الشاطئ. وقد دعي هذا النوع من الأصداف «المُرَيْق» أو «أصداف الأرجوان». وقد

ذكرها بإسهاب العالم الروماني «بلينيوس الأكبر = بليني» في مؤلفه: «التاريخ الطبيعي». وقد عثر في أطراف الموانئ الفينيقية على أكوام هائلة من الأصداف، وهي دليل الترف والمدة الطويلة التي عاشتها صناعة الصباغ الأرجواني في المدن الفينيقية.

والأصداف التي كان البحارة الفينيقيون يجمعونها لم تكن كلها تنقل إلى صور أو جاراتها فحسب، بل أن هناك مراكز لهذه الصناعة أقامها الفينيقيون في مناطق أخرى من سواحل المتوسط. ويبدو أنهم استطاعوا لمدة طويلة كتمان سرّ هذه الصناعة وبالتالي احتكار الإنتاج. إلا أن هناك معلومات عامة دوّنها بعض الكتاب من ذلك العصر يُفهم منها أنه لم يكن يستخرج من كل صدفة سوى بضع قطرات من العصارة الملونة الموجودة في غدة خاصة. وكان الفينيقيون يعرفون تماماً موقع هذه الغدّة في القوقعة. ومن الجدير ذكره في الواقع أن الأصداف التي عثر عليها وُجدت مثقوبة من جانبها. ولابد أن هذا الثقب كانت تستخرج منه الغُدّة الثمينة مباشرة. وللحصول على الصباغ الأرجواني الجميل كانوا يتركون الخلاصة الغدّية تتعفن في الشمس. ولذلك يروى أن الهواء المحيط بالمدن الفينيقية ـ وخاصة صور ـ كانت تشوبه رائحة كريهة.

● **هل اخترع الفينيقيون الزجاج؟...**

كان «بلينيوس الأكبر = بليني» في مؤلفه الآنف الذكر هو الذي نسب إلى الفينيقيين اختراع الزجاج. وروى في ذلك أن بعض التجار من الساحل الفينيقي نزلوا مرة على الشاطئ ليطبخوا وجبة طعام لهم. ولما لم يجدواأحجاراً يصنعون منها موقداً ـ كما هو معروف في أيامنا هذه ـ يقال أنهم استخدموا بضع كتل من كربونات الصوديوم التي كانت في حمولتهم. وعند اختلاطها مع رمال الشاطئ وتعرضها لحرارة النار تحولت إلى مادة مائعة. وبعدما بردت هذه المادة يقال أن مانتج منها كان هو الزجاج.

لقد كان لهذه الأسطورة تأثير ظاهر في حينه، ورسخت في أذهان بعض الكتاب القدماء.إذ يقول سترابون أيضاً مايدعم هذه الفكرة بأن الساحل الشهير الذي يحتوي على رمال صالحة تماماً للزجاج هو تلك المنطقة بين عكا وبين صور. كما نجد روايات مشابهة عند كل من «تاكيتوس Tacitus» ـ في القرن الثاني الميلادي ـ و«إيسيدوروس Isidorus» ـ في القرن السابع الميلادي.

أما علم الآثار فلا يقدم لنا سوى القليل من الأشياء التي تؤيد هذا الزعم. إذ توجد في متحف بيروت مطرة زجاجية ذات مقبضين. وتعود لحوالي الـ 1000 قبل الميلاد. كما توجد في متاحف أخرى في العالم، وخاصة في اللوفر، مطرات أخرى مسطحة ذات طابع فينيقي، بعضها بمقابض والبعض من دونها، وتعتبر شواهد واضحة على تحسين الشفافية في صنع الزجاج. ولكن قلما نجد زجاجاً شفافاً بالفعل قبل العصر الروماني.

الواقع أن هناك أدوات زجاجية صنعت في مصر القديمة. وكانت العجينة الزجاجية كثيفة استُفيد منها في صنع آثار فنية حقيقية كانت تكتسب درجات مختلفة من الألوان بفضل بعض الأملاح المعدنية ومن المؤكد أن صناعةالزجاج كانت سائدة خلال الألف الثاني في بلاد الرافدين(*). وفي المتحف البريطاني يمكننا مشاهدة العديد من الألواح الفخارية التي كانت في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة في نينوى، والتي تحمل نصوصاً مسمارية تتعلق بتعليمات عن طريقة صنع الزجاج.

وإذا فتشنا في النصوص التوراتية وجدنا أن الزجاج لم يذكر سوى مرة واحدة في سفر أيوب (28: 17) عندما يشبّه حكمة الرجل الوقور بالذهب والـ «زكوكيت» أي الزجاج، مما يدل على أنه كان في ذلك الزمن مادة نادرة وثمينة وضعت جنباً إلى جنب مع الذهب.

يمكن الاعتقاد أن الزجاج بشكله القديم كان في البدء نوعاً من الخزف تشكّل بالصدفة من امتزاج رماد القلويات من مواقد الخزافين مع الرمل الصوّان. وكان في البدء عديم الشفافية، واقتصرت الفائدة منه زمناً طويلاً على صنع بعض الحلي والأدوات المنزلية والتحف والقوارير. وهذه القوارير التي كانت غالباً أشبه بالجرار الصغيرة، يعتقد أنها كانت تصنع على هيكل من الرمل المتكتل ثم تحرق وبعد أن تصبح صلبة يخرج الرمل من داخلها بتفتيته عن طريق العنق.

أما الحلي واللآلئ والنوط المصنوعة من الزجاج فقد برع فيها فينيقيو الغرب وأصبحت اختصاصاً عندهم. فمن قرطاجة غمروا أفريقيا وحوض البحر المتوسط

(*) أغلب الأبحاث تجمع على أن اكتشاف صناعة الزجاج كان أصلاً في بلاد الرافدين خلال الألف الثالث. واستناداً للدراسات الحديثة يرجح أن أهل الرافدين أعطوا سرّ هذه الصناعة إلى المصريين الذين نقلوها بدورهم إلى الفينيقيين فيما بعد. قارن لذلك: Maria Luisa Uberti في كتاب: Die Phoenizier, Hamburg 1988, p 474.

الغربي بوسائل الزينة الزجاجية الرخيصة التي سبقت فكرة الحلي المزيفة. إن الشيء الذي لابد من ذكره هو أن صناعة الزجاج، التي يفخر الشرق الأدنى بإيجادها، قد عمل الفينيقيون على تطويرها. وإليهم يعود الفضل في ابتكار طريقة النفخ في صنع الأواني الزجاجية، التي اعتبرت ثورة في هذه الصناعة. وكان ذلك في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد ويمكننا أن نسلّم بأن ورشات الزجاج الفينيقية أو السورية عموماً كانت عند بداية العصر الروماني في مقدمة الورشات الأخرى في العالم كافة.

استطاع الفينيقيون في البداية عن طريق النفخ بواسطة قصبة صنع أسطوانات زجاجية مفرغة تمكنوا أن يصنعوا منها الزجاجات والقوارير والمطرات وغيرها، وكانت تزخرف أحياناً خلال تعريضها للحرارة بحبال زجاجية صغيرة تسمح بترتيب الألوان والرسوم التزينية. هذا وإن أرباب الصناعة الزجاجية المعاصرين لم يقوموا بشيء آخر خلافاً لذلك.

● **استخراج المياه العذبة من البحر:**

إنها صناعة حديثة للغاية، ألا وهي صناعة التنقيب في البحار بالقرب من السواحل، والتي كان الفينيقيون روادها قبل ثلاثين قرناً تقريباً.

في أيامنا هذه يتم البحث عن البترول. لكن الماء العذب له أيضاً أهمية كبيرة، بل هو عنصر حيوي لايستغنى عنه. تلك كانت حالة المدن الفينيقية التي شيدت على جزر أو أشباه جزر تحتاج إلى مقادير كبيرة من الماء العذب.

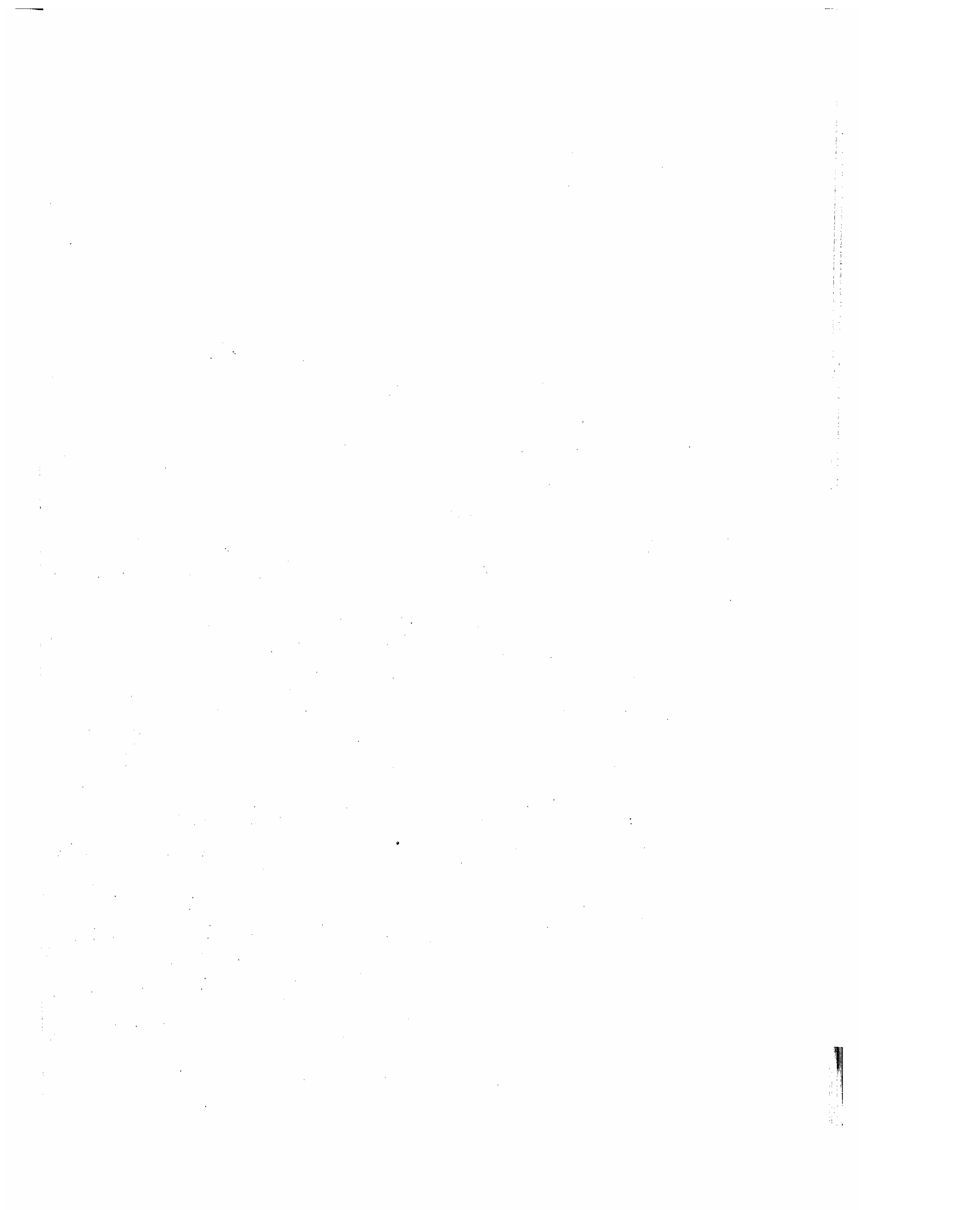
وكان أن سكان إحدى هذه الجزر وهي أرواد لاحظوا هنا وهناك فوراناً غريباً على وجه ماء البحر ثم تبين لهم أن منابع مياه عذبة تخرج من قاع البحر على أعماق قليلة. وتوصلوا إلى استغلال هذه المياه بتثبيت قمع برونزي كبير مقلوب فوق النبع ووصل القمع بأنبوب طري من الجلد مدهون بالزفت من أجل الكتامة ومرفوع حتى سطح الماء بحيث يعبأ منه الماء العذب في أوعية للنقل. ولم يقتصر ذلك على جزيرة أرواد فحسب بل وجدت هذه الينابيع على طول الساحل الفينيقي. وهكذا أحرز الفينيقيون قفزة حضارية في هذا المجال وكل المجالات الأخرى، بإيجاد تقنيات جديدة وتحسين التقنيات الموجودة. ومن ذلك مالم يزل معروفاً حتى أيامنا هذه.

وقد أثبتت الأجيال اللاحقة من الفينيقيين الذين استقروا في أفريقيا وبالتحديد قرطاجة، وجود ذهنية مبدعة وفكر خلاق، إذ أتقنوا فنون الزراعة واعتنوا بها بحيث حققت انطلاقة رائعة في الحوض الغربي للبحر المتوسط حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

وبشكل عام كانت إسهامات الفينيقيين في مجالات تقدم البشرية كبيرة، لاسيما وأن وسيلة نقل الفكر والحضارة كانت بين أيديهم، ألا وهي الأبجدية المبسطة.

الجزء الثاني

مع فينيقيي الشرق
على طريق القصدير



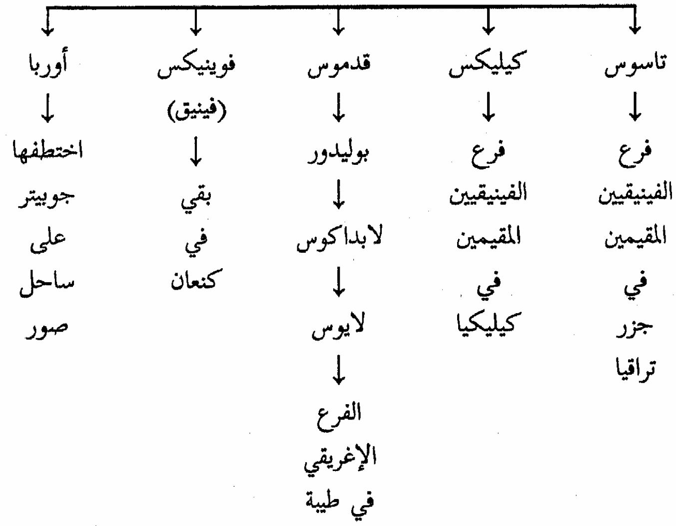
الفصل العاشر
أساطير وخرافات وحقائق
عن الامتداد الفينيقي

في استعراض أسباب التوسع الفينيقي تطالعنا أسطورتان خرافيتان هما: اختطاف جوبيتر لأوربا، ومغامرات قدموس، ذلك البناء النشيط الذي بنى مدناً على سواحل البحر المتوسط.

وقد حاولت وضع نموذج توضيحي لسلالة قدموس شقيق أوربا وابن أجينور مؤسس صور وملكها الأول:

آجينور ملك صور ومؤسسها

وزوجته تيليفاسا



● **أسطورة أوربا وقدموس:**

كانت أوربا الجميلة ابنة آجينور ملك صور. اختطفها ذات يوم جوبيتر بعد أن حوّل نفسه إلى ثور، ومضى بها عبر البحر حتى أقصى الغرب. أمر آجينور ولده قدموس أن يذهب للبحث عن أخته محظراً عليه العودة حتى يجدها، فانطلق قدموس وبرفقته كل من أمه تيليفاسا وأخويه تاسوس وكيليكس، ولم يبق عند الأب سوى فوينيكس (فينيق) الذي يمثل فكرة بلاد كنعان (فينيقيا). إلا أن بحث تيليفاسا وأبنائها عن أوربا كان دون جدوى، فماتت تيليفاسا من الحزن. أما أولادها الثلاثة فلم يجرؤوا على العودة إلى صور من دون أختهم بعد تحظير والدهم والقسم الذي أدّاه.

فاتجه تاسوس إلى جزر تراقيا، وأسس كيليكس في الشمال السوري مستعمرات كيليكيا. أما قدموس فقد مكث في الأرض اليونانية ليصبح مؤسساً لمعابد ومدن ومروّجاً للأبجدية التي ابتكرها الفينيقيون واتخذها اليونان. وفي ذلك يقول هيرودوت (II ص 58):

«كان الفينيقيون الذين رافقوا قدموس إلى بلاد اليونان وأقاموا فيها قد أدخلوا معهم الكثير من المعارف من بينها تلك الأحرف التي كانت برأيي مجهولة سابقاً في هذه البلاد. وقد استخدمت في البداية بنفس طريقة الفينيقيين، ولكن بمرور الزمن تطورت هذه الأحرف بما يناسب اللغة واتخذت أشكالاً أخرى، وبما أن البلاد المجاورة كانت محتلة من قبل الأيونيين فقد اعتمد هؤلاء تلك الأحرف التي علّمهم إياها الفينيقيون، لكنهم أدخلوا عليها بعض التغييرات البسيطة. وهم يعترفون عن طيب خاطر، وكما يقتضي الإنصاف، بأن هذه الأحرف قد سميت بالأحرف الفينيقية لأن الفينيقيين هم الذين أدخلوها إلى بلاد اليونان...»(*)

نفهم من ذلك أن حكاية قدموس الأسطورية انطلقت من فكرة اختطاف أوربا. ونستطيع أن نستشف من خلالها بعض المبادىء الفينيقية الأساسية التي لاتزال تعيش في وجدان لبنان اليوم، ألا وهي حب التوسع أو الانتشار على أساس فكرة خدمة الوطن، ثم مبدأ التضامن العائلي الذي مايزال حتى يومنا هذا. وسنشير إلى فكرة أساسية أخرى في هذا الصدد وهي: فكرة إخصاب الحضارة الإغريقية بالإسهام الفينيقي الذي يمثله قدموس.

(*) والجدير بالذكر عدا عن ذلك أنه حتى لفظة الـ «ألِف بيت» الكنعانية أي: «الألف باء» أو «الأبجدية» لم يحاول اليونان إيجاد بديل كلي لها بل استخدموها كما هي بلفظ «Alphabetos» وهو الذي انتقل إلى مختلف لغات العالم بشكل «Alphabet» إلى اليوم - المحقق -

إن هيرودوت، أشهر المؤرخين الإغريق، هو الذي يُ[illegible]س بهذا النوع من الأبوّة الإنسانية. كما يعزى إليه تأسيس مدينة طيبه في «[illegible]tia». ويريد هيرودوت تأكيد ذلك عندما يقول بهذا الصدد (II ص 59»:

«... كما رأيت بنفسي في طيبه بمنطقة بيوتيا - [illegible]oio[illegible]a - حروفاً قدموسية في معبد أبولون منقوشة على ركائز. وهي شبيهة جدا با[illegible] الأيونية. وعلى إحدى هذه الركائز نقرأ هذا النقش:

- أهداني أمفيتريون Amphitryon كتاباً لدى [illegible] ال Teleboens - وربما يعود هذا النقش إلى زمن لايوس ابن لا[illegible] كان والده بوليدور بن قدموس...».

● أسطورة الثور:

العنصر البارز في هذه الحكاية الأسطورية هو تقمّص جوبيتر بشكل ثور ليقوم باختطاف أوربا. والظاهر أن كبير آلهة الإغريق اتخذ شكل الثور لأنه كانت له مكانة مقدسة. وكانت عبادته مشهورة في جزيرة كريت ثم انتشرت في كل أنحاء البحر المتوسط. وقد وجدت فضلاً عن ذلك إشارة الثور على طول خط الرحلة التي قمت بها للوصول إلى الطرق الساحلية الفينيقية. كما يجب أن نشير بالذكر إلى أنه إلى جانب الثالوث الإلهي الذي عبده الفينيقيون كانت للثور مكانة هامة ربما قبل الآلهة الصغرى. ومما يرمز للامتداد الفينيقي أيضاً هيراكلس الذي هو الرمز الإغريقي ل: ملقارت، والذي ذهب غرباً للبحث عن حديقة«Hesperides».

● أعمدة هرقل:

إن أسطورة هيراكلس - ملقارت - الذي قهر المضيق بين البحر المتوسط وبين المحيط الأطلسي قد تحمل إذاً معنىً خفياً بالغ الأهمية. ذلك أن إسناد تأسيس مايسمى بأعمدة هرقل وفتح الطرق الساحلية صوب المحيط الأطلسي إلى إله فينيقي إنما يعني أن هذه الطرق الساحلية كان قد اكتشفها وسيطر عليها منذ البداية الفينيقيون.

وكانت هذه السيطرة شرطاً للسيادة. إذ كانت تحمي المنفذ إلى مصادر القصدير، هذا المعدن الذي كان خلال عصر البرونز ضرورياً كما هو حال اليورانيوم في العصر الذري.

من خلال القصص الميثولوجية ترتسم لنا إذاً حقيقةٌ أو أمر واقع وهو: طريق

القصدير. هذا الطريق الذي اشتهرت عليه موانيء كان أولها باتجاه الغرب - أو غروب الشمس - قبرص ورودس وكريت.

● **الفينيقيون والأطالسة:**

أخيراً، وفي منتصف الطريق بين الخرافة والحقيقة، تواجه الفينيقيون مع الأطالسة قبل 3000 سنة. إن شواهد الحضارة الأطلسية القديمة تنتصب على الطريق المرجاني في غرب القارة الأفرو أوربية. فمن الشمال إلى الجنوب نجد: معابد «Stonehenge» وجزر «شيلّي Scilly» وصفوف ال «كرنك Carnac» ومسلاّت «Cavrinis» المنقوشة ونصب «Galice» الحجرية ومسلاّت «نُخيلة» في المغرب، و«زونزاما Zonzama» في جزر كناري و«بيير - لير في كفرين La Pierre - Lyre de Kaffrine» في السنغال، وآلاف المواقع المغليثية(*) المعروفة. وتبرهن هذه الآثار على الروحانية والحضارة الخاصة بحوض شمالي الأطلسي والتي كان سبب زوالها انتشار الفينيقيين. ولكن من المحتمل أن الفينيقيين كانوا قد توصلوا إلى هذه الآثار العجيبة إذ كانت غايتهم معروفة. وهنا يمكننا الإعتقاد بأن الفينيقيين كانوا قد التقوا مع آخر جماعات بشرية تنتمي إلى عالم لايمكننا أن ندركه اليوم.

(*) من كلمة «megalith» وهي الحجارة الضخمة غير المنحوته التي استخدمت في أبنية ما قبل التاريخ.

الفصل الحادي عشر
قبرص ـ أو ـ حب أفروديت المنسي

لم يكن التوسع الفينيقي الكبير لينتظر قدموس، إذ بدأ في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد باتجاه قبرص حيث أنشأ تجار صور وصيدون مراكز تجارية على الساحل الجنوبي للجزيرة، وليسهل عليهم الحصول على خامات النحاس الضروري لصنع البرونز أنشأ الصوريون هناك مدينة أعطوها اسم «قَرْت حَدَشْت» الذي يعني: المدينة الجديدة(*).

وعندما بدأ التبادل التجاري المنظم بين قبرص وفينيقيا كان على قبرص أن تبقى زمناً طويلاً تحت النفوذ التجاري والثقافي والسياسي لصور.

ويبدو أن مناجم النحاس كان يتم استثمارها منذ حوالي 1000 قبل الميلاد. وقد أسست مستعمرات في بعض المواقع مثل: «كيتيوم Kitium» التي تدعى اليوم «لارنكا Larnaca» و«أماثوس Amathus» التي أصبحت تدعى «ليماسول Limassol» و«ثاماسوس Thamassos» و«إيداليون Idalion» و«لابيثوس Lapithos». وشيئاً فشيئاً غدت كل هذه المستعمرات أو المدن دويلات صغيرة مستقلة يرأس كلاً منها في أغلب الأحيان ملك صغير مستقل.

● أسطورة أفروديت:

كان استقرار الفينيقيين في قبرص قد عُرف من خلال أسطورة أفروديت التي ـ كما سبق أن رأينا ـ ليست إلا التسمية اليونانية لعشتروت التي سُميت أيضاً «أفتوريت» عند الفينيقيين.

إذاً كان مولد الربة أفروديت على سواحل قبرص. ويقول الشاعر الإغريقي القديم «Hesiodos» بهذا الصدد:

«من أجل تلقيح زبد البحر قطع كرونوس عضو التذكير من أبيه ورماه في البحر، حيث ظهرت بذلك أفروديت..».

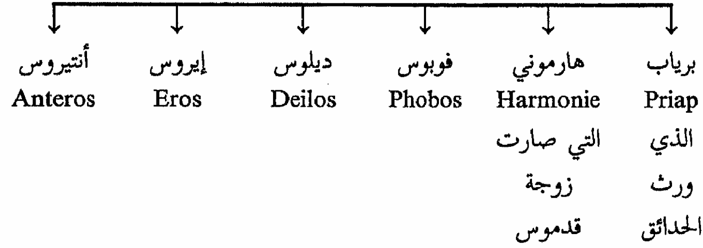
(*) وهو نفس اسم «قرطاجة» الشهيرة التي يرد الحديث عنها في الفصل الثاني والعشرين ـ المحقق ـ

وكثيرون هم الرسامون والنحاتون الذين مثلوا هذه الإلهة وهي تخرج من بين الأمواج التي يمكن أن نرى من خلالها أنواعاً كثيرة من الأصداف البحرية. أما هيرودوت فقد أوضح من جهته أوجه التشابه بين أفروديت القبرصية وعشتروت الفينيقية معتمداً على مصدر قبرصي.

كما أن تلك اللويحات التذكارية الكثيرة على الألواح الطينية المشوية التي وجدت في قبور تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تُظهر ما يؤيد فكرة هذا النسب وتبرهن على تواجد فينيقي في قبرص خلال تلك الأزمنة القديمة.

وأفروديت، تلك الإلهة التي ولدت من الأمواج، أو بالأحرى «من نطف إله» ستعكس فيما بعد في عيني أفلاطون صورة مزدوجة: صورة أفروديت المسماة «Curania» أي: إلهة الحب الطاهر، وصورة أفروديت المسماة «Pandemia» أي: إلهة الحب المبتذل. وتنسب الأسطورة إلى أفروديت العديد من الأزواج والعشاق سواء من ذلك من أحبتهم حباً طاهراً أو حباً مبتذلاً، ومن بينهم «هيفايستوس Hephaistos» المعروف بالإله الأعرج و «آرس Ares» إله الحرب. وتشرد الأسطورة مواليد هذه العلاقة بين أرس وأفروديت كما يلي:

أفروديت - آرس



وكان من أشهر عشاق أفروديت أستناداً للأسطورة أدونيس وأنشيس.

وبمزايا شخصيتها المتّقدة كانت تثير الحب أو الكراهية. ويروى أنها كانت السبب في نشوب حرب طروادة. وأثناء حصار المدينة يقال أنها تمكنت من الهروب عبر المشاعل لتلجأ إلى روما. وهناك بدت فجأة بهيئة رصينة متخذة اسم «فينوس Venus»

حيث عُرفت منذ ذلك الوقت في العالم الروماني بهذا الاسم ولكن اشتهرت باسم «Venus Genetrix» أي: فينوس الولود.

● **باخوس والبغاء المقدس:**

كانت قبرص تشتهر بمعبد أفروديت في باخوس. وكان هذا المعبد مكرساً كلياً للحب. وكما هوالحال في كل معابد أفروديت بذلك العصر كانت تقوم بخدمة ذلك المعبد راهبات نذرن أنفسهن للبغاء المقدس. لقد تطورت [illegible] أفروديت في أماكن كثيرة من حوض البحر المتوسط. ومن أشهر معابد أفروديت خارج قبرص تلك التي كانت في كل من «كورنث Korinth» و«كيثيرا Kythera».

ويصف لنا سترابون معبد كورنث بأنه صغير جداً لكنه فائق الشهرة، ويقع في وسط القلعة. وكان يوجد في ذلك المعبد حوالي المئة راهبة منكبات على ممارسة العبادة وقد نذرن أنفسهن للهوى. وكانت متطلباتهن الكثيرة قد عادت على المعبد بموارد هائلة. ومما يشير إلى صحة ذلك هو تلك العبارة القديمة: «لا يُسمح لكل الناس بالذهاب إلى كورنث...» إن جزيرة قبرص التي نراها اليوم تعاني من التمزق بسبب الصراعات بين اليونان والأتراك، حريّ بها أن تتذكر بأنها كانت أرض الحب. ولكن من المؤسف ألا نرى سوى الهم والمتاعب على وجوه الأربعمائة وخمسة وأربعين ألف يوناني والمئة وخمسة آلاف تركي الذين يكوّنون سكان الجزيرة حالياً. بالرغم من أن الطبيعة قد ساعدت سكان هذه الجزيرة، إذ يحيط بهم كل ما يجعلهم سعداء، من مناخ مناسب وثقافات مختلفة وكرمة تعطي نبيذاً له شهرة كبيرة.

● **النحاس:**

أما بالنسبة لثروات الأرض في قبرص، والتي استثمرت منذ حوالي 6000 سنة، فهي لاتزال اليوم على درجة ممتازة. وتصل صادرات الفلزات المعدنية المتمثلة بصورة رئيسية بالنحاس حتى 8 ملايين جنيه استرليني في السنة تقريباً.

وربما يكون هذا النحاس الذي اشتهر في العصر القديم قد أعطى من جهة أخرى اسمه إلى الجزيرة. فكلمة نحاس ترد في لغات أخرى بشكل «Cuprite» وبالإنكليزية «Copper».

لقد كان لفينيقيا تأثير كبير في الفن القبرصي. إذ نجد مزهريات وجراراً أكثر ضخامة ذات أعناق واسعة مصممة بأسلوب فينيقي. أما الزخرفة فقد استخدم فيها

اللون الأسمر المحمّر. وهي تشتمل على دوائر مشتركة المركز وإشارات شمسية واضحة. وتذكرنا هذه الإشارات لدى محطتنا الأولى على طريق القصدير بأن الشمس كانت دوماً بعيدة عن الأغراض المادية وكانت الهدف الأسمى والحامي الإلهي للفينيقيين.

الفصل الثاني عشر
رودس ـ أو ـ التمثال الضخم المفقود

● جزيرة الزهور:

تعتبر جزيرة رودس أجمل وأكبر جزر الدوديكانيز. ولا يتجاوز طولها ال 80 كيلومتراً وعرضها ال 35 كيلومتراً بصورة وسطية وأرض الجزيرة توفر فيها كل شيء. حقولها مغطاة بالورود البرية. وهناك عناقيد ضخمة من الورود التي تسمّى «رودن Rhodon». كما نجد هذه الورود على شعارها الرسمي.

عندما اتجه قدموس، رائد الانتشار الثقافي، إلى رودس، كان يحمل معه بلا ريب الأبجدية الفينيقية وتصاميم المعابد التي كان يروق له تأسيسها في كل مكان تقريباً على طريق رحلته البحرية. وهذا ما يشير إليه نص ديودور الصقلي الذي يقول:

> «في هذا العصر كان دانايوس يبتعد عن مصر برفقة بناته وقد بلغ شاطىء ليندوس. حدث هذا بعد أن رسا قدموس في رودس أثناء بحثه عن أوربا بأمر من أبيه الملك آجينور. وهبت عليه أثناء سيره عاصفة هوجاء، فنذر أن يبني بعد انقضائها معبداً في نيبتون. وهكذا شيد هذا المعبد في جزيرة رودس وترك بعض الفينيقيين ليقوموا على خدمته. وقد اختلط هؤلاء مع السكان المحليين وشاركوهم في الحياة العامة ومن بينهم اختير رجال الكهنوت. كما قدم قدموس القرابين للإلهة مينرفا Minerva. وكان بين ما قدمه حوض جميل مصنوع بالأسلوب القديم ويحمل نقشاً كتب بحروف فينيقية يقال أنها جاءت من فينيقيا إلى اليونان...»

يتضح لنا من ذلك أن قدموس وجد في رودس سكاناً منفتحين وحضارة قديمة.

● أبناء الشمس العمالقة:

هناك قصص خرافية لاتذكر سوى المحتلين الأوائل لجزيرة رودس والذين تطلق عليهم تسمية «Telekine» أو «عفاريت النار» حيث يقال أنهم برعوا في السيطرة على المادة والفنون.

ومن هذه القصص الخرافية ما يذكر أن أبناء الشمس العمالقة سكنوا الجزيرة بعد الطوفان، ويقال أنهم كانوا ثلاثة أبناء صغار للشمس تقاسموا الجزيرة وأسسوا ثلاث مدن أسموها بأسمائهم وهي: «ياليسيوس Yalissios» - «كاميروس Kamiros» - «ليندوس Lindos». ومدينة «ليندوس» لاتزال موجودة. ومما يستحوذ الاهتمام أن ذلك البروز الجبلي المشرف على البلدة والبحر لم تزل فوقه تلك الأنقاض الهامة لمعبد مينرفا الذي تشرف أعمدته على خليج واسع مياهه ساكنة وصافية، ومن المحتمل أنه كان مرفأً قديماً للسفن الفينيقية.

أسست مدينة رودس وميناؤها في سنة 408 قبل الميلاد بعد أن أخذت المدن القديمة الثلاث عهداً على نفسها أن تبني عاصمة واحدة في أقصى شمال الجزيرة مقابل سواحل آسيا الصغرى.

● **التمثال العملاق:**

بعد مئة سنة من المقاومة العنيدة ضد سيطرة السوريين والانتصار الكبير الأول في تاريخها شيدت رودس عند مدخل مينائها تمثال رودس الشهير لتخليد هذه الذكرى.

انتصبت كتلته البرونزية الضخمة التي بلغ ارتفاعها 31 متراً عند مدخل الميناء، وكانت تمثل شخصاً مستنداً على رمح يحمل مشعلاً نصفه الأعلى مصفح بالمرايا، والساقان منفرجتان، وقد ارتكزت قدماه على نهايتي الرصيفين اللذين يسدّان المرفأ المحصن تجاه البحر، وهكذا كان على السفن أن تمر من بين ساقيه لتدخل المرفأ. كان هذا التمثال مكرّساً لإله الشمس، أب الجزيرة، وكان يمثل «هليوس Helios» وقد صنعه نحّات ومعماري مشهور من مدينة «ليندوس» يدعى «خاريس Chares».

بعد قرن من الزمان أخلّت هزة أرضية توازن التمثال الذي انهار بصورة محزنة سادّاً منافذ الميناء بحطامه.

وهكذا ذهبت واحدة من عجائب الدنيا السبع[1] التي قام باحصائها فيلون البيزنطي. وقد نصح كاهن «دلفي Delphi» سكان جزيرة رودس عندما استشاروه بأن

---

(1) للتذكير: هذه العجائب السبع كانت: 1 - الحدائق المعلقة في بابل. 2 - أهرامات مصر عند ممفيس. 3 - تمثال جوبيتر في أولمبيا. 4 - تمثال رودس. 5 - منارة الاسكندرية. 6 - معبد ديانا في إفسوس. 7 - التكية في «Halicarnasse».

يتركوا حطام التمثال الذي بقي على حاله طيلة ثمانية قرون. وفي سنة 654 ميلادية قررالعرب التخلص من هذه البقايا المرتبطة بالماضي، فباعوا حطام التمثال إلى تاجر يهودي قادم من مدينة حمص، فقام بنقلها إلى داخل سوريا. ومن هناك ذهب حطام ذلك التمثال الذي يمثل «هليوس Helios» الرودسي عبر الصحارى محملاً على تسعمائة جمل إلى جهة غير معروفة.

انتقلت رودس في غضون ذلك من النظام اليوناني إلى النظام الروماني فالبيزنطي محتفظة بحكم ذاتي كبير وبقيت على تفاهمها مع الشرقين واهتمامها بالأشياء الشرقية. وربما كان ذلك مما سهّل قدوم العرب إليها. ورغم أن الرودسيين عرفوا مع العرب أياماً عسيرة فقد عرفوا في نفس الوقت فترات من الرفاهية.

● فرسان رودس:

في سنة 1310 ميلادية وقع حدث هام كاد أن يؤثر تأثيراً بالغاً في مصير رودس، ألا وهو قدوم سفن شراعية حربية سوداء تابعة لفرسان القديس يوحنا الأوسبيتاريّون في القدس. وكان قد تحول نظام الضيافة إلى نظام عسكري محاولة منهم لإنقاذ المواقع الأوربية الأخيرة في فلسطين.

كان الفرسان يأتون رسمياً إلى رودس بقيادة «السيد الكبير» بصفتهم مدافعين عن العالم المسيحي أمام المد الإسلامي.

وكان هؤلاء الفرسان مقسمين حسب أصولهم إلى سبع جنسيات وذلك تبعاً للغات الأكثر انتشاراً بينهم: فرنسا - ألمانيا - انكلترا - أفيرينيا Auvergne (إقليم في فرنسا) - أسبانيا - إيطاليا - بروفانس Provence (إقليم آخر في فرنسا).

وكانت قد خصصت لهم فنادق شبيهة بالنوادي، أما الأسياد الكبار فكانوا يسكنون قصراً كبيراً لاتزال أبراجه وأسواره التي رممها الإيطاليون تشرف على المدينة.

لكن تشبث الفرسان بالبقاء في رودس والصراع ضد الغارات التركية المتلاحقة يؤكد لنا عدم رغبتهم بالعودة إلى ضباب ومستنقعات مقاطعاتهم الأوربية بعد أن تذوقوا عذوبة حياة الشرق وروعة مناخه. ومن جهة أخرى كانت أنظمة الشرق الشديدة الصرامة قد لانت أمام مقتضيات النظام العسكري، وبدلاً من عهود الحرب القاسية عمّ الرخاء والبساطة شيئاً فشيئاً.

ويبدو أن «Claude Derven» حاول في كتابه المسمى «رودس والدوديكانيز» أن يصف بدقة طبيعة الفترة الأخيرة لفرسان رودس:

«... كم من التجارب قام بها المجازفون بأرواحهم، أولئك الخالدون!... إذ أن الفرسان يموتون شباباً. وحياة الحرب الدائمة براً وبحراً تقتضي شجاعة من دون تخاذل وصحة من حديد، إذاً... يقال أن نذور النظام الثلاثة: الإطاعة والفقر والطهارة، مقترنة بثلاثة أشياء محددة: الإطاعة (على المائدة) والفقر (في السرير) والطهارة (في الكنيسة)...»

بعد حصار وسقوط عام 1480 ميلادي بقيت رودس مع مجموعة جزر الدوديكانيز أربعة قرون ونيف تحت السيطرة التركية. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى حل الإيطاليون محل الأتراك. ويبدو أن أصحاب الرتب العليا في النظام الفاشي قد تذوقوا بشكل خاص سحر تلك الجزر التي تعد أجزاء صغيرة رائعة من الخيال الشرقي.

وإن أكثر ما يرضي أذواق هؤلاء الغرباء هو ما يوجد من كنائس ومواقع عسكرية ومسارح وأماكن ساحلية وفنادق فخمة، وقد سيطر على هذا كله مظهر الاختلاط الغريب فجمع شيئاً من فنون القرون الوسطى وشيئاً من زجاج الكنائس الأرثوذكسية وأعمالاً فنية تركية مبعثرة هنا وهناك، والكل يسبح في أسلوب الأبهة الموسولينية.

لكن الاحتلال الإيطالي كانت له عموماً بعض الفائدة بالنسبة لجزيرة رودس. فقد صرح لي أحد الوجهاء الرودسيين الذي سجنه الإيطاليون عدة مرات بسبب أفكاره القومية بهذه العبارات:

«لقد كانوا قساةً لكنهم منصفون، إذ جعلوا من رودس ماهي عليه في أقل من عشرين عاماً. انظر إلى هذه الطرق المعبدة وهذه الأرصفة. ليس هناك من مدينة في بلاد اليونان فيها شبكة شوارع بهذا الجمال. يالهم من بنائين!... أما اليوم فقد عدنا مواطنين يونان بعد أن ناضلنا قرابة مئة وخمسين سنة ضد المحتلين المتعاقبين. لكننا ننسى ذلك ونعتقد بأن الإبقاء على الإعفاء الجمركي يكفي. لاحِظْ أنه لا مجال للشكوى لدينا، فالجزيرة تعيش من مردود السياحة والتجارة طيلة ستة أشهر من السنة...».

لكن الآثار الفينيقية لم تزل موجودة في جزيرة رودس وخاصة في «ياليسيوس

Yalissios» حيث اكتشفت في ذلك المكان المرتفع من الجزيرة دعائم معبد «نبتون Neptun» الذي بناه قدموس، وإلى جوار هذه الدعائم الضخمة توجد أبنية دير أرثوذكسي عمل الإيطاليون على ترميمه بعناية.

ومن هذه الهضبة العالية التي تملأها أشجار الصنوبر والبلوط وتتخللها حفر دائرية رُدم بعضها، يتجلى الإنطباع عن روحانية قوية ورفاهية في العيش مرتبطة بالملذات الجسدية. وإن هذا الارتباط بين الروحانية والشهوانية نجده في المعتقدات الفينيقية.

تتغير الديانات لكن حرمة الأمكنة تبقى على الزمن.

فوق مرتفعات «ياليسيوس Yalissios» تقوم في وقت معين من كل سنة شعائر موسم حجّ أرثوذكسي كبير، حيث يغادر الناس شيباً وشباناً منازلهم الصغيرة البيضاء في مختلف المناطق، ليقوموا بالتطواف هناك وراء الرايات والإيقونات وهم ينشدون.

وفي فترة بعد الظهر، وتحت الظلال، يعدّون وجبات طعام شهية مروية بخمر «ليندوس Lindos» الذي يُثمل بسرعة.

ثم يقبل الليل حيث يلاقي الأهالي صعوبة في إعادة جمع شمل البنات والصبيان المتفرقين هنا وهناك في الأيكات حول الأماكن المقدسة. أما قصة هذا الحج فتعود إلى العهد البيزنطي وتروى كما يلي:

كان أحد سكان رودس الأثرياء قد مرّ ذات يوم بحالة من اليأس. فصعد إلى هضبة «ياليسيوس» متخطياً أنقاض المعابد وحاول أن يرمي بنفسه من فوق الأسوار. ولكن ظهرت له إذ ذاك عذراء بلباسها الأبيض وأمرته أن يرجع عما نوى عليه. ففعل. وعرفاناً منه بذلك جاء من معبد أورشليم بصورة للعذراء وعاش حتى آخر أيامه في ذلك المكان (فوق الهضبة) في فقر وتعبّد.

وقد سميت العذراء: «عذراء الفضائل كافة». وشيد فرسان الأوسبيتارية سوراً في عام 1306 بتكاليف عالية وذلك بقصد التكفير عن أعمال العنف. أما إيقونة العذراء فقد حُملت من هناك ونقلها سيد الفرسان إلى مالطا أثناء السيطرة التركية بقصد إبعادها عن تلك الهضبة المقدسة التي قرر السلطان سليمان الكبير أن يقيم فوقها بيتاً للدعارة. وفيما بعدُ جردت الإيقونة من حليها من قبل جنود نابليون. ثم انتهت بطريقة لا نعرفها بين يدي القيصر بول الثاني. وعندما طالب بها سكان رودس بين الحربين

العالميتين أعلمهم السوفييت في سنة 1924 بأن الإيقونة الثمينة قد اختفت خلال فترة من الفوضى ما بين مؤيدي الثورة ومعاكسيها، لكنهم أرسلوا للروديسين نسخة مطابقة لها وضعت مكان الإيقونة المفقودة.

ومن الجدير بالذكر أن رودسيي القرن العشرين قد اتخذوا تلك الهضبة الفينيقية مكاناً للعبادة، وأن المواكب تحرس هذه النسخة التي صنعت للعذراء في U.R.S.S

الفصل الثالث عشر
جزيرة كريت
من ثيران مينوس إلى عنب فايستوس

تعد جزيرة كريت النقطة التي تصل مابين أوربا والشرق الأدنى وأفريقيا. ويبلغ طولها 260 كيلومتراً وعرضها 60 كيلومتراً. ولا تبعد سواحلها الجنوبية أكثر من 400 ميلاً عن موقع Kyrene القديمة على ساحل ليبيا الحالية. وتمتد على طول الجزيرة سلسلة جبلية يبلغ أعلى ارتفاع لها في الوسط حيث جبل إيدا الذي يصل إلى 2458 متراً والذي مازالت منحدراته تخلف صدى حكايات خرافية.

وقد كتب هوميروس نفسه بعض الحكايات عن كريت ووصفها بأنها كانت منذ 3000 سنة: «.. أرضاً جميلة بقدر ما هي غنية، منزوية في البحر، وفيها كثافة لاتحصى من الرجال، وتسعون مدينة...» من المؤكد أن الفينيقيين كانوا يقيمون علاقات تجارية مع ملوك السلالة المينوسية، ولابد أنهم كانوا يتنقلون على طول الساحل الجنوبي، وربما كانوا يحطون رحالهم في «فايستوس Phaistos» التي كان موقعها قديماً على الساحل الجنوبي، أما اليوم فقد توسعت باتجاه الداخل بضعة كيلومترات. وهي مدينة قديمة جداً وكان فيها أحد قصور السلالة المينوسية الذي يعتبر أقل جمالاً من القصر الرئيسي في «كنوسوس Knossos» وكان يقع في الشمال بالقرب من «هيراكليون Heraklion» الحالية. هذه السلالة المالكة التي يلفها بعض الغموض كانت قد سيطرت، أو فرضت نفوذها، على الحوض الشرقي للبحر المتوسط مابين القرن العشرين والقرن الخامس عشر قبل الميلاد. ولكن يبدو أن تلك الفترة قد تخللتها كوارث غير واضحة لنا تماماً. وكان ذلك حوالي 1750 قبل الميلاد، إذا أخذنا بعين الاعتبار آثار الدمار العنيف التي بقيت في قصور السلالة المينوسية في مدينتي «كنوسوس» و «فايستوس». وذلك في طبقة الركام الأثري التي ترجع إلى ذلك التاريخ.

وعلى ما يبدو أن هذا الدمار الذي ربما سببته هزة أرضية، اثار نشاطاً وهمة كبيرة لدى سكان الجزيرة إذ غدت القصور بعد ترميمها أكثر فخامة من ذي قبل.

لابد أن جزيرة كريت قد عرفت في عصر السلالة المينوسية حضارة مزدهرة خاصة

بها. ولم يكن سكانها يعبدون آلهة الإغريق أو غيرهم ولا الشمس، بل عبدوا الثور ونشروا هذه العبادة في كل شرقي البحر المتوسط. كما وجدت هذه العبادة بعض الإقبال في أفريقيا وآسيا. ومن المحتمل أن يكون الفينيقيون قد ساعدوا في نشرها. وقد تركت بعض آثارها على جانبي أعمدة هرقل وفي أسبانيا والمغرب وحتى في سردينيا.

لكن الفينيقيين كانوا قد حافظوا على اتصالهم مع جزيرة كريت حتى في فترة انحطاطها. ففي متحف «هيراكليون Heraklion» تنطبق على القاعات الأخيرة الأكثر حداثة سمات عصر الاتصال مع الفينيقيين الذي سمي - عصر الاستشراق - إذ نجد على المزهريات إشارات شمسية ورسوماً ذات مواضيع عرف بها الفينيقيون، حيث يحتمل أنهم أدخلوها إلى كريت عن طريق نشاطاتهم التجارية. في مدينة «فايستوس» حالفني الحظ بزيارة القصر وحقل التنقيبات المحيط به برافقة الأستاذ «Dovo - Levi» الذي يدير الأعمال التي باشرت بها المدرسة الإيطالية للآثار في هذه الأماكن وبكثير من النجاح.

من المؤكد أنه يوجد تحت قصر الفترة المينوسية طبقات أثرية متعددة لمنشآت أو قصور من فترات أقدم.

ليست لقصر «فايستوس» قياسات القصور الفرعونية ولا عظمتها، بل يمكن وصفه بأنه منزل فخم لتاجر ثري دون ترف زائد، بمخازن عديدة من أجل تخزين المنتجات والمحاصيل من داخل بلاد غنية وبضائع ترد من سواحل مختلفة من البحر الأبيض المتوسط.

كان شعار ملوك السلالة المينوسية فأساً ذات حدّين. وقد بنوا إلى جانب قصرهم تلك المتاهة الشهيرة التي لم يكن لأحد أن يستطيع الخروج منها أبداً. وذلك لاستبعاد الزائرين غير المرغوب فيهم.

في جزيرة كريت إذاً تولدت من هذا الإرتباط بين الملكية والألوهية، وبعبارة أخرى، بين مينوس والثور، تولدت فكرة تلك الكائنات الخرافية التي دعيت بالـ «مينوتور Minotauros».

وفي عهد الملوك المينوسيين كان السكان في «فايستوس» و «كنوسوس» يعيشون نمطاً عظيماً راقياً من الحياة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأشياء الثمينة التي عثر عليها في التنقيبات الأثرية كالحلي والمجوهرات وعدا عن ذلك تلك الرسوم الجدارية التي تمثل السيدات الأنيقات لذلك العصر. والغريب أن مانراه في تلك الجداريات قريب جداً

من تلك الأزياء التي انتشرت في أوربا انتشاراً واسعاً حوالي سنة 1900: خصر مشدود جداً، تنورة طويلة حتى القدمين، فضفضة على الأوراك، أكمام منتفخة، والفرق الوحيد هو أن الصدر ضمن مقورة كبيرة تجعله عارياً خارج الثوب. إن النساء التي رسمت على تلك اللوحات الجدارية توحي كثيراً بشكل من أشكال الموضة سمّاه علماء الآثار «الباريسي».

ومازلنا نرى فلاحات كريت في أيامنا هذه بتلك التنورة الطويلة جداً، والقدّ الممشوق وتقويرة معتدلة في الصدّارة يظهر منها قليل من الصدر، هذا إن لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية تجبرهن على وضع خمار قطني كبير يستبدل في أيام الأعياد بشالات من الحرير.

من أجمل ذكرياتي عن كريت تلك الأيام التي انقضت مع فلاحين وفلاحات فوق منحدرات جبل «إيدا» ليس بعيداً عن «فايستوس» خلال فترة قطاف العنب. ذلك العنب الشهير باسم «السلطاني» والخالي من البذور هو الذي صنع ثروة الجزيرة، ويتم قطافه بعناية كبيرة، أحياناً حبةً حبة، ثم يغسل وينظف في أحواض الماء، وأخيراً يعد للتجفيف، فينشر على الأرض مباشرة على شكل شرائط طويلة تكتسب ألواناً تتدرج من الأخضر إلى اللون العنبري الغامق تبعاً لتزايد العناية. ويشاهد الناظر كيف أن بعض الهضاب قد اكتست تماماً بهذه الشرائط الملونة.

إن عاصمة كريت «هيراكليون Heraklion» شبيهة بكل المدن اليونانية الصغيرة. ولكن ما أدهشني هو العدد الهائل من السياح والتجار وموظفي فندق ألماني الأصل، وقد تحدثت إلى الكثير من هؤلاء. وهم بشكل عام يحملون جنسية يونانية لكن بعضهم احتفظ بالجنسية الألمانية. وعلمتُ أن أغلبهم كانوا قد اكتشفوا جزيرة كريت أثناء القيام بالمغامرات الجريئة في الجولات الجوية للحرب العالمية الثانية.

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في تلك الفترة هو ما وقع في إحدى الليالي المظلمة، إذ قامت طائرات سلاح الجو الألماني بعملية سحب مجموعة من الطائرات الشراعية الثقيلة المحملة بالجنود والعتاد. وكان على الطائرات الشراعية بعد ذلك أن تنفصل وتهبط فوق الهضاب الجرداء العالية.

والواقع أن أي جيش آخر من الجيوش المشاركة في الحرب، وحتى عند الإنزال في النورماندي، لم يستخدم هذه التقنية التي جربت في جزيرة كريت بهذا النجاح الكبير. ولم يعرف إطلاقاً ما هو الهدف الذي كان يرمي إليه هتلر عندما أمر بالقيام بهذه العملية المذكورة. إذ أن هذه الحملة الألمانية على كريت بشكل إنزال سريع بقيت عملياً

حتى نهاية الحرب مشلولة الحركة عاطلة عن العمل في تلك الجنة التي تغنى بها هوميروس. وتلك الإقامة التي لاتنسى في جزيرة كريت لم تكن لتحرك الرغبة لديهم في رؤية ألمانيا ما بعد الحرب دولةً مجروحةً ممزقة. وقد جاء بعض الألمان ممن لا علاقة لهم بالعمليات العسكرية بقصد الاستقرار في كريت، لكن الخبر المثير الذي نشرته صحف تلك الفترة عن العملية الجوية الشهيرة ربما جعلهم يتراجعون عن قصدهم.

تبدو لنا جزيرة كريت أشبه بدرع كبير يحمي بلاد اليونان القارية وجزر بحر إيجة. ومع ذلك كان الفينيقيون يتطلعون للإبحار أبعد من هذه العتبة.

ويقدم «ف. لينورماند Lenormand .F» في مؤلفه المسمى: «أسطورة قدموس والمنشآت الفينيقية في بلاد اليونان» الإيضاحات التالية:

«... انطلاقاً من كريت بعد ذلك للوصول إلى مناطق نفوذهم ومراكزهم التجارية كان أبناء كنعان يتوغلون في بحر إيجة وعلى السواحل اليونانية...».

كانت الجزر الأولى التي أقاموا عليها مراكزهم التجارية ومنشآتهم هي:

«رودس Rhodos» - (تيراThera» - «ميلوس Melos» - «كيثيرا Kythera». وكان يوجد في «تيرا» على مايبدو في القرن الرابع قبل الميلاد معبد مكرس لـ «فينيكس Phoenix» الذي يمثل الفينيقيين. وفي «ميلوس» كان الفينيقيون يبادلون الكبريت وحجر الشبّ اللذين تشتهر بهما أرض الجزيرة بالمزهريات الجميلة التي عثر على بعض منها في نهاية القرن الماضي بالقرب من جزيرة الآلهة. أما جزيرة «كيثيرا» فكانت قد اشتهرت بمعبد عشتروت (أفروديت). وكانت صناعة الصباغ الأرجواني قد تركزت فيها من أجل سدّ حاجة الأسواق اليونانية التي لم تعد صور لوحدها تستطيع سدّها.

إن ما علينا تذكره دائماً هو أن كل هذه الأماكن المستكشفة داخل الجزر وفي البر اليوناني بقيت مرتبطة بذكرى قدموس، الذي كان يتمتع بمكانة سامية عند الإغريق، إذ كان بمثابة إله ومواطن نبيل في آن واحد. ومن هنا يتضح لنا قدموس بوجهيه: الوجه الأول، قدموس المؤسس، أب المستعمرات الفينيقية وراعيها في بلاد اليونان، والوجه الآخر، قدموس الإله الشاب الخلاّق الذي يمثل بالنسبة للديانات السورية تولدّ الطبيعة الدائم وتجددها.

ليس هناك ما يؤكد أن قدموس كان قد وصل إلى أبعد من بلاد اليونان. ولكن مع ذلك وجدت بالقرب من البحر الأدرياتي على ساحل دالماسيا منشأة قديمة يتوقع أن قيامها منسوب إلى قدموس.

الفصل الرابع عشر
من إبيدوروس.. المدينة المندثرة
إلى دوبرونيك

في الجزء الجنوبي من ساحل دلماسيا يحتمل أن يكون قدموس قد أسس مدينة ساحلية تدعى «إبيدوروس Epidauros» وأخرى أقل أهمية وتدعى «بوتوي Butoe».

غير أن المعلومات المتوفرة لدينا لاتقدم تحديداً واضحاً لموقع «إبيدوروس». وكل ما كان متوقعاً بهذا الصدد أنه من الممكن العثور على آثار منها في مكانٍ ما بين الحدود الألبانية و «دوبرونيك Dubrovnik» تحت بضعة أمتار من سطح الماء، حيث أن هناك حكاية متناقلة قديمة جداً تقول أن الساحل في تلك المنطقة قد غمره ماء البحر إثر زلزال شديد وخفس في الأرض.

وهناك أسطورة أخرى كانت تربط بين تأسيس «راجوس Raguse» وبين انهدام «إبيدوروس» الفينيقية التي ابتلعها البحر. وربما تكون أشياء كثيرة قد علقت بكل ما يمكن أن يطفو على سطح الماء، كالأخشاب وغيرها وانساقت مع التيار إلى أن جنحت بعيداً فوق جزيرة صخرية صغيرة تشكلت منها بعض الأكواخ، وهكذا وجدت «راجوس Raguse» التي نسميها اليوم «دوبرونيك Dubrovnik».

إن الإهتمام الكبير الذي أبداه اليوغوسلاف للأبحاث التي أقوم بها قد شجعني لأن أقترح على عدد كبير من الأشخاص المنقبين إجراء تحريات دقيقة فوق الأرض وتحت سطح الماء والبحث في الوثائق التي تكاد تكون مجهولة عن مدينة «إبيدوروس».

على بعد 18 كيلومتراً جنوب «دوبرونيك» في خليج محاط بجزر صخرية صغيرة أشبه بطاولات منحنية، وجدت على عمق يتراوح بين المترين والثمانية أمتار أكواماً هائلة من الحجارة المربعة وأنقاض سور طويل أو متراس قديم أو حافة رصيف.

استغرقت ثلاثة أسابيع متواصلة في البحث والغوص حتى تحققت من وجود «إبيدوروس». وكان يجب أخذ كل الاحتياطات واستخدام كافة الوسائل التقنية الهامة من أجل القيام بتجريفات حذرة هادئة وتنقيبات تحت الماء في هذه المنطقة.

كانت عناصر البناء مرئية تماماً في مياه الساحل الدلماسي الصافية والمعروف أن ذلك

الساحل واحد من أكثر السواحل صفاءً في العالم. ويتطابق المكان تماماً مع ما جاء في الحكايات الميثولوجية التي تصف قدوم قدموس وزوجته «هارمونيا Harmonia» إلى سواحل «إيلليريا Illyria» وفي هذا المكان يقال أن قدموس أسس «إبيدوروس Epidauros» و«بوتوي Butoe» التي تحققتُ بسهولة من أنها هي «بودفا Budva» الحالية.

وتتابع الأسطورة أن قدموس بعد بناء هاتين المدينتين الساحليتين قد حارب أهل «إيلليريا» وأن الإيلليريين توجوه ملكاً. كما تقول الأسطورة في مكان آخر أن إبناً لقدموس ولد في هذه الأماكن ويدعى «إيلليريون Illyrion» وقد أرضعته أفعى.

● قدموس.. أب لليوغوسلاف أيضاً؟...

أستناداً للأسطورة يفترض إذاً أن يكون «إيلليريون» ابن قدموس الفينيقي هو السلف الأول لشعب السلافيين على ساحل دلماسيا. لكن الحكاية الأسطورية تحاول عدم إبراز الأصل الأجنبي لـ «إيلليريون» هذا عندما تقول إن أفعى قامت بإرضاعه، معتبرة بذلك أن الأفعى بمثابة العنصر المحلي (أو الأهلي) الذي يعطي لـ «إيلليريون» صفة محلية. عدا عن أن الأسطورة تقول أن قدموس وهارموني تحوّلا أخيراً إلى ثعبانين وأن مآثرهما كانت قد انتهت هنا.(*)

ولكن في المياه الصافية للساحل الدلماسي مابين «سيفي ستيفان Sevi Stephan» و «بودفا Budva» بالتحديد توجد جزيرتان صغيرتان توحيان بالخط المتموج للثعبان، وقد يكونان، كما قيل لي الدلائل المرئية والمحسوسة لخلود قدموس «أب الكتابة» وزوجته هارموني(**).

بعد القدموسيين حاولت مختلف القوى من أقاليم ساحلية كثيرة فيما سبق العصر الهلنستي، حاولت الاستقرار في «إيلليريا Illyria». ويرد عند ديودور الصقلي ذكر كل من: «التالاسوكراتيين» الذين كانوا يسيطرون على البحر، و«الليديين» و«التراقيين» و«الرودسيين» و«الفريجيين» و«القبرصيين» و«الفينيقيين» و«المصريين» و«اللاسبيين» و«الفوكيين» و«الناكسيين» و«اللاكيديمونيين»، ويقول أنهم كلهم بعثوا برجالهم وبضائعهم عبر البحر الأدرياتي.

(*) من الجدير بالذكر أن الأفعى كانت لها صفة القدسية في أغلب الحضارات القديمة في العالم ـ المحقق ـ

(**) هناك أمثلة لا تحصى من مختلف الحضارات القديمة والحقب التاريخية تبين ميل الإنسان للربط بين أشكال طبوغرافية معينة توحي بشيء ما وبين أحداث حكايات أسطورية وجعل هذه أساساً لتلك أو العكس ـ المحقق ـ

من الممكن إذاً أن يكون قدموس، الملك الفينيقي، هو باعث الإزدهار الأول في الساحل الدلماسي، ذلك الازدهار الذي تجلى بتطور «راجوس Raguse» التي أصبحت شيئاً فشيئاً مدينة بيزنطية ثرية مسيطرة على مدخل البحر الأدرياتي ومحافظة على علاقات غالباً ما تكون صعبة مع الشعوب السلافية على الساحل الدلماسي.

والواقع أن كلاً من الجانبين كان بحاجة للآخر. فسكان جزيرة «Raguse» لم يكن بامكانهم العيش من دون المياه العذبة وقمح وخضار وفاكهة الفلاحين الإيلليريين. كما أن فلاحي الساحل من جهتهم لم يكونوا يستطيعون استيراد أو تصدير أي شيء من دون ميناء «Raguse» الذي كان يسيطر على المداخل البحرية في الأدرياتي.

وذات يوم تغلبت الحكمة على الصراعات والمنافسات عندما قرر ممثلو الجانبين الانتهاء من هذا الوضع بتوحيد مصالح سكان الأرض الخصبة مع مصالح القاطنين على الجزيرة الصغيرة. وشيئاً فشيئاً نشأت مدينة على الساحل في الجهة المقابلة لجزيرة «راجوس» سكنها السلافيون وقرر وجهاء المدينتين ردم ذلك الذراع البحري الذي يفصل بينهما وطلبوا من كل سكان المدينتين أن يساهموا في ذلك بالقاء أي شيء من الردميات في البحر إلى أن يتم سد هذا الذراع ويجف.

وتقول الأسطورة أنه بني مكان ذراع البحر هذا شارع دوبرونيك الكبير، وهو شارع عريض ومبلط بأحجار المرمر الأبيض ومحاط بالواجهات الأنيقة لمنازله التي تعود إلى القرن الثامن عشر والتي أعيد بناؤها إثر زلزال كان قد دمر المدينة.

حتى وإن كانت هذه القصة التي وجدت في وثائق المدينة أسطورية تماماً، فهذا لا يهمّ كثيراً، إذ أن أساطير الشعوب غالباً ماتعكس أمانيها وفلسفاتها. وهكذا كان المكان الأول في دوبرونيك مكاناً للحكمة والتسامح وروح الوفاق. وهذه الخصال التي هي فينيقية بالأصل. من المحتمل جداً أن تكون الميراث الذي حفظه أولئك الذين بقوا على قيد الحياة من مدينة «إبيدوروس» التي طواها البحر. فضلاً عن ذلك، يطيب العيش في «دوبرونيك» حيث يسود في القرن العشرين جوّ من الإخاء يتماشى مع العصر، ضمن نطاق المدينة القديمة المحصّنة التي لا يستطيع الوصول إليها إلا المشاة. احتفظت «دوبرونيك» من المدينة البيزنطية «راجوس» بكنائس وأديرة وأروقة مقببة وطرق وشوارع صغيرة مبلطة بالرخام، وفي ساحتها الواسعة ينتصب تمثال للفرنسي «رولاند Roland» كذكرى للصراع ضد الأتراك العثمانيين. وقد شرح لي أحد

السكان أن «رولاند» قد كُرّم بهذا التمثال كتجسيد للمقاومة ضد الغزاة الأتراك الذين انتشروا باسم الاسلام في كثير من مناطق البحر المتوسط. على الرغم من أن «دوبرونيك ـ راجوس» لم تصبح لها شهرة «فينيسيا» ـ البندقية ـ فقد كانت تضارعها بنفوذها الفعلي، كما توجد قرابة روحية عميقة بين المدينتين رغم المنافسات التي لامفرّ منها. وكان الخوارنة في دوبرونيك وقضاة البندقية يحتلون عملياً نفس الوظائف ويتمتعون بنفس الصلاحيات كقضاةٍ أوائل..

وللتمتع بسحر دوبرونيك بشكل أفضل، يمكن الذهاب إليها في شهر تموز أو آب خلال الفترة التي يقام فيها المهرجان السنوي. فوق الأماكن القديمة والأسوار، أمام دهاليز القصور، وداخل أروقة الأديرة، تقام كل مساءٍ الحفلات ورقصات الباليه وعروض الأوبرا والمسرحيات. وهناك علمت أن مسرحية «البخيل» كان قد كتبها أديب من دوبرونيك قبل أن يستوحي منها «موليير» بثلاثين سنة، وأن مسرحية «حلاق إشبيليه» تسمى في يوغوسلافيا «Sevilski Brijnak» ـ أي بعنوان مترجم بنفس المعنى ...

الفصل الخامس عشر

من Charybde(*) إلى Scylla(*)

وأجمل كيلومتر في العالم

بعدما ذكر في الفصل السابق من مواقع على ساحل الأدرياتي كان الطريق الساحلي للفينيقيين يقترب من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية لدى الاتجاه إلى مصادر القصدير. ومن المحتمل أنهم كانوا يتجنبون خليج «تارنت Tarent» ويتابعون بمحاذاة الطرف الجنوبي لمدينة «كالابريا» أي «تحت نعل الجزمة الإيطالية» وحتى رأس توزع الرياح.

وقد أوضح لي الصيادون الكالابريون أنه انطلاقاً من هذه النقطة من الساحل كان يوجد تياران يتفقان مع خطي سير بحريين مألوفين: الأول أقرب ما يمكن من الساحل وينفذ إلى مضيق «مسّينا Messina» أما الآخر فيتجه إلى الجنوب الغربي وينتهي على الساحل الشرقي لصقلية. وصلت خلال بضع ساعات إلى خليج مزدوج كبير بين «سيراكوز Syrakus» و «أوغسطا Augusta» تقطعه في الوسط شبه جزيرة تتصل مع الساحل برقعة رملية ضيقة يمر فوقها طريق للمركبات. وكانت هناك لافتة تشير إلى اسم الإله «مغنيسي Magnisi» وقد علمت فيما بعد أن إسمه القديم كان «تابسوس Thapsos».

● **مقبرة كبيرة من العصر البرونزي:**

على شواطىء «تابسوس Thapsos» الصخرية توجد مقبرة كبيرة ذات حجرات واسعة نحتت في الصخر بشكل جذاب. ومن الواضح أنها تعود إلى زمن قديم جداً. ومداخل سراديب الدفن تتجه نحو الشرق. والأمر المدهش هو أن بعضاً من هذه القبور يتصل مع الشاطىء بخندق صغير، وكأنه كان القصد بذلك تسهيل هروب المتوفى إلى البحر.

وقد اعتقد البعض أن ذلك كان عبارة عن شبكة من الأقنية لها دور عملي ربما كان تصريف مياه الأمطار.

(*) انظر الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

عثر في هذه المقبرة على مواد جنائزية من العصر البرونزي، وبالأخص مشابك أثواب وحلقات محفوظة في متحف سيراكوز بصقلية. وقد عبر عالم الآثار الإيطالي «Luigi Bernabo Brea» عن رأيه في هذه القبور ومحتوياتها وأوضح أن هذه الأشياء البرونزية المكتشفة وجدت في الشرق من صقلية، وهذه المشابك بالذات لها طراز قريب من مواد كان مصدرها الحوض الغربي للبحر المتوسط وبالتحديد ورشات جنوبي أسبانيا.

تبدو تلك القبور في «تابسوس» ذات تقنية محلية خالصة، وربما تكون دليلاً على حضارة مزدهرة نسبياً قامت سابقاً في هذا الجزء من صقلية خلال عصر البرونز.

إن أولئك الناس الذين صنعوا لأمواتهم قبوراً بهذه الروعة، والذين صنّعوا المعادن، لابد أنهم كانوا أسلافاً للصقليين الذين قدموا من إيطاليا القارّية ولم يستوطنوا إلا بدءاً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد المناطق الرئيسية من الجزيرة التي أعطوها اسم «صقليه Sikelia» إن الدلائل الأثرية على تواجد الفينيقيين في أراضي صقلية قليلة، ولكن لابد أنهم عرفوا سواحلها ومارسوا فيها تجارتهم. وإذا صحّ أن الحلي والأشياء البرونزية التي وجدت في القبور قد استوردت فعلاً من جنوب أسبانيا (كما أشير بالذكر آنفاً) فلا نستطيع أن نتصور وجود مستوردين آخرين في ذلك الزمن سوى البحّارة والتجار الفينيقيين. وإذا كان البرونز قد صُنّع في شرق صقلية فإنه لابد من وجود تجار يؤمنون النحاس والقصدير، وهذا يعني بالتالي الفينيقيين لأنهم الوحيدون الذين كانوا في ذلك العصر محتكرين لتجارة القصدير، حيث استطاعوا لمدة طويلة كتمان سر أماكن وجوده، هذا بصرف النظر عن تفوقهم في الملاحة البحرية على جيرانهم.

● دلائل على الوجود الفينيقي في شرق صقلية:

كان مادوّنه «توكيديدس Thukydides» في القرن الخامس قبل الميلاد بهذا الصدد بمثابة الأدلة المطلوبة، إذ نقرأ عنده:

«... انتشر بعض الفينيقيين أيضاً في صقلية محتلين تلك البروزات الساحلية التي حصنوها وجزراً صغيرة مواجهة لها، وذلك ليجعلوا من أنفسهم أسياد التجارة التي كانوا يمارسونها مع صقلية. لكنهم عندما رأوا جماعات كبيرة من الإغريق تأتي إلى

الجزيرة تخلوا عن قسم كبير من الأماكن التي كانوا قد حلّوا فيها وتجمعوا في أماكن أخرى فسكنوا في «موتيي Motye» و«بانورم Panorme» و«سولويس Soloeis» إلى جوار «إليمس Elymes» وتحالفوا مع سكان هذه المواقع اعتقاداً منهم أن هذه الجهة هي أقرب مايكون بين صقلية وقرطاجة. أولئك هم الغرباء الذين سكنوا صقلية وأقاموا منشآت فيها...»

Thukydides VI, 2

إذاً فلا عجب في الأمر إذا علمنا أن الفينيقيين قد نزلوا في صقلية قبل الإغريق، ثم غادروا جهتها الشرقية لدى قدوم الإغريق ليتجمعوا في الجهة الغربية المقابلة لقرطاجة. هذا وقد جاء عند ديودور الصقلي أيضاً مايؤيد هذه المعلومات التي دونها «Thukydides». كما أنه لاعجب في الأمر أن الآثار التي تشير إلى الحضور الأول للفينيقيين في هذا الجزء من الجزيرة كانت قليلة لأن أغلب السلع التجارية التي كانوا يحضرونها تعتبر سلعاً استهلاكية كالأقمشة والعطور والأصبغة أو المواد الأولية التي يمتصها الإنتاج المحلي.

ومن المؤكد أن الإغريق عاشوا في انسجام جيد وتفاهم مع الفينيقيين لمدة طويلة، وأن الفينيقيين لم يلاقوا عداءً فعلياً في هذا الجزء من العالم إلا مع الرومان.

قدم المستوطنون الإغريق بأعداد كبيرة إلى صقلية، وذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد وأسسوا بشكل خاص مدينة «سيراكوز Syrakus» وليس هناك في المصادر القديمة ذكر لأية مقاومة من الفينيقيين، بل الأرجح أنهم تعايشوا مع الوسط الإغريقي. ورغم تجمعهم بصورة عامة في غرب الجزيرة فلا يستبعد أن تكون بعض جماعات التجار منهم قد استطاعت الاستمرار في أعمالها في صقلية اليونانية.

● **سيراكوز «Syrakus»:**

عند استئذاني من باحث الآثار الإيطالي «Luigi Bernabo Brea» الآنف الذكر بالإنصراف قال لي غامزاً: - عندما تجتاز عتبة المتحف توقف في موقع «دومو Duomo» فهو أحد أجمل المواقع في العالم.. -

والواقع أن «دومو Duomo» مكان له شكل شبه مستطيل محاط كلياً بالأبنية التاريخية من نماذج وأزمنة مختلفة، لكن مجموعها يولد انطباعاً غريباً من الأصالة والإنسجام.

هناك أولاً المتحف نفسه والذي يدعى «Bosco» ويقع في: «Palazzo Benaventano». شيد هذا المتحف في القرن الثامن عشر في عهد مملكة «Naples» والصقليتين، هذه المملكة التي انتهت في عام 1860 مع سقوط «باليرمو Palermo».

بالقرب من المتحف، أو الـ «Bosco» يوجد فندق المدينة الذي بني في سنة 1700.

وفي الجهة المقابلة توجد الكنيسة، التي توحي للناظر بأنها بنيت فوق قاعدة (أو مصطبة) تعود لزمن أقدم. وللوصول إلى المستوى الذي تقع عليه الكنيسة علينا أن نصعد عشرين درجة. والواقع أن هذه القاعدة تحت الكنيسة ليست سوى قاعدة معبد أثينا التي أنشئت في القرن الخامس قبل الميلاد من قبل الإغريق سكان سيراكوز تكريماً لأكبر إلهة في وطنهم. وقد بقي معبد أثينا أحد عشر قرناً، وبعد انهياره رفعت أنقاضه وبنيت الكنيسة فوق قواعده المتينة في عام 650 ميلادي. أما واجهتها الحالية فتعود إلى سنة 1645. وهي ذات أسلوب باروكي أسباني.

● **القديس بولص «Saint Paul» في معبد أثينا:**

هناك اعتقاد أن القديس بولس وقف في هذا المكان فوق درجات معبد أثينا عندما كان يبشّر بالمسيحية في سنة 61 إذ أنه بعد قضاء مدة في جزيرة مالطه توقف في سيراكوز أثناء عودته إلى روما. وهذا ما يرد وصفه في أعمال الرسل (الإصحاح الثامن والعشرين) كما يلي:

«... بعد ثلاثة أشهر ركبنا البحر فوق سفينة كانت قد قضت الشتاء في الجزيرة..... رسونا في سيراكوز ومكثنا فيها ثلاثة أيام... ومن هناك ذهبنا بمحاذاة الساحل حتى ريجيوم....».

● **ريجيو** Reggio:

عُرفت هذه المدينة باختلافات بسيطة في شكل الإسم، إذ كان قديماً «ريجيوم Regium» وقبل ذلك «ريجيون Reghion» أما اليوم فيقال: «ريجيو كلبريا Reggio Kalabria». وفي هذا المكان يبدو مضيق مسّينا وكأنه نهر، كما أن ساحل صقلية وشبح «إتنا Etna» يبدوان قريبين.

كان بانتظاري في «ريجيو» بعض معارفي، فأخذوني في نزهة إلى جنوب المدينة فوق ذلك الطريق الساحلي الطويل الذي أطلق عليه «Gabriele D, Annunzio» تسمية «أجمل كيلومتر في العالم» بالنسبة لعصره.

وهناك مركب كبير حديث يعمل على نقل الناس والآليات من كل الجنسيات بين ريجيو ومسّينا. ويموله صندوق «Mezzogiorno». هذا وان حركة العبور من جانب إلى آخر تقطع خليج «مضيق» مسّينا في أضيق نقطة منه، حيث يحتمل أنها كانت أيضاً معبراً في القرن الثالث عشر ق.م لجماعات الـ «Sikulus» في قدومهم من إيطاليا إلى صقلية.

● **من Charybde إلى Scylla:**

كان المضيق منذ القدم مشهوراً ومخيفاً بسبب زوبعة «Charybde» التي كانت تأخذ السفن أو بالأحرى تقذف بها إلى صخور «Scylla» واستناداً لما قاله سكان تلك المنطقة كان ذلك الإعصار لم يزل معروفاً حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكنه توقف، أو اختفى بشكل مفاجيء في صباح أحد الأيام الجميلة. وهذه ظاهرة لا غرابة فيها، إذ أن تلك الأمكنة التي تكثر فيها الانهدامات الجيولوجية أو الصدوع المقعرة لايزال فيها سطح الأرض وقاع البحر يتعرضان لبعض الهزات أو التحركات العنيفة. وهنا لا يستبعد أن قاع البحر في تلك المنطقة كان فيه أحد هذه العوارض الانهدامية وكان سبباً لاضطرابات عنيفة في المياه، وأنه حصل فيه تحول وأصبح مستوياً أو غُمر فجأة بفعل زلزال عميق.

وكان مما أثار دهشتي هو رؤية نماذج بطاقات بحرية حديثة نسبياً وعليها ما يرمز إلى ذلك الإعصار الشهير. وقد أكد لي أحد معارفي ممن أبحروا غالباً في زوارق شراعية على تلك الطريق، أنهم كانوا خلال إبحارهم هناك يشعرون دائماً بما هو ليس بالأعاصير ولا بالزوابع وإنما بما يشبه اللطمات العنيفة التي تغير اتجاه الزوارق، مما يضطرون معه لضبط البوصلة بدقة.

بالقرب من تلك الناحية تنتصب على ساحل كلبريا صخرة «Scylla» الكبيرة. وفوق هذه الضخرة قلعة قديمة تُستخدم في هذه الأيام «نزلاً للشباب» كما تستضيف أسوارها واسطحتها جماعات من الطلاب الاسكندنافيين الذين ينكبون على تلك الظاهرة الحديثة المعروفه بعبادة الشمس.

وإلى الأعلى قليلاً يوجد بروز صخري مرتفع فوق مضيق مسّينا ينتصب فوقه برج كبير للأسلاك الكهربائية وهو أكبر برج رأيته على الإطلاق. يحمل أسلاكاً ذات توتر عالٍ، فإيطاليا القرن العشرين لم تنس سكان صقلية، بل انها تزودهم بملايين الفولطات من الطاقة الكهربائية.

الفصل السادس عشر
في الجزر الإيولية
- خفّان ورياح وسَبَج -

منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن قبل الميلاد كان مضيق مسينا هو الطريق الذي اعتاد الفينيقيون اتباعه بسهولة، حيث كانوا بعد أن يصبحوا في البحر التيراني ينطلقون غرباً باتجاه منابع القصدير.

ولكن منذ سنة 720 قبل الميلاد كان الإغريق بعد غزوهم «ريجيوم Reggio» ومسّينا قد أصبحت لهم السيادة المطلقة على المضيق والناحية الجنوبية الشرقية من صقلية. والأرجح أنه منذ ذلك الوقت توقفت السفن الفينيقية عن استخدام مضيق مسينا بعد أن صارت لها قواعد ارتكاز في غربي صقلية وصار تحت تصرفها ميناء قرطاجة الكبير (وكان عمر مدينة قرطاجة قد أصبح قرابة التسعين عاماً). ولكن إلى الشمال من مضيق مسينا بقيت الجزر الإيولية تعتبر محطة استراحة ونقطة استدلال.

وقد سمي هذا الإرخبيل في بعض الأحيان باسم أكبر جزيرة فيه وهي «ليباري Lipari». ويشتمل إجمالاً على عشرين جزيرة بعضها عديم الأهمية. وبعضها مأهولة بالسكان ولها أهمية مثل: «Filicudi» - «Salina» - «Panarea» - «Vuleano» - «Stromboli» - «Lipari» وفي هذه الأخيرة توجد العاصمة التي تحمل أيضاً اسم «ليباري» - وهذا الأرخبيل عبارة عن مجموعة من المرتفعات ذات منشأ بركاني، وهو يقع على بعد حوالي 50 كيلومتراً إلى الشمال من ساحل صقلية وحوالي 100 كيلومتراً إلى الغرب من إيطاليا.

تشكلت هذه الجزر من براكين قديمة هدأت منذ زمن بعيد. إلا أن فوهة البركان الواقع فوق جزيرة «Vulcano» مازالت تبدو طرية حتى أن الإنسان يشعر بأنها ربما لم تهدأ تماماً. أما جزيرة «Stromboli» فمازال بركانها ثائراً منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا هذا، ومازال يقذف بالحمم ويخط السماء ليلاً بشهبه. وجزيرة «سترومبولي Stromboli» عرفت قديماً باسم «إتنا Etna» أيضاً. وكانت هي وجزيرة «إتنا» الأخرى تفيدان كمنارتين على الطرق الساحلية.

يبقى أن نعرف لماذا دعيت جزر هذا الأرخبيل بالجزر الإيولية؟... هذا الاسم المحمل بنسمات بحرية...

مما كتبه ديودور الصقلي أن الإغريق عندما أبحروا في هذا الأرخبيل في عام 580 قبل الميلاد وجدوا أمامهم جزراً شبه خالية ولا تسكنها إلا بعض العائلات البائسة التي كانت تزعم بأنهاتنحدر من سلالة «Eole».

● **عند منابع السبج:**

كانت الجزر الايولية هذه قد عرفت منذ الألف الثالث قبل الميلاد ما يدعى بالحضارة النيوليتية (العصر الحجري الحديث) حيث تشير إليها بعض المكتشفات الأثرية ومن ذلك دعائم المنازل ذات الشكل الإهليلجي التي كانت قد بنيت على شكل تجمعات متلاصقة من الممكن أنها سبقت الاستيطان الأول في روما على ضفاف التيبر بحوالي الـ 2000 سنة.

ولكن كيف السبيل إلى تفسير ذلك العصر الحضاري النيوليتي ثم هذا الانحطاط؟.. إنه لابد في ذلك من العودة إلى عصر الحجر المصقول، إلى ذلك العهد الذي ترتكز فيه الحضارة على علاقة الحجارة فيما بينها، حيث كان تطويع وصقل الحجارة الناعمة يتطلب حجارة أكثر صلابة.

هذا وتذخر الجزر الايولية بجميع أنواع الحجارة، ومن ذلك: حجر الغرانيت والحجر الرملي والحجارة البركانية والخفان الأسود وخاصة حجارة السبج، هذه الحجارة البلورية السمراء والسوداء التي لها صلابة تقارب صلابة الماس. ونستطيع أن نرى بوضوح على منحدرات براكين «ليباري Lipari» القديمة وبين سيلين من حجارة الخفان ذات اللون الأسمر الشاحب، أكواماً كبيرة من حجارة السبج التي كانت تفيد قديماً في صنع أشياء ولوازم منزلية هامة كالعلب والحلي والأختام والمرايا وشفرات الحلاقة والنصال المختلفة كالسكاكين ثم لوازم الصيد والحرب كالخطافات ورؤوس السهام والرماح.

كانت حجارة السبج المادة الأولية الأكثر رواجاً حتى العصر البرونزي ولابد أن عادة استخدامها ومفهوم القيمة المتعلقة باسمها قد بقيا كما هما حتى نهاية العصر البرونزي، أي حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم انتشر الحديد الذي ألغى عملياً وبشكل نهائي استخدام هذه الأشياء من حجارة السبج.

وجدت الجزر الايولية نفسها ضحية تطور تاريخي تجلى بانتشار حضارات أخرى

إذا استمر الكريتيون والميكانيون بتوسيع منشآتهم من جهة والفينيقيون بنشر وتوسيع مراكزهم ومرافئهم هنا وهناك من جهة أخرى. ولكن يبدو أن هناك عاملاً آخر غير طبيعي كان قد عجل بانحطاطها.

من المؤكد أن «ليباري Lipari» وهي الأكثر أهمية بين هذه الجزر قد لاقت في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد تدميراً عنيفاً لانعرف إن كان ناتجاً عن حرب أو عن حريق. وآثار النيران واضحة في كل مكان جرت فيه التنقيبات في طبقة الركام الموازية لذلك الزمن. بعد ذلك الخراب الذي سببه الحريق تتالت، وعلى مر عدة قرون، غارات الإترورين التي كان يصاحبها نهب ماعند سكان الجزر.

أما بالنسبة لأولئك البؤساء الذين بقوا يعيشون في تلك الجزر فيمكن القول أن قدوم اليونان سنة 580 قبل الميلاد كان إنقاذاً لهم[1] نظراً لسيطرة حقبة حضارية جديدة وازدهار الزراعة والقوانين التي وضعتها « اليونان الكبرى» وما دعي بـ «السلام الروماني» والمصير الذي تبع، ولو بشكل ضئيل، مصير صقلية.

● **الفينيقيون في ليباري Lipari:**

لكي أتحقق فيما إذا كان الفينيقيون قد مكثوا في الجزر الإيولية لفترة طويلة نسبياً قصدت مرةً أخرى ذلك الرجل الذي كرسى حياته لأبحاث الآثار في هذه المنطقة وهو العالم «Luigi Bernabo Brea». ومن حسن الحظ أني وجدته إذ كان يقوم بحملة تنقيبات في جزيرة «ليباري Lipari» أثناء إقامتي في مجموعة الجزر الإيولية.

كما أني صادفت في ليباري مديرة المتحف الأثري للجزر الإيولية[2] وهي فرنسية الأصل جذابة ورياضية وتدعى «مادلين كافاليير». وقد تبناها سكان الجزيرة وطَلْيَنُوا اسمها بشكل طريف إذ صاروا يلفظونه «كافالييري» وبذلك ضموها إلى عائلة «Eole» الكبيرة.

صرح الباحث الأثري «Luigi Bernabo Brea» قائلاً: ـ ليست هناك موجودات أثرية تؤكد وجود الفينيقيين في الجزر الإيولية ـ لكنه أضاف موضحاً:

---

(1) وهؤلاء اليونان كانوا بالواقع من «Knidos» ومن رودس وحاولوا تأسيس مستعمرة في «ليليبيوم Lilibaeum» (وهي Marsala الحالية في غربي صقلية). ولكنهم بعد أن هزموا في معركة مع القرطاجيين وفقدوا قائدهم تحولوا عن تلك الناحية وفي الطريق توقفوا في «ليباري Lipari» حيث استقبلهم السكان استقبال المنقذين إذ كانوا يعيشون في غم دائم إثر كل غارة يقوم بها الإترورين.

(2) المتحف الأثري للجزر الايولية يقع في نطاق قلعة ليباري ويشرف على المدينة الحالية. وهو ذو مكانة رفيعة فيما يخص تاريخ الجزر الإيولية وماقبل تاريخها.

ـ عندما نعرف جيداً أساليب البحارة الفينيقيين التجارية، ندرك أنهم لم يتركوا سوى آثار قليلة جداً. ولما كانوا يقصدون عدم ترك شيء من آثارهم فقد عمدوا غالباً للتدليل على مرورهم وتواجدهم هنا وهناك بترك آثار فنية صنعها غيرهم لكنها نُقلت بواسطتهم، وهذا ما يزيد في تعقيد الموضوع، كانوا يرسون بسفنهم لفترة قصيرة جداً، هي الوقت اللازم للمبادلات التجارية وتقديم القرابين للآلهة أو لهبوب رياح مواتية، لكن الفينيقيين قد جاؤوا بالتأكيد إلى هذه الجزر مقتفين آثار الكريتيين والميكانيين ليتمونوا من حجارة السبج خلال عصر توسعهم الكبير بإتجاه الغرب بين القرنين الثالث عشر والتاسع قبل الميلاد ـ والواقع أنه لولا ذلك لم استطعنا تفسير وجود آثار فنية فينيقية عظيمة صنعت من حجارة السبج تعود إلى ذلك العصر. وأكثر ما أذكره: علبة للمراهم تليق بملكة مصنوعة من حجر السبج ومذهّبة في أسفلها، حُفظت في المتحف الوطني في بيروت.

● **من الحقب الحضارية القديمة:**

ساعدت التنقيبات التي جرت في وسط قلعة ليباري على تكوين فكرة عن الحقب الحضارية السابقة للعصر الهلنستي بحوالي الـ 2000 سنة إلى جانب الحضارة النيوليتية. وقد دعيت هذه الحقب الحضارية: «Capo Graziano» و«Millazzese» و«Ausonio I» ثم «Ausonio II».

ولم تكن الطبقات الأثرية الإغريقية والرومانية وحدها لتضفي على آثار ليباري أهمية بالغة. وما تجدر مشاهدته من هذه الآثار: أسقفية من القرن الثالث، وأسوار من القرن الرابع، وأبراج من العصر الوسيط، وكنيسة من القرن الحادي عشر وكنائس من القرن الثامن عشر، وهذه الأبنية كلها تتشابك ضمن مناطق مسوّرة قديمة حيث توجد أيضاً أبنية من الزمن الحالي يخيم عليها البؤس استخدمت لنفي خصوم الفاشيين الموسولينيين قبل أن يأتي دور هؤلاء أنفسهم ليسجنوا في نفس الأمكنة ما بين 1944 و 1950.

أما قلعة ليباري فاستخدامها الأساسيّ الآن هو احتواء الكنوز الأثرية القيّمة في إحدى وعشرين قاعة يتكون منها متحف ليباري. في الوقت الحالي لم تعد أحجار السبج الكبيرة التي تزن بين 3 و 5 كيلوغرام تصنّع من قبل الحرفيين وإنما تستخدم كما هي في سدّ الأبواب التي لاتنفكّ ريح الأرخبيل العاتية تهددها بالإنهيار. وقد أردت أنا أيضاً أن أحصل على حجر سبج، وقد نجحت في اقتلاع حجر كبير من المنحدر الجبلي

بمساعدة صديق من ليباري كان مزوداً ببعض الأدوات. وقبل أن آخذ الحجر إلى باريس حاولت في غرفتي بالفندق انتزاع بعض النصال أو الشظايا القاطعة منه ولكن نجاحي في ذلك كان متواضعاً.

● **حجارة الخفّان:**

اشتهرت ليباري أيضاً بحجارة الخفّان. ففي أجزاء الجزيرة حيث تصنّع هذه الحجارة ينتج عن رواسب الاستخراج والنحت مسحوق أبيض ناعم كالطحين تدوّمه الرياح التي تهب في كل مكان فتجعله كالسحب المتحركة.

والواقع أنه مما يلفت النظر تلك المناجم الموجودة في المرتفعات الجبلية والتي تبدو بذلك وكأنها مغطاة بطبقة من الثلج. وكذلك على وجه البحر الشديد الزرقة نرى بقعاً بيضاء ليست سوى تجمعات كريات هذه الحجارة الخفيفة التي لايستفاد منها تجارياً لصغرها وهي من مهملات التصنيف وحتى عند السباحة يرى المرء هذه الكريات الصغيرة الخفيفة تحيط به على وجه الماء. ولم يكن يخطر ببالي أن هذه الحجارة البيضاء الصغيرة كانت مطلوبة جداً في العالم وقد دهشت عندما علمت أن حجارة الخفان ظلت حتى يومنا هذا تمدّ إيطاليا بالكثير من العملة حتى أن سكان ليباري قد أعفوا من الضرائب تبعاً لتقليدٍ كان منذ القدم.

● **سترومبولي Stromboli:**

كانت التجارة بين جزر أرخبيل ليباري حتى قبل قرابة الخمسين سنة تتم بواسطة مراكب شراعية تقوم بنقل براميل الخمر وأكياس الحبوب والبطيخ والمسافرين. وقد قيل أن آخر الذين بقوا من أصحاب هذه المراكب البسيطة هلكوا أخيراً على ساحل من الرمل الأسود في جزيرة سترومبولي Stromboli.

أما اليوم فيتم التنقل بين ليباري وسترومبولي في سفن صغيرة هادئة فولكلورية إلى حدٍ ما أو باستخدام تلك المراكب الحديثة السريعة التي تقفز فوق الماء وتستخدم في التزلج المائي، والتي تملأ تقريباً كل أنحاء البحر المتوسط منذ بضع سنوات. والواقف على سطح أحد هذه المراكب يخيل إليه كأنه فوق جناح طائرة.

ويمكننا بسرعة أن نكتشف سحر الجزيرة إذا نظرنا من خلال نافذة المركب ذات الزجاج الواقي. وما هي إلا بضع عشرات من الدقائق حتى نهتدي إلى عالم آخر دون

هزات المراكب، وسط البيئة الخيالية لجزيرة سترومبولي التي يسيطر عليها بركانها الدائم الغليان، حجارة من الحمم السوداء ذات أشكال مختلفة أثرت فيها الرياح وأمواج البحر، وحصى ملساء سوداء، ورمل أسود.

يشغل البركان نفسه حوالي نصف الشمال الشرقي من الجزيرة. أما الجزء الآخر، حيث تتراكم طبقات الرماد البركاني وتراب الحمم، فيشكل هضبة ذات خصوبة مدهشة تزرع فيها الكرمة بصورة رئيسية.

كان قرويو سترومبولي يعيشون في بحبوحة مصدرها كرمتهم والخمر المشهور الذي كانوا ينتجونه منها. غير أن هؤلاء القرويين هاجروا خلال الخمسين سنة الأخيرة. أما بيوتهم المهجورة فقد زال ملاطها، وعلى الأبواب لافتات كتبت عليها بخط سيء عبارات تدعو للفضول مثل: «العائلة بأكملها في سان فرانسيسكو، على العنوان... كذا... وكذا...» أو «بامكانكم الزيارة، اطلبوا المفتاح من الخوري..».... الخ..

لكن الحقول مازالت تزرع والكروم لم تهمل، ويقوم على العناية بها بعض سكان الجزيرة المسنين من الذين لم يهاجروا.

لدى رؤيتي للمنازل المتصدعة بشدة اعتقدت أن هزة أرضية كانت سبب هذه الهجرة الجماعية، لكن الواقع كان غير ذلك، وهو أن ظهور السفن ذات المحرك وانتشارها الكبير في بداية القرن العشرين جعل الاستمرار مستحيلاً بالنسبة لزارعي الكرمة، إذ أن خمرهم الذي كان يباع بسعر مرتفع نسبياً في جزر الأرخبيل الإيولي نظراً لنقله في الزوارق الشراعية البسيطة، وجد نفسه فجأة أمام المنافسة القوية للخمر الصناعي الذي تنقله السفن الحديثة بكميات كبيرة وبسرعة وتكاليف قليلة، وبالتالي يباع بأسعار زهيدة بالمقارنة مع الخمر المحلي.

إلا أن هناك عدداً قليلاً من متذوقي الجمال، منهم ألمان وأميركان وبعض الفرنسيين، مأخوذون بفكرة «معرفة العالم» وجدوا في بساطة هذه المنازل، حيث يعيش المرء حافي القدمين، ملاذاً حقيقياً لطالبي الاستجمام وراحة القلب.

وبطاقات الزيارة المعلقة على الأبواب النخرة تشير إلى نقاط انطلاق هذه الهجرة كما تحتوي موجزاً لأخبار بعض الأشخاص، إذ نشاهد مثلاً:

«جون... ف... X.. نيويورك»... «الدكتور كلاوس... ك... ميونيخ»...

«لقد اشتروا كوخ أحلامهم بـ 50000 أو 100000 ليرا ووضعوا أثاثاً بسيطاً عند أسفل الجدران المكلّسة، وهم يدعون جيرانهم لشرب الخمر الأحمر وقضاء السهرة في

أحواض الخمر القديمة التي حوّلت إلى حمّام ياباني». وملخص ذلك أنهم اكتشفوا من جديد وبطريقتهم الخاصة تلك الجزيرة المستديرة المخيفة، جزيرة البحارة القدماء التي كان البعض يسميها «الجزيرة العائمة» إذ كانوا يعتقدون أنها كانت جاثمة على منحدرات صخرة خفان تحيط بها. وكان الكنعانيون يسمونها «الجزيرة التي تنجرف». وفي زمن الأوديسّة كانت جزيرة سترومبولي تعتبر «مرسى الغرباء» ومسكن «Eole» التي توجه الرياح.

ويروي العالم اليوناني «Victor Berard» الذي تبع أثر «Ulysse» مغامرات هذا المستكشف المثابر في سترومبولي:

«يزعم سكان الجزيرة أن البركان يثور حيث يهدأ، وانه يثور أو يهدأ تبعاً للرياح. فإذا كانت الرياح آتية من الشمال جعلت مزاجه حسناً. وأما إذا كانت الرياح قادمة من الجنوب أثارته وجعلته يجأر. أما Ulysse فأثناء قدومه من بلاد Kyklopes دفعته الرياح القادمة من الشمال ووجد في البداية Eole بهيئة ساحرة، فاستقبلته ولاطفته وتمسكت به. وما أن أبدى Ulysse رغبته بالرحيل حتى تركته Eole يبحر وأعطته في قِرْبةٍ ريحاً شمالية مواتية، وهي الريح التي تدفع الناس والمراكب باتجاه الوطن... أبحر Ulysse تسعة أيام بلياليها. وفي اليوم العاشر عندما صار يلمح أرض الوطن فتح مرافقوه القربة، وفجأة انعكست الرياح وساقت المركب الصغير نحو Eole...» = Berard, p210- 211 =.

فهل سيفكر سكان سترومبولي المهاجرون في يوم ما بفتح القربة لتحملهم عندها الرياح المعكوسة نحو بلاد Eole ثانيةً؟....



الفصل السابع عشر
الفينيقيون في:
«بوزّولي.. Pouzzoli» و«إيشيا... Ischia» و«كابري... Kapri»

قبل أن يأتي الإغريق ويؤسسوا مدينة نابولي «Neapolis» ـ على ساحل إيطاليا الغربي ـ كان الفينيقيون قد استقروا إلى الشمال منها في خليج محمي جيداً من الرياح حيث توجد اليوم «بوزّولي Pouzzoli» ليس بعيداً عن مناجم الكبريت المعروفة باسم حقول «Phlegreen». وتذخر هذه المنطقة بالكبريت الطبيعي الذي يعتبر مادة أولية مطلوبة كثيراً منذ العصر القديم.

وقد تم الكشف عن مقبرة واسعة جداً من التراث الشرقي على جانبي الخط الحديدي نابولي ـ روما وعلى مسافة قصيرة من Pouzzoli.

● بوزّولي «Pouzzoli».. منشأة قديمة العهد:

كان قد اختير لها موقع مناسب تماماً: خليج صغير رمليّ حيث يمكن إدخال الزوارق فوق رمال الشاطيء، ثم جروف من الصخر اللين كمكان لدفن الموتى، وكميات كبيرة من الكبريت الذي لابد أنه كان يباع بسعر زهيد. وأما في جوار المكان فوجدت جماعات من الفلاحين التي ربما كانت تعيش حياة هانئة في قرية خصبة. وربما أمكن القول أن هؤلاء السكان كانوا يتصفون منذ 3000 سنة بلطف وبشاشة سكان نابولي الحاليين. كما أن منشأة الفينيقيين «Pouzzoli» كانت في العصر الروماني موجودة وكانت تدعى «Statio» حيث كان لهذه التسمية حينذاك مدلول خاص هو: «المركز التجاري المؤجر». وفي هذه التسمية ومدلولها يكمن السر الرئيسي لنجاح التواجد الفينيقي في العالم. إن مصطلح «مركز تجاري مؤجر» ينطوي على غياب المطامع الإقليمية ويدل في رأيي على حضور ذكي حاذق ومتواضع في الوقت نفسه، كما يفسّر لنا لماذا واجه باحثوا الآثار مشقة كبيرة للوصول إلى الدلائل الملموسة للمنشآت الفينيقية.

وهذا الـ «مركز التجاري المؤجر» لابد أنه كان يحتوي على مخزن أو عدة مخازن

كافية لاستيعاب مختلف اللوازم، ثم بعض المنازل المبنية على الطراز المحلي تسكنها عائلات المدراء أو الوكلاء والموظفين.

يمكن القول أن فينيقيي «Pouzzoli» لم يكونوا يختلفون في شيء عن فينيقيي الموانىء العديدة الأخرى، فلابد أنهم كانوا يعتبرون ممثلين محليين أو وكلاء أو مدراء فروع أكثر من اعتبارهم مهاجرين بالمعنى الدقيق للكلمة. ففي «بوزّولي» كانوا يشترون كميات ضخمة من الكبريت ويخزنونها بانتظار قدوم سفنهم التي امتلأت أحواضها بكل أنواع البضائع النادرة الآتية من مختلف سواحل البحر المتوسط.

ومن المؤكد بصورة قاطعة أن فينيقيي «بوزولي» كانوا قد حققوا كل مرابحهم بصورة سلمية بحتة من تجارتهم، وكانوا قد نجحوا في البقاء مخلصين لوطنهم الأم خمسة قرون بعد استيلاء الإسكندر الكبير على مدينة صور والساحل الفينيقي.

● هل هناك شَبَه ببيت المال؟...

مما يجدر الحديث عنه وثيقة ذات أهمية بالغة، هي عبارة عن رسالة، والأصح عريضة، منقوشة على لوح من الحجر، موجهة إلى مجلس (برلمان) مدينة صور، صور التي أعيد بناؤها واكتسبت طابعاً هلنستياً بعد دمار عام 332 قبل الميلاد (على يد الإسكندر)، لكنها حصلت على استقلال إداري كبير، وهذا ما يبرهن عليه نص الوثيقة الذي سيرد فيما يلي.

لقد تمكنتُ من رؤية اللوحة الحجرية الشهيرة التي حفظت سليمة في مخزن متحف الآثار بمدينة نابولي. الكتابة فيها يونانية والأحرف مرسومة بشكل جيد، علماً أن تقديم العرائض الإدارية الرسمية المكتوبة بشكل متقن في ذلك العصر كان عملاً بلا طائل.

يبدأ ذلك بمقدمة مدهشة:

«رسالة موجهة إلى مدينة الصوريين، العاصمة المقدسة المنيعة والمستقلة لفينيقيا وللمدن الأخرى، والمدينة الأولى على البحر... إلى الموظفين وإلى مجلس الشورى وإلى مجلس الشعب، شعب الوطن العظيم... الصوريون المقيمون في بوزولي... تحية...»

يلي بعد ذلك مباشرة طلب يلتمس تخفيض الضريبة التي يقدمونها بالشكل المناسب والممكن تحمله، والسبب في ذلك أن روما التي تزايد نفوذها أكثر فأكثر

أخذت تفرض من الآن فصاعداً على التجار الصوريين في بوزولي أن يدفعوا أتاوات في مكان إقامتهم.

فهم يطلبون إذاً الإعفاء من الضريبة السنوية المقدمة إلى صور والبالغة 100000 ديناراً رومانياً (أي ما يعادل اليوم حوالي 140000 فرنك فرنسي). إن مشكلة الضريبة التي جاءت بها هذه الرسالة هي من الأمور المعاصرة، وهي في هذه الأيام مشكلة رعايا السلطات الاستعمارية القديمة التي ترغب بالبقاء في البلد الذي أقامت فيه.

وعدا عن الإعفاء الضريبي يطالب أصحاب الرسالة باعانة مالية من أجل أماكن العبادة ومذابح آلهة الصوريين.

ثم اختتمت الرسالة كما يلي:

«إننا إذاً نتوجه إليكم.. إن مصيرنا متعلق بكم.. اهتموا بالقضية..»

ـ كتبت هذه الرسالة في بوزولي في اليوم السادس قبل مطلع شهر آب. في عهد قنصلية كل من «غالوس» و«فلاكوس كورنيليا نوس» ـ

ـ كتبها «لاخيس» وسلّمها ابنه «أجاتوبوس» ـ

من خلال بعض الإشارات الزمنية الموجودة في الرسالة أمكن وضع تاريخ دقيق لها وهو 23 تموز سنة 174 ميلادية.

وأما الردّ على هذه الرسالة فكان أيضاً مذهلاً، حيث جاء على شكل محضر صادر عن مجلس الشعب في صور بتاريخ مواقف لـ 8 تشرين الأول من نفس السنة(174 ميلادية).

من الملاحظ إذاً أن جواب المجلس في صور كان سريعاً على المراسلات الرسمية، لأن رسالة 23 تموز لابد أن وصولها استغرق حتى بداية شهر أيلول تقريباً، وذلك ضمن أفضل شروط متوفرة للنقل في ذلك العصر. في ذلك الجواب توضيح أن حكومة صور توافق على إعفاء رعاياها في بوزّولي من الضريبة السنوية المترتبة عليهم، لكنها ترفض تقديم الإعانة المالية المطلوبة في الرسالة من أجل نفقة أماكن العبادة مذكرةً إياهم بالروح الوطنية التي يعتزّ بها الصوريون.

وهنا نلاحظ أن المبدأ الذي يقول بعدم إلزام الإنسان بدفع الضريبة مرتين كان يؤخذ به إذاً منذ ثمانية عشر قرناً وليس وليد عصرنا هذا. كما نلاحظ أنه لأول مرة أيضاً تطرح فكرة الحصول على إعانة مالية ثقافية من الدولة.

● حياة مشرقة:

لابد أن الحياة في منطقة بوزولي Pouzzoli قبل حوالي ألفي سنة كانت ناضرةً مزدهرة، حيث كانت تمتد مابين نابولي ومدينة «Cumes» القديمة منازل عديدة. ولابد أن أصحابها الأثرياء من الإغريق أولاً ثم من الرومان فيما بعد كانوا يقيمون علاقات مع رجال المخازن الفينيقية تتعدى منهج الأعمال التجارية البحتة.

ولما كان للفينيقيين احتكاك جيد مع الطبقة الأرستقراطية من خلال النجاح الباهر لتجارة الكماليات والتحف النفيسة، فلابد أنهم كانوا يترددون على حمامات «إيشيا Ischia» القديمة المنحوته مباشرة في الصخر والتي يعود وجودها إلى ما قبل الرومان. وللتعرف على هذه الحمامات، التي كنت أظن أنها هجرت تماماً، اتجهت إلى محطة حديثة صيفية فوق إيشيا.

● إيشيا «Ischia»:

نجد في هذه المنطقة حوالي المئة فندق وشاطئاً يغصّ بالسياح. غير أن أكثر مايدعو للتأمل هو تلك الخلجان الموحشة في منطقة «إيشيا» ثم ما يدعى: «Chiesa del Secorso»، وهي كنيسة بحرية رائعة في ساحة «إيشيا» ذات ملاط أبيض صلب وصُلبان كبيرة صنعت من الخشب الأسود.

على المنحدر الغربي يمكن للزوارق الرسو على شاطىء رملي صغير والدخول من ثم إلى الجزيرة عبر وادٍ ضيق حيث نصادف لافتة معوجة مدهونة بريشة خشنة وعليها سهم يشير إلى «Bagni Antichi».

استغرقت في الصعود ما يقارب الخمس عشرة دقيقة. وعند منعطف في ذلك الوادي بين جرفين صخريين متقاربين وجدت نفسي فجأةً محاطاً بباقة من الحسناوات الإيطاليات في لباس السباحة المسمى بكيني وعلى رؤوسهن قبعات مبرقشة. وكن يخرجن للتوّ من حجرات الحمام. وذلك الحمام عبارة عن حُجيرات محفورة في الصخر. والماء الساخن يتدفق من قلب الصخور ويصل إلى كل من هذه الحجيرات البسيطة عبر شبكة معقدة من القنوات الصغيرة.

عندئذٍ اغتنمت الفرصة وأخذت أنا أيضاً حماماً في هذه المنشأة الفريدة من نوعها في العالم. ويكفي أن ترفع ستاراً رثّاً لكي تخرج من الحجيرة وتصبح في العراء مباشرة وتحت أشعة الشمس لتأخذ حماماً شمسياً. وقد وجدت بعدها صعوبة في التعرف ثانية

على الحسناوات الإيطاليات تحت بشرة اكتسبت لوناً رمادياً مخضراً. وقد أكدت لي إحداهن أنها منذ جاءت إلى هنا نسيت كل الأوجاع من روماتيزم وغيره.

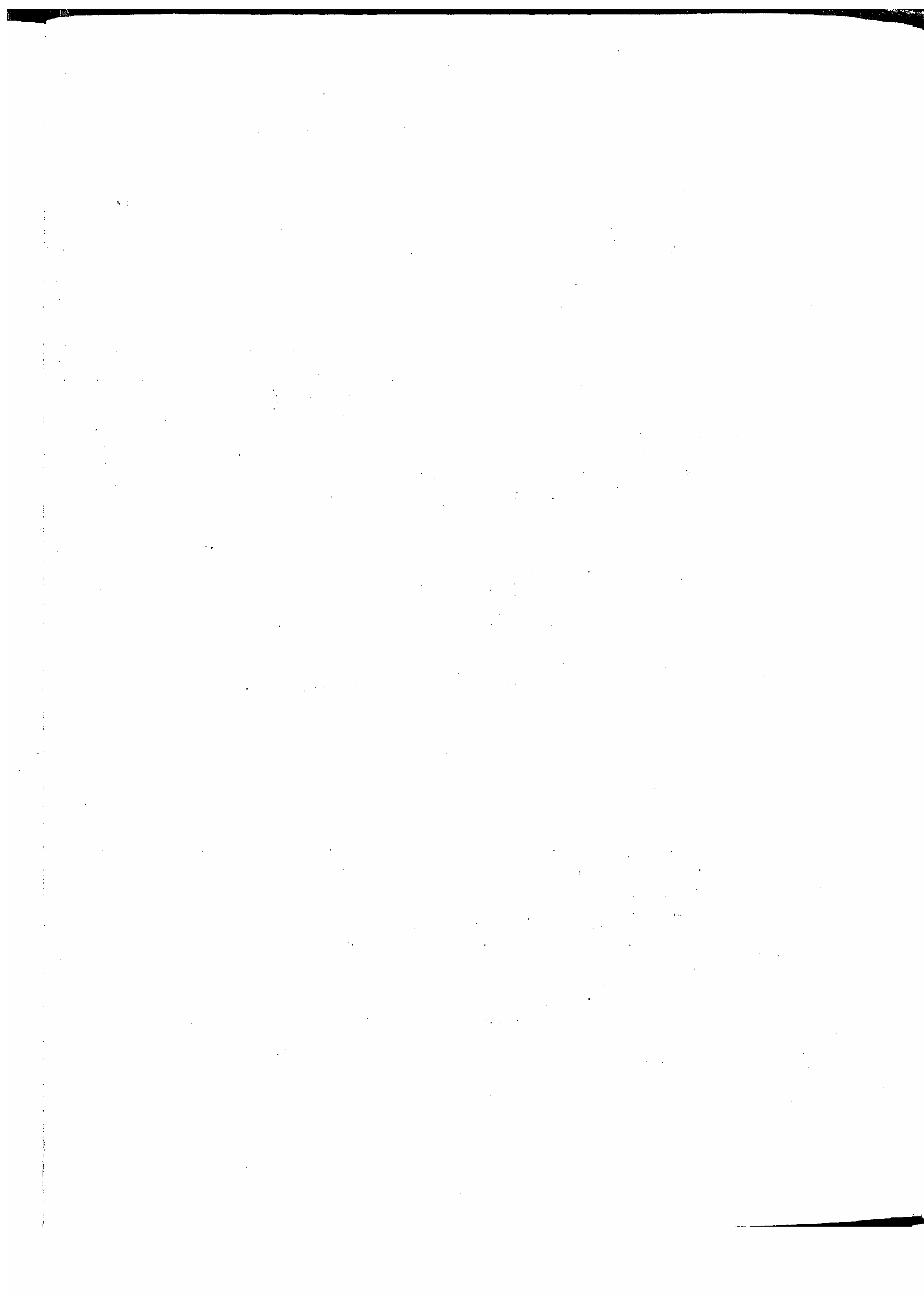
● **كابري... «Capri»:**

كانت كابري «Capri» في العصر القديم بمثابة منطقة استجمام فهي الجزيرة التي كان يقضي فيها الأشراف الرومان عطلتهم. ولابد أيضاً أن رجال الأعمال أو الوكلاء أو القادة الفينيقيين كانوا يمضون فيها بعض الوقت في ذلك الزمن.

أهم مانشاهده هنا الـ «Scala Phoenieia» أي: السلّم الفينيقي. هكذا سمي منذ ذلك الزمن. وموقعه غير بعيد عن «Marina Grande» الحالية. يمتد على منحدر ثم يتصل بالشاطىء الصخري الكبير بواسطة حبال تبعث على الدوار وينتهي في «Aracapri» في نفس المكان الذي بنى فيه «Axel Munthe» بيت القديس ميشيل «San Michele». ومن الواضح أن تسمية هذا السلّم بـ «السلّم الفينيقي» سببها إما أن يكون مقاولون ومتعهدون فينيقيون قد بنوه لمصلحة جهة أخرى، أو أنهم بنوه من أجل الوصول إلى مقر إقامة خاص بهم.

فهل كان لـ «Axel Munthe» مؤسس «سان ميشيل» ياترى أسلاف فينيقيون؟...

وعلى كل حال فإن تلك الروح التجارية الدولية الكبيرة والناجحة التي يتمتع بها سكان «كابري Capri» إن هي إلا روح فينيقية خالصة.



الفصل الثامن عشر

قادس... منشأة فينيقية

مقابل مملكة «ترشيش Tartessos» الأسطورية

«.. يقال أن الفينيقيين الأوائل الذين أتوا عن طريق البحر إلى Tartessos قد جلبوا منها مقابل الزيت والبضائع الخاصة التي كانت بحوزتهم حمولة من الفضة هي أكثر ما استطاعوا نقله منها عبر البحر... كما صهروا في الوقت ذاته من الفضة كل الأدوات التي تستعمل عادة على السفن حتى المراسي...»

(*)« Timee »

تابع الفينيقيون غزوهم السلمي للبحار متقدمين أكثر فأكثر باتجاه غروب الشمس.

من البحر التيراني (غربي إيطاليا) انطلقوا نحو الغرب منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانوا أول شعب متحضر في العالم وصل في ذلك الزمن حتى المحيط الأطلسي. هذا البحر الكبير الأكثر خضرة وهيجاناً وغموضاً من البحر الأبيض المتوسط الوديع البشوش.

والفينيقيون (كما سبق أن رأينا) هم أساس أسطورة أعمدة هرقل، - وهي مضيق جبل طارق الحالي - والتي كانوا يصلونها (اعتباراً من الساحل الفينيقي) خلال أسبوعين فقط إذا كانت الرياح مواتية. وإذا كان الطقس سيئاً خلال الرحلة كانوا يعرجون على منشآت محمية في «أوتيكا - العتيقة» في شمالي أفريقيا وربما على موانىء أخرى بسيطة في جنوبي سردينيا وفي «إيبيزا Ibiza». وسنرى أن هذه الموانىء البسيطة قد تحولت فيما بعد إلى قواعد تجارية وحربية بالغة الأهمية على يد القرطاجيين.

● تأسيس قادس:

في القرن الثاني عشر قبل الميلاد توصل الفينيقيون لتأسيس تلك القاعدة التي أعطوها اسم «قادس» على ساحل أسبانيا الغربي والتي عرفت بالأسبانية بلفظ «Cadiz» وبالفرنسية بلفظ «Cadix». وكان تأسيسها بالأصل على جزيرة صغيرة تبعد أكثر من

(*) مابين أواسط القرن الرابع ومنتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

مئة كيلومتر إلى الشمال الغربي من جبل طارق. وكانت قديماً تفصل هذه الجزيرة عن البر مياه قليلة العمق تشكل ملجأً بحرياً ممتازاً. إلا أن هذه الجزيرة تحولت بمرور الزمن إلى شبه جزيرة وصارت تتصل مع بلدة «سان فرناندو San Fernando» على الساحل بواسطة طريق معبد طوله بضعة كيلومترات.

إن أقدم الآثار الفينيقية التي عثر عليها في قادس تعود إلى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. ومن المؤكد أن هذا المركز التجاري كان حيوياً بالنسبة لصناعة وتجارة الفينيقيين. ويبدو أن ذلك الموقع اختير كنقطة مناسبة على مفترق طرق المعادن حيث كان يأتي النحاس والفضة من السلاسل الجبلية القريبة، كما وجد هناك الرصاص والقصدير الذي استُقدم من أماكن أخرى، ثم الذهب والعاج ومصدرهما كان أفريقيا.

في قادس كان الفينيقيون يصطادون سمك الطون. هذا ويُعتقد أن أماكن استخراج الملح في سان فرناندو كانت مستثمرة خلال العصر الفينيقي. والواقع أن الملح مادة ضرورية لحفظ الأسماك. وقد أكد لي عالم الآثار الأسباني «Julio Martinez Santa Ollala» شيئاً من هذا القبيل بقوله:

«في كل مكان من جنوب أسبانيا توجد ملاحات قديمة. وهناك احتمال كبير أن يكون قد وجد معمل فينيقي لحفظ الأسماك. إن الملح في العصر القديم كان له دور المستودعات المبردة في أيامنا هذه...». كما أن «Timee» الذي ورد ذكره في أول هذا الفصل يحدثنا عن ثروات قادس المعدنية ويضيف على ذلك:

«بعد أربعة أيام من الإبحار في قادس كان الفينيقيون يصطادون أسماك الطون الكبيرة التي كانت توجد في أقصى الجزر في منطقة تكثر فيها نباتات الأسل والسرجس. وقد كانت هذه الأسماك تحفظ وترسل إلى قرطاجة حيث يعاد تصديرها أو تستهلك محلياً إذ أنها كانت من السلع الغذائية المطلوبة جداً...»

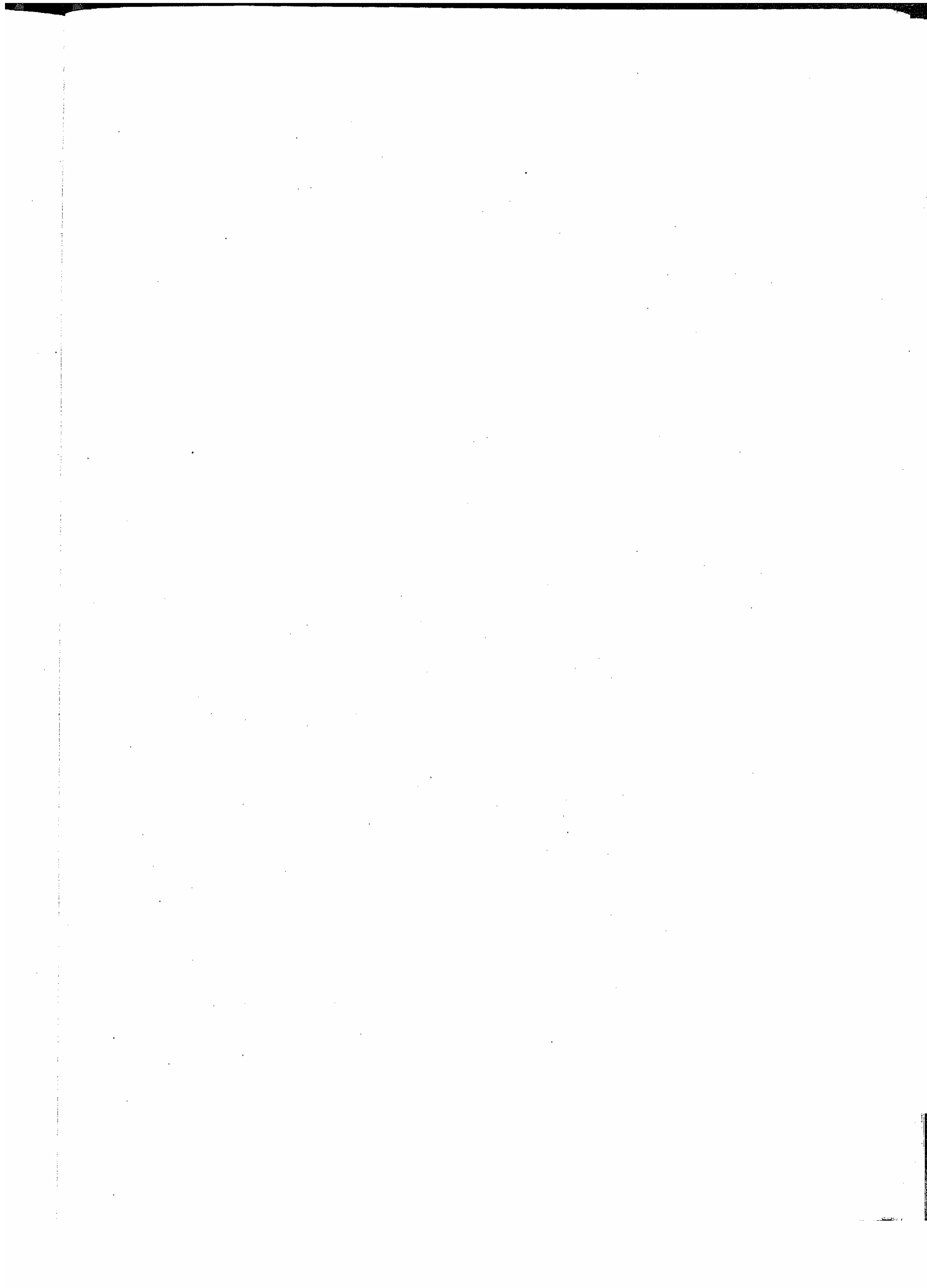
إن هذا النص بالاضافة إلى توضيحه النشاطات الفينيقية في قادس يبين لنا أن الأسماك كانت تصدر إلى قرطاجة وأن قادس التي اسسها الصوريون قد اصبحت على الأرجح شيئاً فشيئاً تابعة لقرطاجة (أو مستعمرة قرطاجية). كما أن من بين المكتشفات الأثرية مايدعو للإعتقاد أن قادس كانت لها علاقات مع صيدون. إذ عثر على أحد التوابيت الحجرية المعروفة بأنها صيدونية وقد صنع على طراز تلك التوابيت التي وجدت في صيدون، وربما في نفس الحقبة التاريخية (أي القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد). وهي معروضة حالياً في متحف باليرمو، وقد ذكرنا فيما سبق أن

هذه التوابيت ذات هيكل مصري وشكل إنساني ويمثل الغطاء فيها صورة المتوفى التي رسمت بطريقة يونانية قديمة وواقعية.

والتابوت الذي وجد في قادس يمثل عجوزاً من النبلاء يحمل قلباً فوق صدره. وغير معروف ماهو المقصود بذلك، ولكن من الممكن أن هذا القلب كان يرمز إلى شيء يخص شخص المتوفى.

احتفظت قادس عبر القرون في صميمها بالعصبية الفينيقية. وتعتبر مدينة المنشآت البحرية الأسبانية الكبيرة. وفي أحيائها الضيقة التي أنشئت على ألأرجح فوق مخطط المدينة الفينيقية القديمة لازالت تسكن عائلات قديمة من أصحاب السفن في منازل متواضعة ذات أبواب ثقيلة ومعتمة ومسمّرة بالنحاس.

ومن يتأمل كاتدرائية قادس بروعة أشكالها وتكاليفها العالية يوحي إليه ذلك بنتائج غزو أميركا الجنوبية وبتصور المغامرين الأسبان في قادس والكنوز التي جاؤوا بها من ماوراء الأطلسي.



ترشيش... Tartessos

تسلسل الأحداث العام

قبل الميلاد.

2750: نقطة انطلاق الحضارة الجديدة في شبه جزيرة إيبيريا.

2500: عصر بناء الآثار المغليثية في الغرب الأفرو أوروبي.

1200: التأسيس المفترض لمدينة ترشيش (افتراض: Schulten).

1100: تأسيس الفينيقيين لمدينة قادس.

القرن السابع: عهد «أرجنتونيوس Argantonios» ملك ترشيش.

669: بفضل «أرجنتونيوس» استعادت ترشيش استقلالها عن الصوريين.

550: رحلة هميلكون الكبير الذي أرسلته قرطاجة باتجاه الشمال إلى منابع العنبر.

بداية القرن الخامس: استيلاء قرطاجة على مملكة ترشيش.

348: استيلاء قرطاجة على مدينة ترشيش نفسها (العاصمة)

260: قرطاجة تمارس الحصار الكامل على منطقة أعمدة هرقل.

206: الغزو الروماني لكل من قادس وترشيش - نهاية السيادة الفينيقية في شبه الجزيرة الإيبيرية - تحول مملكة ترشيش الأسطورية إلى مقاطعة رومانية

195: انتقام الرومان بتدمير ترشيش بالكامل وإزالة اسمها ثم إنشاء معسكر Xeres الحربي (وصار يدعى Jerez) في مقاطعة «Turdetanie».

■ مملكة ترشيش «Tartessos»:

عندما دمرت هذه المدينة (أو المملكة) ضاعت أسرارها معها، وبقيت من ذلك مجرد تصورات عن غناها وتوقعات أنها كانت في الجهة المقابلة لجزيرة قادس الصغيرة. ولم تزل ترشيش تعتبر لغزاً بالنسبة لباحثي الآثار حيث أن ذكرها في النصوص القديمة كمصدر للثروات يوحي بأهميتها للفينيقيين، ولكن من دون أي توضيح إن كانت مملكة واسعة أو مجرد مدينة. كما يفهم من بعض هذه النصوص أن ملوكاً كباراً قد حكموها إذ أن اسم واحد منهم على الأقل ذكره الكتاب القدماء. فقد أشار هيرودوت بالذكر إلى أحد هؤلاء الملوك خلال حديثه عن رحلة الـ «فوكيين»(*) إلى ترشيش:

«كان الفوكيون أول من وصل من الإغريق إلى ترشيش، حيث دعاهم الملك أرجنتونيوس للبقاء. ولما كانوا مهددين من قبل الميديين فقد دخلوا إلى الملك يحملون هدية. فأعطاهم أرجنتونيوس الدنانير الفضية اللازمة لبناء سور كبير من الحجارة...».

ومما تجب الإشارة إليه أن هذه الرحلة كانت على الأرجح خلال زمن الانطلاقة البعيدة للفوكيين في غربي البحر المتوسط حوالي سنة 580 قبل الميلاد. وهذا يتيح لنا الاعتقاد أن عهد الملك أرجنتونيوس الذي دام أكثر من مئة عام كان ما بين 650 و 550 قبل الميلاد. كما يمكن الافتراض من خلال هذا النص أيضاً أن أرجنتونيوس عندما عامل الفوكيين باحترام ودعاهم للبقاء في مملكته ربما قصد اكتساب عناصر حليفة كي لايبقى وحيداً تجاه الفينيقيين. لكن قصة هيرودوت من جهة أخرى توضح لنا أن الـ «فوكيين» عادوا إلى بلدهم ليواجهوا الهجمات التي كانت تهددهم.

هذا وإن الأخبار المتعلقة بترشيش تستند أيضاً إلى قصة أخرى جاءت عند هيرودوت يقول فيها أن سفينة فينيقية اضطرت أن تلجأ إلى ترشيش عندما دفعتها رياح معاكسة، وأنها باعت حمولتها في ظروف استثنائية حتماً، وعند العودة إلى

(*) نسبة لمدينة «فوكايا Phokaia» إحدى المدن الايونية الشمالية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى. كانت مدينة تجارية هامة نافست الفينيقيين. واستطاع الفوكيون تأسيس بعض المستعمرات في الحوض الغربي للبحر المتوسط منها مرسيليا جنوبي فرنسا ـ المحقق ـ

«ساموس Samos» اقتطع قبطان السفينة ستة عشر بالمئة من الربح الذي حققته هذه الرحلة وصنع مزهرية عملاقة من معدن ثمين يبلغ ارتفاعها مترين وترتكز على ثلاثة تماثيل برونزية ضخمة وقدمها قرباناً للآلهة.

هذه القصص الغربية تستند بالتأكيد إلى نظريات أرادت أن ترى في ترشيش أكثر من مركز تجاري أو مملكة صغيرة (من ممالك المدن) وحاولت ولو بشكل غير مباشر تشبيهها بالـ «أتلانتيس... Atlantis»(*).

أما الشيء الذي يبدو أكثر غرابة فهو عدم العثور على أي شيء من الركام الأثري يمكن أن تكون له علاقة بتلك المملكة الأسطورية الشهيرة. هذا يدعو للتفكير في احتمال حدوث تلاطم عنيف وكبير لأمواج البحر أو زلزال عنيف تبعه انغمار المنطقة بمياه المحيط.

لقد أردت أن أضع حداً لمواصلة البحث في هذا الموضوع، فقصدت العديد من علماء الآثار وكل الذين تعرفت إليهم في هذه المنطقة وقد أظهروا حماساً واهتماماً بذلك. أدركت من خلال هذه الاتصالات أنه بعد انقضاء ستة وعشرين قرناً على زمن أرجنتونيوس كان سكان منطقة أندلوسيا هذه مهتمين كثيراً بمسألة ترشيش وبعضهم يسيطر عليه الحماس لمعرفة شيء عن هذه المسألة. لقد قدموا لي كراسات وكل ما يعتقدون أنه ملفّات سرية. وسألت في القرى فلاحين ممن يعتقدون أن لديهم أسراراً يريدون البوح بها. وتجولت برفقة مرشدين متطوعين في كل المنطقة الريفية الممتدة ما بين: «Guadalguivir» و«Jerez de la Frontera» و«Puerta de Santa - Maria» و«San Fernando». أي تجولت في كل أطراف خليج قادس الحالي.

كما صادفت أنقاضاً كثيرة وخرائب في أماكن متعددة وبالأخص جداراً هائلاً على ضفة نهر «Guadalete» الذي يصب في خليج قادس. وبعد دراسة دقيقة بدى هذا الجدار وهذه الأنقاض المجاورة وكأنها من العصر الروماني. هذا ولا يستبعد أن يكون نهر «Guadalete» قد لعب دوراً في تصريف المعادن خلال عصر ترشيش.

أدركت بعد هذه المرحلة أن البحث كان شاقاً للغاية خاصة لأن كل المنطقة الواقعة بين نهري «Guadalguivir» و«Guadalete» قد تغيرت كثيراً منذ أكثر من ألفي سنة بفعل الطمي الذي يتوضع من مياه هذين النهرين.

(*) اسم جزيرة أسطورية وصفتها الروايات القديمة بأنها كانت جزيرة كبيرة وغنية في المحيط الأطلسي وقد غارت في مياه المحيط خلال زمن غير معروف - المحقق -

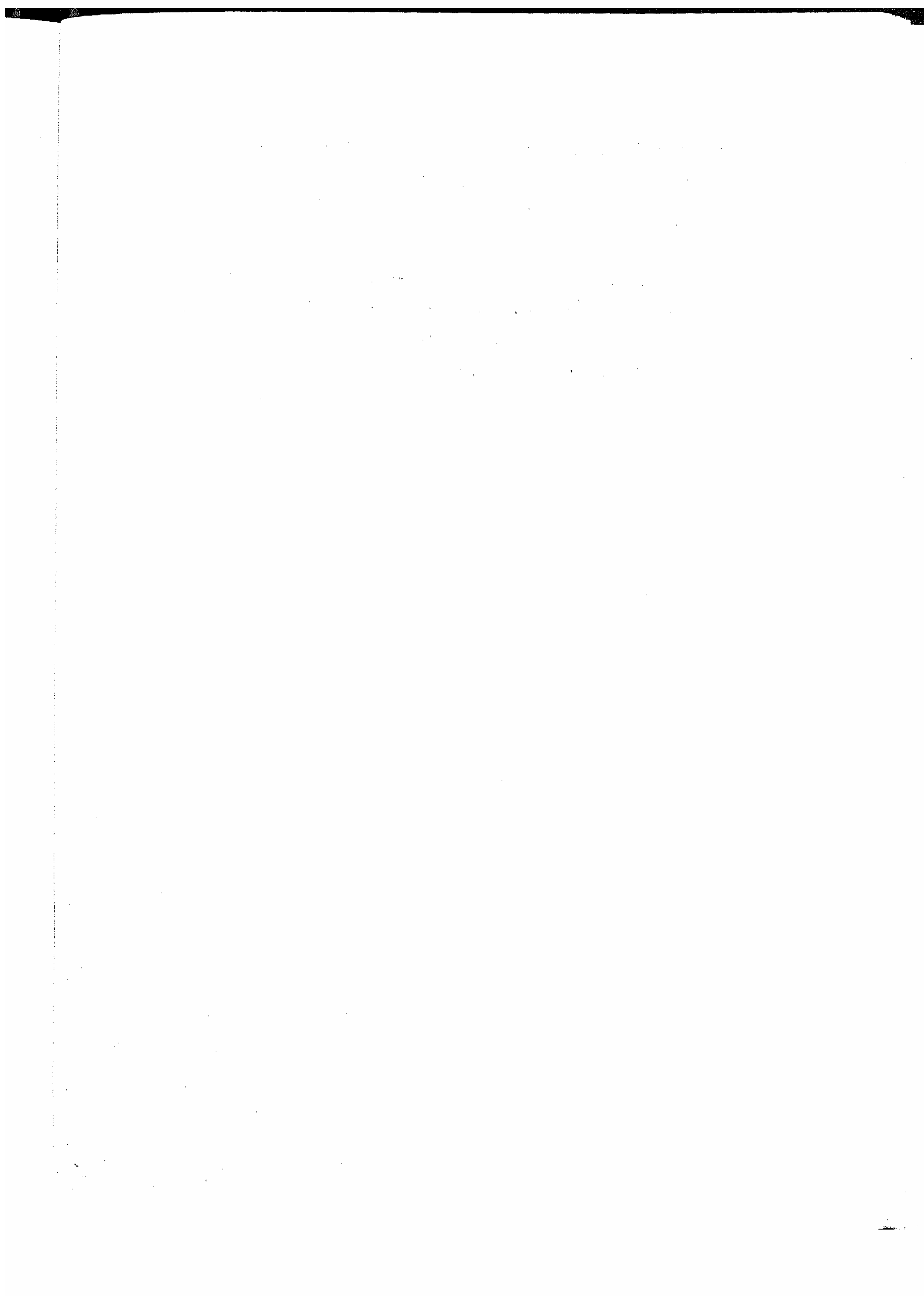
لقد طرحت في الأوساط العلمية فرضيات تحدد موقع مملكة ترشيش في نقاط مختلفة من هذا المضلع الرباعي الكبير بين المناطق الآنفة الذكر.

يعتقد صديقي «Julio Santa Ollala» بهذا الصدد أن مملكة ترشيش كانت تقع شرقاً على مسافة قصيرة من البحر. ويرجح أن تكون مدينة «Lebrija» التي تبعد حوالي 50 كيلومتراً عن مضيق قادس الحالي باتجاه «Seville» هي تلك العاصمة. أضف إلى ذلك أنه عثر في «Lebrija» على كنز مدهش مؤلف من ستة شمعدانات كبيرة وجميلة من الذهب. وقبل بضع سنوات اكتشف أيضاً في مكان قريب من هذا الموقع كنز آخر عُرف تحت اسم «كنز Carambolo»، وذلك أثناء قيام جمعية «حمائم إشبيليه» بأعمالها. واشتمل هذا الكنز على مجموعتين: تضم الأولى واقية للصدر وسوارين وثماني صفائح معدنية لحزام مفصلي، وكل ذلك من الذهب وبلغ وزنها بالاجمال كيلوغراماً واحداً. وضمت المجموعة الثانية واقية للصدر أيضاً وعقداً وثماني صفائح معدنية كتلك السابقة وهذه الحلي بمجموعها من التراث الشرقي القديم.

عدا عن ذلك عثر على كنز آخر أقل أهمية في «San Lucar». إذا وصلنا بين النقاط الثلاث لهذه الإكتشافات حصلنا على خط مستند إلى سلسلة الجبال الجنوبية الشرقية ومواز لنهر «Guadalguivir». من المؤكد إذاً أنه قد وجد في تلك النواحي مركز سكاني ازدهرت فيه أو حوله الحياة الاقتصادية والفنية. وهذه التحف الرائعة التي تقدمها هذه الأرض تدريجياً، وكأنها تسلّمها على مضض، هي من الذهب المصمت وقد صنعت بدقة بالغة. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الكنوز ماهي إلا سلع استوردتها قادس الفينيقية، لكن الزخارف التزيينية التي تحملها هذه الحلي تتعلق بفن يحمل مفهوماً خاصاً رغم طابعه الشرقي بشكل عام. ولقد بذل الباحثون جهداً كبيراً بقصد وضع تاريخ معقول لهذه الكنوز فلم يكن ذلك ممكناً إلا بشكل تقريبي، فحدّدوه بين القرنين الثالث عشر والخامس قبل الميلاد. كيف نفسر الزوال أو «التلاشي» شبه الكلي لمملكة ترشيش؟... يعتقد العالم «Pena Basurto» أن الترشيشيين ثاروا في عام 197 قبل الميلاد ضد الرومان الذين كانوا قد جعلوا من أنفسهم أسياد البلد باحتلالهم قادس وجنوب أسبانيا منذ عام 206 قبل الميلاد. وربما تكون المقاومة التي كان على راسها «Istalamio» قد سحقت في عام 195 وبالغ الرومان في تخريب المدينة المدمرة حتى أزالوا كل معالمها عن وجه الأرض وبطُل استخدام اسمها. وأقامت روما في ضواحي المدينة بعد زوالها معسكراً دعي بـ «Ceres» وصار يسمى فيما بعد «Jerez». وبالرغم

من التدمير الكلي والعمل البطيء لحركة توضّع الطمي في نهري «Guadalguivir» و«Guadalete» فقد بقيت في مكانٍ ماليس بعيداً عن معسكر «Jerez» البقايا المدفونة لمملكة غريبة أو على الأقل لمدينة لابد أنها كانت واسعة ومزدهرة كمدينة قرطاجة ومنذورةً مثلها لمصير مأساوي.

ولابد من البحث الدقيق والتنقيب بشكل متبصّر كما جرى في قرطاجة وهنا يكمن الدور الهام للأجيال الجديدة من علماء الآثار. ولابد أنهم سيجدون ذات يوم موقع ترشيش، وسيمكنهم عندئذ فقط أن يخبرونا إن كانت مملكة «أرجنتونيوس» - ترشيش - هي نفسها «أتلانتيس Atlantis» تلك الجزيرة / المملكة الغارقة أو غيرها.



الفصل التاسع عشر

بريطانيا

القصدير والفينيقيون

من غير المؤكد حتى الآن إن كان الفينيقيون خلال سعيهم وراء القصدير باتجاه الشمال قد أسسوا محطة لهم في بريطانيا.

ففي الواقع أنه ليس هناك أي اكتشاف أثري حتى الآن يساعد على إثبات الحضور الفينيقي، بالرغم من رواية قديمة جداً بهذا الصدد كان يؤكد صحتها «G. de Vaudoncourt» في القرن التاسع عشر. (ويبدو أن الباحثين في القرن العشرين صاروا أكثر تحفظاً).

وعلى كل حال نستطيع القول أنه إن كانت هناك منطقة يمكن أن يكون قد نزل فيها الفينيقيون فهي بالأحرى مضيق «Morbihan» (الناحية المسماة حالياً «Vannetais»).

من المعروف أن بعض اللغويين من القرن التاسع عشر حاولوا أن يثبتوا أن الفينيقيين كانوا في الواقع جالية من بلاد الغال، وهي جزء من «Vannes» في عصر كانت فيه مدينة «Tours» عاصمة، وحيث كان الـ «Venetes» أحد الاتحادات القبلية الأكثر نشاطاً في بلاد الغال.

ويرى هؤلاء اللغويون أن كلمة PH (E) - N (E) - C(E) هي نفس كلمة V (E) - N (E) - T (E) كما تلفظ باللهجة الإغريقية أو بالسامية والتي نجدها في كلمة «Venete». وهذا يقود إلى الإستنتاج بأن: «Venete» - «Venetien» - «Phenicien» - «Venetie» - «Phenicie» هي ألفاظ متشابهة ومتقاربة. في هذه الفرضية استبعاد لكل ما هو مخالف للصواب: كاتجاه «الفينيسيين Vannetais» نحو الشرق لتأسيس صور (التي قد تكون تحريفاً لكلمة Tours) والإبقاء على القرابات اللغوية الفقهية.

على كل حال لابد من ذكر بعض الأعمال في منطقة وجود الـ «Venetes» القدماء حول مضيق «Morbihan».

● أماكن «الحجّ»:

أول مايجدر ذكره هو الآثار المغليثية التي من أغربها في العالم تلك الغرفة الجنائزية في الجزيرة الصغيرة. وهي عبارة عن جثوة مبلطة بحجارة نقشت عليها رسوم غامضة كدوائر متحدة المركز (لانعرف إن كانت ترمز إلى شموس) ومنحنيات (لانعرف إن كانت تعبر عن أفاع أو أنهار) بالاضافة إلى أشكال سنابل وصفوف الكرنك الهائلة التي تظهر من خلال الضباب في صباحات الشتاء في السهول البريطانية.

هذا الخليط من الرموز الأثرية إن دل على شيء فهو يدل على أنه كان يوجد في الألف الثالث والألف الثاني مكان مرتفع للعبادة في هذا الموقع، إنه بمثابة محّجة حقيقية.

هذا المحجّ كان أيضاً ذا شهرة واسعة في العصر الفينيقي. ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن نصب الحجارة المغليثية الكبيرة يفترض أنه يعود إلى حوالي 2700 قبل الميلاد، وأن الفينيقيين لم يتوغلوا في المحيط الأطلسي إلا بعد خمسة عشر قرناً أو أكثر من هذا التاريخ.

من الممكن الاعتقاد أن أماكن الحج هذه، التي تعود إلى العصر الحجري، قد بقيت مقصودة حتى مابعد العصر الذي شهد ازدهارها.

إن الأمثلة على أماكن التعبد المرتفعة التي اختفت بأكملها قليلة، فإن مايحدث بالواقع هو تعاقب الاعتقادات والعبادات وتغير الكثير منها، لكن الأماكن تبقى لها صفة القدسية.

فالعبادات التي كان يمارسها الناس الذين أنشأوا الـ «منهير Menhir» ـ ذلك النصب الحجري العمودي العالي ـ رغم أنها ضعفت وتراجعت فقد بقيت معروفة حتى العهد الروماني، ولم يحدث حينذاك أي تدمير لأماكن العبادة، وكل ما هنالك أنه أدخل عليها الطابع الروماني، ومن الأمثلة على ذلك بعض النقوش الرومانية على الأحجار القائمة في بريطانيا.

ولدى ظهور الديانة المسيحية نلاحظ أنه بدلاً من محاربة المعتقدات القديمة المتعلقة بـ «حجارة المنهير» قد أبقت على بعضها كاتخاذ بعض أحجار المنهير العمودية في بعض الأماكن وتحويلها إلى أجران للماء المقدس، مثل مناطق «Bigouden».

ومن جهة أخرى فإن التقليد القديم لمواسم الحج التي كانت تقام في «Carnac» أو في «Kermado» قد بقي. إذ أنه بالقرب من هذه الأماكن في «Sainte Anne Auray» تجتمع جماهير غفيرة في كل سنة فيما يدعى «مكان المغفرة». وإن استمرار هذه الظاهرة في المكان نفسه يجعلنا نستنتج أن حشوداً كبيرة من المؤمنين كانت تجتمع على ضفاف خليج «Morbihan» في العصر الذي يمكن أن يكون الفينيقيون قد جاؤوا فيه إلى هذه المنطقة.

والواقع أنه ليس من الخطل أن نعتقد أن البحارة الفينيقيين عصر استكشافاتهم البحرية في العصر القديم مابين القرنين الثاني عشر والخامس قبل الميلاد قد جاؤوا إلى هذه الأنحاء من أجل تجنب فترة كان فيها الجو سيئاً وللإفادة من مستوى الماء المحمي جيداً، حيث كان بمقدورهم إصلاح السفن وإنجاز صفقات تجارية مع العديد من الحجاج. وهكذا كانت أماكن الحج تجتذب التجار والبحارة.

● **بحّارة بواسل:**

اتصف الـ «فينيسيّون Venetes» بمهارة كبيرة في الإبحار بالسفن الشراعية وبطبيعتهم المسالمة والمبطنة أيضاً بشجاعة كبيرةفي مقاومة الغزاة. وهذه كلها صفات مشتركة مع الفينيقيين.

وقد أفصح قيصر عن هذا الرأي في كتابه الثالث، المذكرات التاريخية عن الحرب الغاليّة بما معناه:

«إن هذا الشعب ـ الفينيسيين ـ هو أقوى شعب في كل هذا الساحل. فهو يملك أكبر عدد من السفن التي كان يستغلها للتجارة مع بريطانيا. وهو يتفوق على باقي الشعوب بعلمه وتجربته في الإبحار. كما يحتل الموانىء القليلة الموجودة على هذا البحر الهائج المخيف. ويحصل على الجزية من كل الذين يبحرون في هذه المياه...»

ثم يضيف بهذا الصدد:

«... كان عندهم دائماً أمل كبير، لاسيما وأن طبيعة البلد كانت تلهمهم الكثير من الثقة. وكانوا يعرفون أن الطرقات البرية قد تفادت مدّ البحر بواسطة الخلجان. إن كل مدن هذا الساحل تقريباً كانت تقع في أطراف ألسنة الأراضي الساحلية (الرؤوس) وفوق بروزات صخرية ولم يكن لها منافذ لا

للمشاة عندما يكون البحر عالياً (الأمر الذي يحدث مرتين كل أربع وعشرين ساعة) ولا حتى للسفن في حالة الجزر لأنها تصطدم بالقاع. عندما كان الفينيسيون يحسون بالخطر والقنوط كانوا يجمعون كل مالديهم من سفن وينقلون إليها كل ثرواتهم ثم ينسحبون إلى الأماكن المجاورة...»

هنا تماماً يكمن فن المقاومة الذي كان يمارس في صور وفي صيدون. بعد ذلك جاء عند قيصر وصف دقيق للغاية عن السفن الفينيسية القوية التي تتشابه حتى ليلتبس الأمر مع سفن «Sinagos» التي مازال يمكننا رؤيتها في مضيق «Morbihan».

ففي ذلك يقول قيصر ما معناه:

«... لقد صُنعت سفن الأعداء - الفينيسيين - أنفسهم بالطريقة التالية: غاطسها مسطح أكثر بكثير من غاطس سفننا بحيث لم يكونوا يخشون أماكن المياه الضحلة وحالات الجزر. وكانت جآجئها مرتفعة جداً وكواثلها أيضاً بشكل ملائم لقوة الأمواج والعواصف. كانت السفن بأكملها قد صنعت من خشب البلوط لكي تتحمل أية صدمة أو أعباء. وتبلغ ثخانة العوارض قدماً واحدة وهي معلقة بواسطة أوتاد حديدية بحجم الإبهام.

أما المراسي فهي مثبتة بواسطة سلاسل حديدية بدلاً من الحبال ولها جلود بدلاً من الأشرعة وقطع جلدية رفيعة وطرية إذ كان ينقصها الكتان أو أنهم لم يعرفوا استخدامه، وإن يكن من المحتمل جداً أنهم اعتقدوا بأنه ليس من السهل قيادة سفن ثقيلة كهذه بواسطة أشرعتنا عبر زوابع البحر ورياحه العاصفة. وعندما كان أسطولنا يواجه سفناً كهذه كانت ميزته الوحيدة إمكانية تجاوزها بسرعة ومرونة وكل ما سوى ذلك كان لصالح سفن الأعداء التي تعتبر موافقة ومهيأة بشكل أفضل لطبيعة هذا البحر وقوة عواصفه. والواقع أن سفننا بقواطعها لم يكن لها أي تأثير عليها إذ كانت من المتانة وارتفاع الهيكل بحيث لا تتمكن منها سهام الرماة وفي الوقت نفسه كان من المتعذر اصطيادها. أضف إلى ذلك أنه إذا هبت عاصفة كانت تلك السفن تستسلم لها إذ كانت قوة احتمالها كبيرة. وكان يمكنها أن ترسو بسلام في المياه الضحلة. وحتى في أوقات الجزر لم تكن تخشى الصخور أو غيرها. في الوقت الذي تكون فيه الأخطار المحيطة بسفننا مرعبة...».

لقد أتى يوليوس قيصر بنفسه كي يربح بالصدفة، وبعد معارك طويلة، معركة

«Morbihan» البحرية التي وضعت عملياً نهاية للحروب الغالية. كانت الرياح تهب فجأة، والهدوء يخيم، وكان الأسطول الفينيسي (البندقي) ساكناً وقوياً يشرف بصواريه على صدور السفن الرومانية.

إن الوصف الذي دوّنه يوليوس قيصر للسفن البندقية (الفينيسية) يتطابق مع وصف السفن الفينيقية المعروف من مصادر أخرى.

بامكاننا إذاً أن نتخيل وجود «ترابط»...

● **القصدير:**

إن أكثر مادة أولية كانت تهم الفينيقيين ويشغلهم البحث عنها هي القصدير. لقد ثبت وجود خامات القصدير بالقرب من «Vannes». ولكن من المرجح أن مناجمه اليوم لم تعد سهلة الاستثمار كما كانت سابقاً وذلك بسبب تراجع مستوى السواحل.

يوجد القصدير في باطن الأرض في أماكن مختلفة وخاصة في «Penestin» حيث تتسرب خاماته مع المواد المختلطة معها من جوف الأرض هناك إلى قاع البحر عبر مصب «Vilaine». وعلى مقربة من ذلك المكان وبين رمال الشاطىء الذهبي لاتزال توجد جزيئات من القصدير أتت بها الأمواج.

وفي سجلاّت مصلحة المناجم في تلك الولاية نجد عدداً من التصاريح القانونية للبحث عن القصدير في هذه المنطقة. ولكن من غير المؤكد وجود كميات وافرة بالفعل في «Penestin». وقد يكون هناك احتياطي من الخامات في جهات أخرى مجاورة. إذ كان يوجد منجم هام في «Creuse» عدا عن منجم استثمر منذ أزمنة قديمة وحتى سنة 1914.

كما نشاهد حفراً واسعة ردمت جزئياً وقنوات عميقة بقيت على حالها حتى اليوم رغم عوامل الزمن ونمو النباتات. وقد أجريت تحريات أثرية هامة في هذه الأماكن استطعنا من خلالها تكوين فكرة عن المراحل التي كان يمر بها إنتاج القصدير.

1 - يتم غسل الخامات (الركاز) عند الشاطىء باستخدام أحواض للحفظ.

2 - يتم سحق الخامات بواسطة الهاون والمدقات.

من الجدير بالملاحظة أنه حتى عام 1859 كان يوجد أحد قبور ما قبل التاريخ

(المسمى دلمن) فوق أكمة مشرفة على المنجم بأكمله، لكن هذا النصب اختفى بمرور الزمن.

إن نقل خامات القصدير إلى فينيسيا (البندقية) لم يكن يثير أية مشكلة حيث أن طرق المواصلات البرية كانت سهلة وعريضة.

مما أصبح معروفاً حتى الآن أن مضيق «Morbihan» لم يكن في العصر القديم منبعاً هاماً للقصدير ولكنه كان على الأقل مكاناً للتخزين. هناك شيء آخر يعتبره بعض علماء الآثار دليلاً على الصلة العميقة بين «فينيسيا» وتجارة القصدير، ألا وهو:

● **حجارة الـ «Callais»:**

هناك مئات عديدة من قطع الحلي المصنوعةمن هذه الحجارة وجدت بالقرب من سواحل خليج «Morbihan» وخاصة في القبور المغليثية. ولقد فتشت عن تعريف دقيق ومناسب لهذه الحجارة الثمينة التي تفيد في صناعة العقود والأقراط فوجدت أن أجمل وصف هو الذي دوّنه عالم الطبيعيات «بلينيوس... **Plinius**» كما يلي:

«... إن حجارة الـ «Callais» ذات لون أخضر شاحب وسماكة ملحوظة لكنها مليئة بالثقوب والأوساخ... تنحت هذه الحجارة لإعطائها الشكل المناسب. وهي سهلة الكسر.. وأجملها لوناً هي تلك التي تكون بلون الزمرّد. وبقدر ما تكون جميلة يكون فقدانها للونها سهلاً بملامسة الزيت أو العطور السائلة والخمور.. وبالعكس فإن تلك الأقل جمالاً تحافظ على لونها بصورة أفضل..»

أما عالم الآثار الكبير «Louis Siret» فيعتقد أن حلي حجارة الـ «Callais» التي نجدها في أوربا الغربية وتلك التي توجد في بريطانيا وبأعداد لا تحصى، وأحجار أخرى وجدت في الآثار المغليثية في أسبانيا، لايمكن أن تكون قد جاءت من الشرق، وهي مرتبطة باستثمار القصدير، إذ أن هذه الحجارة كانت توجد على الأرجح كمادة خام في طبقات الأرض الحاوية على القصدير.

ويعتقد آثاريون آخرون أن منبع حجارة الـ «Callais» كان منطقة «Morbihan» نفسها، وأن الطبقات التي تحويها لم يتم التعرف عليها بعد. ومع ذلك فإن وجود هذه الحجارة في موربيهان وفي أسبانيا إنما يثبت مرة أخرى أنه كانت هناك مبادلات عبر

الطريق البحري حتى قبل الفينيقيين بين هاتين المنطقتين الأطلسيتين. من الصعب أن نتصور أن هؤلاء الرواد لم يستفيدوا لدى إقامتهم في قادس من الطرق البحرية المفتوحة والمعروفة منذ عهد بعيد.

هناك إذاً مجموعة من الإفتراضات ربما يكون بعضها مطابقاً تماماً لفكرة وجود علاقات (أو قرابة) بين الفينيقيين والفينيسيين (البنادقة). ولكن بانتظار أن تجد الأجيال الجديدة من الباحثين الدلائل الملموسة على التواجد الفينيقي في بريطانيا فإني أرى من الحكمة أن أتبنى أفكار العالم الكبير «Louis Siret» الذي كتب:

«يمكننا التسليم بأن الفينيقيين قد استثمروا الساحل الغربي لأوربا بمساعدة السفن والبحارة الإيبيريين..»

وبذلك نصل إلى مبدأ المساعدات البحرية وملاحة المساحلات الإيبيرية الفينيسية التي أمنت بشكل كلي أو جزئي نقل القصدير حتى قادس، ذلك المركز الكبير لحشد البضائع الفينيقية.

قد يكون إذاً خليج «Morbihan» مكاناً آخر للتجميع، حيث يفترض أنه عدا عن القصدير المحلي كان يتجمع القصدير الوارد من «Montebras» ومن مناجم «Cornouailles» البريطانية المشهورة منذ زمن قديم جداً.

لقد كان التواجد المباشر أو الذي تم بواسطة وكلاء كلفهم القادمون من الشرق في البدء حلماً شرقياً ظل يراود نفوس الفينيسيين زمناً طويلاً حتى بعد حملة يوليوس قيصر. وفي الواقع يروي التاريخ أنه عندما اجتاحت «Attila» بلاد الغال في عام 452 هاجر عدد كبير من الفينيسيين من موطنهم، وربما كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في اتجاه هجرتهم، فقادتهم مسيرتهم الطويلة نحو الشرق والجنوب الغربي من أوربا إلى أن جاء اليوم الذي حاصرهم فيه اللومبارديون في سهل الـ «Po» فلم يجدوا حينذاك خياراً آخر سوى اللجوء إلى جزر البحيرة الشاطئية التي تقع في أقصى البحر الأدرياتي.

● **وماذا عن السفينة «فينيسيا»؟..**

لقد بذل الفينيسيون جهوداً كبيرة حتى صنعوا «سفينة ذات مرساة حملت اسمهم «Venise» زمناً طويلاً جداً.

في أقل من قرنين بنى أحفاد الفينيسيين «صيدون» جديدة أو «صور» جديدة - البندقية - ونجحوا في التخلص من الامبراطورية البيزنطية وتشكيل حكومة مستقلة. وقد اتخذ الرؤساء المنتخبون منهم لقب «القاضي الأول» - doge -.

ومن الجدير بالذكر أن القضاة اتخذوا كزينة للرأس تدل على العظمة تلك القلنسوة المثنية إلى الأمام والشبيهة بالقلنسوة الفينيقية. فهل كان هذا التشبه ياترى بمحض الصدفة؟...

الفصل العشرون
الفينيقيون وإنكلترا

في آخر هذه الرحلة البحرية الطويلة وبعدما فكرت ملياً بموضوع القصدير «الهدف الكبير للفينيقيين» دفعني إحساس معين للذهاب إلى إنكلترا. على الرغم من أن العلماء البريطانيين يقولون جازمين:

ـ ليس هناك من دليل أثري على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا العظمى ـ لكن؟...

هم لا يقولون بهذا الصدد: «نعم... لكن...» بل يقولون: «لا... لكن...»

● **النصوص:**

على الرغم مما يقوله العلماء البريطانيون توجد بالواقع نصوص صريحة بهذا الصدد للكتاب القدماء.

يؤكد سترابون على العلاقات التجارية قائلاً (في الجزء III ص 176):

«كان فينيقيو قادس يتبادلون التجارة مع الـ ـ Cassiterides ـ». ونعني عموماً بتسمية «Cassiterides» مجموعة الجزر الجنوبية الغربية من إنكلترا وبتعبير آخر مجموعة جزر «سيللي.. Scilly» التي تسمى بالعامية الفرنسية «Sorlingues».

وأما تسمية «Cassiterides» نفسها فقد اشتقت مباشرة من الكلمة التي تعني «ركاز أو فّلزات القصدير»(*). ومازال المختصون بعلم المعادن في أيامنا هذه يطلقون اسم Cassiterides على كتل الفلز الحاوية على القصدير.

أما الشاعر اللاتيني «أفيينوس Avienus» الذي تأثر بالرواية المفقودة عن مسافر من مرسيليا من القرن السادس قبل الميلاد، فقد صرح في كتاب الـ «Ora maritima» أن الترشيشيين والقرطاجيين كانوا يتاجرون باتجاه الشمال على بعد يساوي البعد عن «Ostreymnides». ومن المعروف أن الـ «Ostreymnides» تنطبق على الجزر المختلفة في بريطانيا وفي «Finistere» وتعني هذه الكلمة باليونانية جزر المحار. وقبيل العصر

(*) أي من اللفظة اليونانية «Kassiteros». في حين كانت في سوريا عموماً تستخدم لفظة «قسطيطيريون» بالآرامية وربما بالكنعانية بشكل مشابه ـ المحقق ـ

المسيحي كان ديودور الصقلي، الذي عاصر أوغسطس يلمّ بالموضوع بشكل أفضل إذ يقول (V ص 2):

«إن سكان هذه الذروة من بريطانيا[1] التي تسمى - Belerion -[2] جديرون بالتقدير لحسن ضيافتهم، وأيضاً بسبب علاقاتهم مع التجار الغرباء ولطريقة حياتهم المتحضرة. إن هؤلاء السكان يستخرجون القصدير بمهارة فائقة من الأرض التي يحرثونها. والأرض تكون صخرية لكنها تحوي في عروتها الترابية على الركاز الذي يستخرج منها مسحوقاً نقياً بعد ذلك تتم تعبئته في قوالب. ثم يأخذون هذه القوالب إلى جزيرة متصلة ببريطانيا تسمى «Iktis»، ذلك لأن المسافة التي تفصلها عن الساحل تجف من الماء في وقت الجزر الأقصى. وهكذا بامكانهم أن يحضروا إلى هذا المكان كميات كبيرة من القصدير محملة على عربات نقل صغيرة...».

وبالحقيقة كان يجب التوجه إلى «Cornouailles» والتحقق على أرض الواقع من هذه الأمكنة.

● **الفينيقيون في مدينة «لوندر Londres»:**

بقي لي إذاً أن أجد في مدينة لوندر الشهيرة دعائم قوية بالقرب من P.D.G جديرة بأن تحمل بحثي محمل الجد وتقودني نحو الأرض الغنية بالقصدير، وأيضاً نحو منجم فعّال.

وجدت هناك استقبالاً في غاية اللطف. ولمست في الواقع أن فكرة السعي وراء القصدير الفينيقي في القرن العشرين لم تبدُ لأحد غريبة ولا مستهجنة، إنها فكرة وحسْب. كما قيل لي بأنه في القاعة الكبيرة لـ «Royal Exchange» كانت توجد لوحة هامة بالنسبة للبحث الذي أقوم به. وهذه اللوحة التي تعتبر تصوراً رومنسياً كان قد قام برسمها فنان إنكليزي من القرن التاسع عشر. وتمثل بعض الفينيقيين يرتدون أفخر الثياب وهم ينزلون من السفينة مع بضائعهم في وسط الانكليز شبه المتوحشين والذين يرتدون جلود الحيوانات.

وحيث وجد فينيقيون في قلب مدينة لوندر وجدت أيضاً المهارة.

وبعد يومين وجدت نفسي في أقصى شبه جزيرة «Cornouailles» مقابل «جبل

(1) يجب أن نفهم هنا من كلمة «Bretagne» بريطانيا - أو بعبارة أخرى: - بريطانيا العظمى -.

(2) تتطابق هذه المنطقة مع الحد الأقصى من شبه جزيرة «Cornouailles».

القدّيس ميخائيل «St. Michael's Mount» الذي يماثل «Mont Saint - Michel» الموجود في فرنسا، لكنه ـ أقل عظمةً ـ على حد تعبير صديق بريطاني.

يبدو شبه مؤكد أن هذه المنطقة التي تصبح جزيرة عند أقصى المدّ وتعود شبه جزيرة عند أقصى الجزر، هي نفسها جزيرة «Iktis» التي تحدث عنها ديودور الصقلي (في النص الآنف الذكر). وعلى كل حال فقد بلغنا بذلك جنة الباحثين عن القصدير.

إن كل السكان في الطرف الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» لديهم انطباع بأن تحت أقدامهم كنزاً معروفاً منذ أقدم العصور.

في كل مكان تقريباً نجد حفراً قديمة وآثاراً لمسابك أيضاً قديمة ومازالت تنتصب مداخن لا تحصى لمناجم مهجورة.

بالواقع كان يوجد في شبه جزيرة «Cornouailles» حوالي عام 1850 ميلادي حوالي المئة من المناجم تعج بالعمل والنشاط، وكان يعمل فيها إجمالاً خمسون ألفاً من العمال يديرونها بطريقة نصف آلية بواسطة البخار الذي كان اختراعاً حديثاً حينذاك. وبين عامي 1860 و 1870 أي خلال عقد واحد من الزمن سبب اكتشاف مناجم للقصدير في أميركا الجنوبية هزيمة كل هذه المناجم تقريباً.

● منجم حديث للقصدير:

من كل تلك المناجم المذكورة آنفاً لم يبق سوى منجم «Geevor» في «Saint - Just» الذي يبعد بضعة كيلومترات عن «Penzance»[1]. أردت أن أرى وأعرف كل شيء في منجم «Geevor» هذا الذي جُددت تجهيزاته. وقد قيل لي أن تكاليف هذا التجديد التي أضيفت إلى الاستثمارات السابقة قد بلغت 5 ملايين جنيه استرليني. وعلمت أن إنتاج مقدار 60 ـ 65 طناً من القصدير يتطلب 6000 طناً من الفلزات الخام التي تسحق وتغسل بالتتابع (باستهلاك 70 طناً من الماء في الدقيقة) ثم تسحب وتغربل وتغسل من جديد وتصفىّ، وأخيراً توضع في أكياس يحوي الواحد منها 45 كيلوغراماً بشكل بودرة سوداء يساوي الكيلوغرام منها 21 شلن. ثم ترسل إلى السبّاك الذي يرسلها فيما بعد إلى المصنع.

من هنا يتضح أن أسعار مادة القصدير باهظة.

---

(1) تقع Penzance في أقصى الجنوب من Cornouailles. وهي في نفس الوقت ميناء صغير ومحطة أخيرة لخط السكك الحديدية البريطانية.

وإكراماً لذكرى الفينيقيين أهداني مدير المنجم وعاءً صغيراً مملوءاً ببودرة القصدير.

في العصر القديم كان القصدير مطلوباً أكثر من الذهب، حيث كان يدخل في صناعة البرونز. وهو يدخل اليوم في تركيب الكثير من السبائك المعدنية الحديثة التي تستخدم في صناعة اللوازم المنزلية ولوازم البناء. هذا وان مما ساعد على استمرار استخراج وتجارة القصدير في الزمن الحالي هو الأساليب الحديثة التي تختلف كلياً عن الطرق القديمة.

● **عند منابع القصدير القديمة:**

كانت صناعة القصدير مزدهرة في شبه جزيرة «Cornouailles» في الألف الثاني قبل الميلاد. وللحصول عليه كان يتم الكشط على منحدر الشواطىء الصخرية. أما تقنية حفر آبار المناجم فلم تظهر إلا فيما بعد. كانت قطع الفلز تسحق مباشرة على الصخر فوق مساحات تعمّقت بمرور الزمن تحت تأثير قوة ضربات المدقات ونتجت عن ذلك أحواض كثيرة لاحظت أنها متصلة تقريباً ببعضها البعض بواسطة جداول صغيرة.

فوق الهضاب المشرفة على الساحل توجد أنقاض قديمة يطلقون عليها تسمية «Castles». ولكنها بالواقع ليست قلاعاً وإنما مجرد أطلال لمسابك قديمة كان القصدير فيها يصب في قوالب. وعلى مقربة من هذه الأنقاض وجدت بعض السبائك المطمورة، التي يمكن أن يتطابق شكلها مع تلك القوالب التي تحدث عنها ديودور الصقلي. كما عثر في تلك الأنحاء على بعض القطع النقدية، واحدة منها نوميدية من القرن الثاني قبل الميلاد، وأخرى قبرصية من القرن الأول قبل الميلاد والكثير منها أصله من بلاد الغال، وعثر كذلك على ثور برونزي صغير، ساد الاعتقاد طويلاً بأنه عمل فينيقي، أما في اعتقادي فهو عمل إيبيري من عصر متأخر.

عدا عن ذلك تم اكتشاف غريب من نوعه في جثوة (مدفن) فوق هضبة صخرية مواجهة لجزر «سيللي Scilly» القريبة. إذ عثر في هذا المدفن على بعض أدوات الزينة المصنوعة من الخزف المزخرف الأزرق والأخضر والأسمر، وهو الذي عرف من حيث مادته وشكله في مصر خلال عهد الأسرة السابعة عشرة، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بوجود علاقات ومبادلات بين «Cornouailles» وبلدان شرقي المتوسط منذ زمن مبكر.

● جزر سيللي «Scilly»:

بعد كل ماتقدم تبقى مسألة يجب حلّها: لماذا يتحدث الكتاب القدماء عن جزر «Cassiterides» بينما يوجد القصدير في «Cornouailles» وليس في جزر «Scilly»؟...

لقد بحثتُ عبثاً في هذه الجزر عن حفريات قديمة أو حديثة. ربما يوجد آثار من البودرة أو ذرات القصدير في رمال بعض خلجان هذه الجزر الصغيرة التي يبلغ عددها مائة وأربعين جزيرة. وهي كلها رائعة الجمال لكنها مهجورة ومؤثرة، وأربع منها فقط مأهولة بالسكان.

إذا صحّ أن الفينيقيين قد وصلوا فعلاً حتى هذه الأماكن ـ وهو أمر مرجّح ـ فلابد أنهم قد استفادوا من هذه الجزر الخالية في تخزين بضائعهم تبعاً للتقليد الفينيقي في التجارة.

إن تسمية «Cassiterides» كانت ولابد تشمل بلا تمييز مجموعة مناطق المحيط الأطلسي الشمالية حيث كان يوجد القصدير قبل العصر الروماني. وبالإضافة إلى ذلك فإن جزر «سيللي Scilly» والرأس الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» كانت تعتبر أماكن للتعبد ويُنظر إليها كأجزاء صغيرة من أرض مباركة حيث يرجح أن السكان فيها كانوا متقدمين كثيراً على برابرة القارّة.

ويتحدث «Pomponius Mela»(*) عن جزيرة منها كانت توجد فيها تسع عذراوات متميزات بسلطة سحرية على الرياح والبحار.

أما «Demetrios»(**) من جهته فلم يكن يرى في جزر «Scilly» سوى بعض السكان القلائل الذين كانوا يشتهرون بقداسة كبيرة.

وأما بالنسبة للكلتيين في إيرلندا القديمة فكانت جزر Scilly تعتبر بمثابة المكان الذي وُجد فيه الأبطال والخلود وكل أنواع الملذات. إن هذه القصص التي يرويها الرحالة والمؤرخون وتلك الأساطير لتحرض الخيال أكثر إذا ما تذكرناها لدى تجولنا في بقع الأرض الموحشة التي تشرف على الجروف الصخرية لجزر «Scilly». هناك توجد في كل مكان ذكرى لماضٍ غامض تتمثل في جثوات لاتحصى، وهي شكل من أشكال

(*) جغرافي روماني أصله من أسبانيا، عاش في القرن الأول الميلادي، وضع كتاباً في وصف البلدان معظمه عن المناطق الساحلية.

(**): من القرن الرابع قبل الميلاد. كان رجل دولة في أثينا وخطيباً وفيلسوفاً ـ المحقق ـ

القبب الترابية محمولة بواسطة بلاطات حجرية منظمة بشكل تاج. والمرجح أن هذه الجزر كانت بمثابة الأماكن المرتفعة للعبادات القديمة، أي بمثابة «بانتيون» حيث كانوا يدفنون أصحاب المراتب الدينية العليا والشخصيات الملكية.

وهذه الحجرات الجنائزية ترتبط بالنموذج الذي عُرف في إيرلندا أكثر مما ترتبط بطراز الآثار المغليثية البريطانية. أما تاريخها فيقدر بحوالي 2000 قبل الميلاد.

ومن الواضح أن هذه الجزر كان مصيرها الإنحطاط في فترة مابعد العصر المغليثي، كما هو الحال في بريطانيا. وهذا يكفي لتفسير عدم وجود آثار تذكر. إذ أنه لم يبق بالفعل سوى جثوات المدافن وبقايا أثرية بسيطة من أماكن العبادة في المواقع المرتفعة، وهذا ما يفسر التفوق الظاهر للموتى على الأحياء في تلك المعتقدات.

تتمتع جزر «سيللي Scilly» بنوع من الرهبة المسيطرة والجمال المجرد يحملان على التأمل الصوفي. وقد أكسب ذلك هذه الأماكن على مر القرون شهرة دينية.

في جزيرة «Sainte - Marie» المشرفة على البحر الهائج توجد مجموعة من الأنقاض الضخمة تدعى «قصر العمالقة» منشأها يلفّه الغموض، تضفي على المحيط شيئاً من الرهبة والأسى، وليس بعيداً عن هذه الأنقاض توجد أسطحة دائرية كانت تدعى باللغة الكلتية القديمة «Sulleh» بمعنى: ـ الصخور العالية المكرسة للشمس ـ وهذه التسمية هي التي تم تحريفها في الإنكليزية إلى لفظة «Scilly» الحالية.

أما هذه الأسطحة الدائرية (أو الشمسية) التي يرجح أنها كانت محاطة بأحجار كبيرة منتصبة، فهي تتفق ببعض الغرابة مع الوصف الذي جاء عند ديودور الصقلي في حديثه عن جزيرة تقع شمالاً في المناطق التي كان يسكنها الكلتيون، بالعبارات التالية:

«... كانت مكرسة لإله كان يتحدث غالباً إلى أتباعه. وكان يوجد سطح دائري كبير ومعبد بشكل دائري حيث كان الكهنة ينشدون مدائح الإله...».

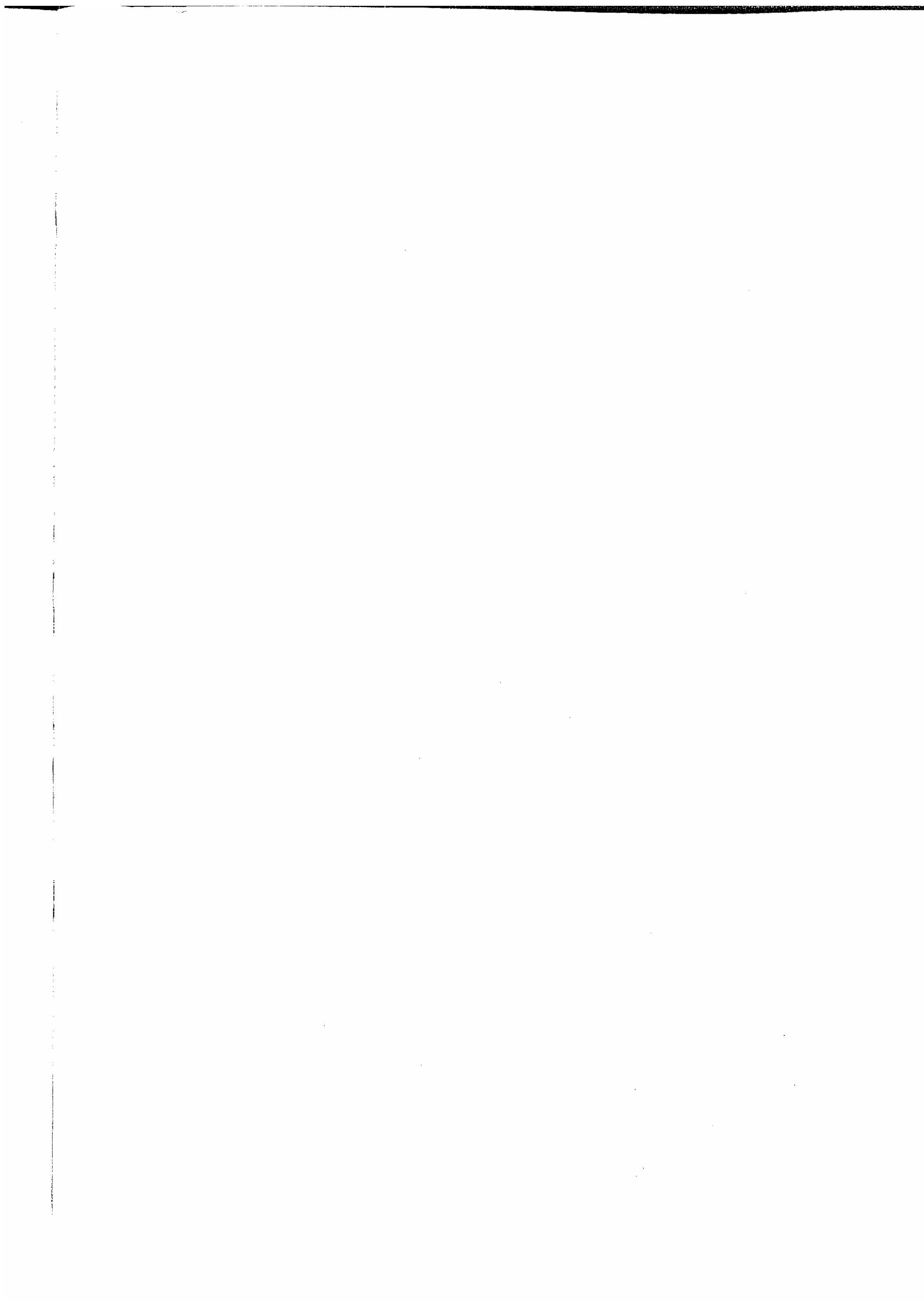
إن ماض كهذا، كثرت فيه الإعتقادات الخرافية والمقابر الكبيرة المحاطة بالأسرار والغموض والحكايات الخرافية الدينية، يفسر لماذا بقي سكان جزر «سيللي Scilly» بشكل خاص منغلقين وصوفيين وخرافيين بشكل مخيف.

كل أشكال الأساطير والطقوس الغريبة تحيط بالأزهار ذات اللون الأصفر وأزهار الربيع وأزهار النرجس، التي تصنع منها حتى اليوم أدوية ذات خواص ناجعة، ولكي تكون لهذه الأدوية الفعالية الكاملة لابد أن تقطف هذه الأزهار عندما يكون القمر بدراً فقط. فإن أرادوا مثلاً استخلاص مادة ضد السعال فيجب هشم ساق الأزهار ببرمها

نحو الأعلى، أما إذا أرادوا الحصول على مادة لعلاج الجروح وجب عندها برم ساق الأزهار نحو الأسفل. هناك أيضاً مشروبات للحُب، وهي نوع من نبيذ العسل يحضر في المزارع، وهو معروف أيضاً بين المشروبات الروحية التي تحضر صناعياً. وربما تفسر لنا شهرة هذا المشروب لماذا غدت جزر «سيللي» الناحية المفضلة للكثير من رحلات الأعراس ـ الشرعية أو غيرها ـ حيث تكثر الخلجان الموحشة والأيكات الجذابة وبيوت الصيادين القديمة التي حُولت إلى فنادق صغيرة.

هذا الفردوس الصغير الذي نصل إليه من «Penzance» خلال عشرين دقيقة بطائرة الهليكوبتر كان المكان المفضل لرئيس الوزراء (ويلسون» حيث كان يسكن في منزل ريفي متواضع.

بعد كل ماسبق، هل نستطيع في نهاية المطاف أن نثبت أن الفينيقيين قد وصلوا إلى جزر «Cassiterides» ـ Scilly ـ لاستثمار القصدير؟... في اعتقادي أن الفينيقيين في جميع الأحوال لم يستثمروا بأنفسهم المناجم وأنهم في أغلب الأحيان لم يكونوا يشترون الركاز مباشرة من هناك. بل الأرجح أن هذه المادة كانت تنقل من بريطانيا عن طريق التجارة الساحلية، ولا بدّ أن البحارة الفينيسيين والإيبيريين كانوا يؤمنون قسماً كبيراً من هذه التجارة التي كانت تصل حتى قادس بعد أن يرفع الوسطاء التجاريون الغاليون السعر النهائي للمادة الأولية بفرض رسوم عبور جديدة. إذاً مثلما تفعل اليوم الشركات التجارية الكبيرة لتجنب تهافت الوسطاء التجاريين ولموازنة الأسعار، يُفترض أن الفينيقيين قد قاموا، انطلاقاً من قادس، بما سأسميه عمليات «دورات قصيرة» ومن وقت إلى آخر حملة مباشرة لتخفيض الأسعار.



الفصل التاسع عشر
بريطانيا
القصدير والفينيقيون

من غير المؤكد حتى الآن إن كان الفينيقيون خلال سعيهم وراء القصدير باتجاه الشمال قد أسسوا محطة لهم في بريطانيا.

ففي الواقع أنه ليس هناك أي اكتشاف أثري حتى الآن يساعد على إثبات الحضور الفينيقي، بالرغم من رواية قديمة جداً بهذا الصدد كان يؤكد صحتها «G. de Vaudoncourt» في القرن التاسع عشر. (ويبدو أن الباحثين في القرن العشرين صاروا أكثر تحفظاً).

وعلى كل حال نستطيع القول أنه إن كانت هناك منطقة يمكن أن يكون قد نزل فيها الفينيقيون فهي بالأحرى مضيق «Morbihan» (الناحية المسماة حالياً «Vannetais»).

من المعروف أن بعض اللغويين من القرن التاسع عشر حاولوا أن يثبتوا أن الفينيقيين كانوا في الواقع جالية من بلاد الغال، وهي جزء من «Vannes» في عصر كانت فيه مدينة «Tours» عاصمة، وحيث كان الـ «Venetes» أحد الاتحادات القبلية الأكثر نشاطاً في بلاد الغال.

ويرى هؤلاء اللغويون أن كلمة PH (E) - N (E) - C(E) هي نفس كلمة - V (E) N (E) - T (E) كما تلفظ باللهجة الإغريقية أو بالسامية والتي نجدها في كلمة «Venete». وهذا يقود إلى الإستنتاج بأن: «Venete» - «Venetien» - «Phenicien» - «Venetie» - «Phenicie» هي ألفاظ متشابهة ومتقاربة. في هذه الفرضية استبعاد لكل ما هو مخالف للصواب: كاتجاه «الفينيسيين Vannetais» نحو الشرق لتأسيس صور (التي قد تكون تحريفاً لكلمة Tours) والإبقاء على القرابات اللغوية الفقهية.

على كل حال لابد من ذكر بعض الأعمال في منطقة وجود الـ «Venetes» القدماء حول مضيق «Morbihan».

● أماكن «الحجّ»:

أول مايجدر ذكره هو الآثار المغليثية التي من أغربها في العالم تلك الغرفة الجنائزية في الجزيرة الصغيرة. وهي عبارة عن جثوة مبلطة بحجارة نقشت عليها رسوم غامضة كدوائر متحدة المركز (لانعرف إن كانت ترمز إلى شموس) ومنحنيات (لانعرف إن كانت تعبر عن أفاع أو أنهار) بالاضافة إلى أشكال سنابل وصفوف الكرنك الهائلة التي تظهر من خلال الضباب في صباحات الشتاء في السهول البريطانية.

هذا الخليط من الرموز الأثرية إن دل على شيء فهو يدل على أنه كان يوجد في الألف الثالث والألف الثاني مكان مرتفع للعبادة في هذا الموقع، إنه بمثابة محّجة حقيقية.

هذا المحجّ كان أيضاً ذا شهرة واسعة في العصر الفينيقي. ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن نصب الحجارة المغليثية الكبيرة يفترض أنه يعود إلى حوالي 2700 قبل الميلاد، وأن الفينيقيين لم يتوغلوا في المحيط الأطلسي إلا بعد خمسة عشر قرناً أو أكثر من هذا التاريخ.

من الممكن الاعتقاد أن أماكن الحج هذه، التي تعود إلى العصر الحجري، قد بقيت مقصودة حتى مابعد العصر الذي شهد ازدهارها.

إن الأمثلة على أماكن التعبد المرتفعة التي اختفت بأكملها قليلة، فإن مايحدث بالواقع هو تعاقب الاعتقادات والعبادات وتغير الكثير منها، لكن الأماكن تبقى لها صفة القدسية.

فالعبادات التي كان يمارسها الناس الذين أنشأوا الـ «منهير Menhir» ـ ذلك النصب الحجري العمودي العالي ـ رغم أنها ضعفت وتراجعت فقد بقيت معروفة حتى العهد الروماني، ولم يحدث حينذاك أي تدمير لأماكن العبادة، وكل ما هنالك أنه أدخل عليها الطابع الروماني، ومن الأمثلة على ذلك بعض النقوش الرومانية على الأحجار القائمة في بريطانيا.

ولدى ظهور الديانة المسيحية نلاحظ أنه بدلاً من محاربة المعتقدات القديمة المتعلقة بـ «حجارة المنهير» قد أبقت على بعضها كاتخاذ بعض أحجار المنهير العمودية في بعض الأماكن وتحويلها إلى أجران للماء المقدس، مثل مناطق «Bigouden».

ومن جهة أخرى فإن التقليد القديم لمواسم الحج التي كانت تقام في «Carnac» أو في «Kermado» قد بقي. إذ أنه بالقرب من هذه الأماكن في «Sainte Anne Auray» تجتمع جماهير غفيرة في كل سنة فيما يدعى «مكان المغفرة». وإن استمرار هذه الظاهرة في المكان نفسه يجعلنا نستنتج أن حشوداً كبيرة من المؤمنين كانت تجتمع على ضفاف خليج «Morbihan» في العصر الذي يمكن أن يكون الفينيقيون قد جاؤوا فيه إلى هذه المنطقة.

والواقع أنه ليس من الخطل أن نعتقد أن البحارة الفينيقيين عصر استكشافاتهم البحرية في العصر القديم مابين القرنين الثاني عشر والخامس قبل الميلاد قد جاؤوا إلى هذه الأنحاء من أجل تجنب فترة كان فيها الجو سيئاً وللإفادة من مستوى الماء المحمي جيداً، حيث كان بمقدورهم إصلاح السفن وإنجاز صفقات تجارية مع العديد من الحجاج. وهكذا كانت أماكن الحج تجتذب التجار والبحارة.

● بحّارة بواسل:

اتصف الـ «فينيسيّون Venetes» بمهارة كبيرة في الإبحار بالسفن الشراعية وبطبيعتهم المسالمة والمبطنة أيضاً بشجاعة كبيرةفي مقاومة الغزاة. وهذه كلها صفات مشتركة مع الفينيقيين.

وقد أفصح قيصر عن هذا الرأي في كتابه الثالث، المذكرات التاريخية عن الحرب الغالية بما معناه:

«إن هذا الشعب ـ الفينيسيين ـ هو أقوى شعب في كل هذا الساحل. فهو يملك أكبر عدد من السفن التي كان يستغلها للتجارة مع بريطانيا. وهو يتفوق على باقي الشعوب بعلمه وتجربته في الإبحار. كما يحتل الموانىء القليلة الموجودة على هذا البحر الهائج المخيف. ويحصل على الجزية من كل الذين يبحرون في هذه المياه...»

ثم يضيف بهذا الصدد:

«... كان عندهم دائماً أمل كبير، لاسيما وأن طبيعة البلد كانت تلهمهم الكثير من الثقة. وكانوا يعرفون أن الطرقات البرية قد تفادت مدّ البحر بواسطة الخلجان. إن كل مدن هذا الساحل تقريباً كانت تقع في أطراف ألسنة الأراضي الساحلية (الرؤوس) وفوق بروزات صخرية ولم يكن لها منافذ لا

للمشاة عندما يكون البحر عالياً (الأمر الذي يحدث مرتين كل أربع وعشرين ساعة) ولا حتى للسفن في حالة الجزر لأنها تصطدم بالقاع. عندما كان الفينيسيون يحسون بالخطر والقنوط كانوا يجمعون كل مالديهم من سفن وينقلون إليها كل ثرواتهم ثم ينسحبون إلى الأماكن المجاورة...»

هنا تماماً يكمن فن المقاومة الذي كان يمارس في صور وفي صيدون. بعد ذلك جاء عند قيصر وصف دقيق للغاية عن السفن الفينيسية القوية التي تتشابه حتى ليلتبس الأمر مع سفن «Sinagos» التي مازال يمكننا رؤيتها في مضيق «Morbihan».

ففي ذلك يقول قيصر ما معناه:

«... لقد صُنعت سفن الأعداء - الفينيسيين - أنفسهم بالطريقة التالية: غاطسها مسطح أكثر بكثير من غاطس سفننا بحيث لم يكونوا يخشون أماكن المياه الضحلة وحالات الجزر. وكانت جآجئها مرتفعة جداً وكواثلها أيضاً بشكل ملائم لقوة الأمواج والعواصف. كانت السفن بأكملها قد صنعت من خشب البلوط لكي تتحمل أية صدمة أو أعباء. وتبلغ ثخانة العوارض قدماً واحدة وهي معلقة بواسطة أوتاد حديدية بحجم الإبهام.

أما المراسي فهي مثبتة بواسطة سلاسل حديدية بدلاً من الحبال ولها جلود بدلاً من الأشرعة وقطع جلدية رفيعة وطرية إذ كان ينقصها الكتان أو أنهم لم يعرفوا استخدامه، وإن يكن من المحتمل جداً أنهم اعتقدوا بأنه ليس من السهل قيادة سفن ثقيلة كهذه بواسطة أشرعتنا عبر زوابع البحر ورياحه العاصفة. وعندما كان أسطولنا يواجه سفناً كهذه كانت ميزته الوحيدة إمكانية تجاوزها بسرعة ومرونة وكل ما سوى ذلك كان لصالح سفن الأعداء التي تعتبر موافقة ومهيأة بشكل أفضل لطبيعة هذا البحر وقوة عواصفه. والواقع أن سفننا بقواطعها لم يكن لها أي تأثير عليها إذ كانت من المتانة وارتفاع الهيكل بحيث لا تتمكن منها سهام الرماة وفي الوقت نفسه كان من المتعذر اصطيادها. أضف إلى ذلك أنه إذا هبت عاصفة كانت تلك السفن تستسلم لها إذ كانت قوة احتمالها كبيرة. وكان يمكنها أن ترسو بسلام في المياه الضحلة. وحتى في أوقات الجزر لم تكن تخشى الصخور أو غيرها. في الوقت الذي تكون فيه الأخطار المحيطة بسفننا مرعبة...».

لقد أتى يوليوس قيصر بنفسه كي يربح بالصدفة، وبعد معارك طويلة، معركة

«Morbihan» البحرية التي وضعت عملياً نهاية للحروب الغالية. كانت الرياح تهب فجأة، والهدوء يخيم، وكان الأسطول الفينيسي (البندقي) ساكناً وقوياً يشرف بصواريه على صدور السفن الرومانية.

إن الوصف الذي دوّنه يوليوس قيصر للسفن البندقية (الفينيسية) يتطابق مع وصف السفن الفينيقية المعروف من مصادر أخرى.

بامكاننا إذاً أن نتخيل وجود «ترابط»...

● **القصدير:**

إن أكثر مادة أولية كانت تهم الفينيقيين ويشغلهم البحث عنها هي القصدير. لقد ثبت وجود خامات القصدير بالقرب من «Vannes». ولكن من المرجح أن مناجمه اليوم لم تعد سهلة الاستثمار كما كانت سابقاً وذلك بسبب تراجع مستوى السواحل.

يوجد القصدير في باطن الأرض في أماكن مختلفة وخاصة في «Penestin» حيث تتسرب خاماته مع المواد المختلطة معها من جوف الأرض هناك إلى قاع البحر عبر مصب «Vilaine». وعلى مقربة من ذلك المكان وبين رمال الشاطىء الذهبي لاتزال توجد جزيئات من القصدير أتت بها الأمواج.

وفي سجلاّت مصلحة المناجم في تلك الولاية نجد عدداً من التصاريح القانونية للبحث عن القصدير في هذه المنطقة. ولكن من غير المؤكد وجود كميات وافرة بالفعل في «Penestin». وقد يكون هناك احتياطي من الخامات في جهات أخرى مجاورة. إذ كان يوجد منجم هام في «Creuse» عدا عن منجم استثمر منذ أزمنة قديمة وحتى سنة 1914.

كما نشاهد حفراً واسعة ردمت جزئياً وقنوات عميقة بقيت على حالها حتى اليوم رغم عوامل الزمن ونمو النباتات. وقد أجريت تحريات أثرية هامة في هذه الأماكن استطعنا من خلالها تكوين فكرة عن المراحل التي كان يمر بها إنتاج القصدير.

1 - يتم غسل الخامات (الركاز) عند الشاطىء باستخدام أحواض للحفظ.

2 - يتم سحق الخامات بواسطة الهاون والمدقات.

من الجدير بالملاحظة أنه حتى عام 1859 كان يوجد أحد قبور ما قبل التاريخ

(المسمى دلمن) فوق أكمة مشرفة على المنجم بأكمله، لكن هذا النصب اختفى بمرور الزمن.

إن نقل خامات القصدير إلى فينيسيا (البندقية) لم يكن يثير أية مشكلة حيث أن طرق المواصلات البرية كانت سهلة وعريضة.

مما أصبح معروفاً حتى الآن أن مضيق «Morbihan» لم يكن في العصر القديم منبعاً هاماً للقصدير ولكنه كان على الأقل مكاناً للتخزين. هناك شيء آخر يعتبره بعض علماء الآثار دليلاً على الصلة العميقة بين «فينيسيا» وتجارة القصدير، ألا وهو:

● **حجارة الـ «Callais»:**

هناك مئات عديدة من قطع الحلي المصنوعةمن هذه الحجارة وجدت بالقرب من سواحل خليج «Morbihan» وخاصة في القبور المغليثية. ولقد فتشت عن تعريف دقيق ومناسب لهذه الحجارة الثمينة التي تفيد في صناعة العقود والأقراط فوجدت أن أجمل وصف هو الذي دوّنه عالم الطبيعيات «بلينيوس... Plinius» كما يلي:

«... إن حجارة الـ «Callais» ذات لون أخضر شاحب وسماكة ملحوظة لكنها مليئة بالثقوب والأوساخ... تنحت هذه الحجارة لإعطائها الشكل المناسب. وهي سهلة الكسر.. وأجملها لوناً هي تلك التي تكون بلون الزمرّد. وبقدر ما تكون جميلة يكون فقدانها للونها سهلاً بملامسة الزيت أو العطور السائلة والخمور.. وبالعكس فإن تلك الأقل جمالاً تحافظ على لونها بصورة أفضل..»

أما عالم الآثار الكبير «Louis Siret» فيعتقد أن حلي حجارة الـ «Callais» التي نجدها في أوربا الغربية وتلك التي توجد في بريطانيا وبأعداد لا تحصى، وأحجار أخرى وجدت في الآثار المغليثية في أسبانيا، لايمكن أن تكون قد جاءت من الشرق، وهي مرتبطة باستثمار القصدير، إذ أن هذه الحجارة كانت توجد على الأرجح كمادة خام في طبقات الأرض الحاوية على القصدير.

ويعتقد آثاريون آخرون أن منبع حجارة الـ «Callais» كان منطقة «Morbihan» نفسها، وأن الطبقات التي تحويها لم يتم التعرف عليها بعد. ومع ذلك فإن وجود هذه الحجارة في موربيهان وفي أسبانيا إنما يثبت مرة أخرى أنه كانت هناك مبادلات عبر

الطريق البحري حتى قبل الفينيقيين بين هاتين المنطقتين الأطلسيتين. من الصعب أن نتصور أن هؤلاء الرواد لم يستفيدوا لدى إقامتهم في قادس من الطرق البحرية المفتوحة والمعروفة منذ عهد بعيد.

هناك إذاً مجموعة من الإفتراضات ربما يكون بعضها مطابقاً تماماً لفكرة وجود علاقات (أو قرابة) بين الفينيقيين والفينيسيين (البنادقة). ولكن بانتظار أن تجد الأجيال الجديدة من الباحثين الدلائل الملموسة على التواجد الفينيقي في بريطانيا فإني أرى من الحكمة أن أتبنى أفكار العالم الكبير «Louis Siret» الذي كتب:

«يمكننا التسليم بأن الفينيقيين قد استثمروا الساحل الغربي لأوربا بمساعدة السفن والبحارة الإيبيريين..»

وبذلك نصل إلى مبدأ المساعدات البحرية وملاحة المساحلات الإيبيرية الفينيسية التي أمنت بشكل كلي أو جزئي نقل القصدير حتى قادس، ذلك المركز الكبير لحشد البضائع الفينيقية.

قد يكون إذاً خليج «Morbihan» مكاناً آخر للتجميع، حيث يفترض أنه عدا عن القصدير المحلي كان يتجمع القصدير الوارد من «Montebras» ومن مناجم «Cornouailles» البريطانية المشهورة منذ زمن قديم جداً.

لقد كان التواجد المباشر أو الذي تم بواسطة وكلاء كلفهم القادمون من الشرق في البدء حلماً شرقياً ظل يراود نفوس الفينيسيين زمناً طويلاً حتى بعد حملة يوليوس قيصر. وفي الواقع يروي التاريخ أنه عندما اجتاحت «Attila» بلاد الغال في عام 452 هاجر عدد كبير من الفينيسيين من موطنهم، وربما كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في اتجاه هجرتهم، فقادتهم مسيرتهم الطويلة نحو الشرق والجنوب الغربي من أوربا إلى أن جاء اليوم الذي حاصرهم فيه اللومبارديون في سهل الـ «Po» فلم يجدوا حينذاك خياراً آخر سوى اللجوء إلى جزر البحيرة الشاطئية التي تقع في أقصى البحر الأدرياتي.

● وماذا عن السفينة «فينيسيا»؟..

لقد بذل الفينيسيون جهوداً كبيرة حتى صنعوا «سفينة ذات مرساة حملت اسمهم «Venise» زمناً طويلاً جداً.

في أقل من قرنين بنى أحفاد الفينيسيين «صيدون» جديدة أو «صور» جديدة ـ البندقية ـ ونجحوا في التخلص من الامبراطورية البيزنطية وتشكيل حكومة مستقلة. وقد اتخذ الرؤساء المنتخبون منهم لقب «القاضي الأول» ـ doge ـ.

ومن الجدير بالذكر أن القضاة اتخذوا كزينة للرأس تدل على العظمة تلك القلنسوة المثنية إلى الأمام والشبيهة بالقلنسوة الفينيقية. فهل كان هذا التشبّه ياترى بمحض الصدفة؟...

الفصل العشرون
الفينيقيون وإنكلترا

في آخر هذه الرحلة البحرية الطويلة وبعدما فكرت ملياً بموضوع القصدير «الهدف الكبير للفينيقيين» دفعني إحساس معين للذهاب إلى إنكلترا. على الرغم من أن العلماء البريطانيين يقولون جازمين:

ـ ليس هناك من دليل أثري على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا العظمى ـ لكن؟...
هم لا يقولون بهذا الصدد: «نعم... لكن...» بل يقولون: «لا... لكن...»

● **النصوص:**

على الرغم مما يقوله العلماء البريطانيون توجد بالواقع نصوص صريحة بهذا الصدد للكتاب القدماء.

يؤكد سترابون على العلاقات التجارية قائلاً (في الجزء III ص 176):

«كان فينيقيو قادس يتبادلون التجارة مع الـ ـ Cassiterides ـ ». ونعني عموماً بتسمية «Cassiterides» مجموعة الجزر الجنوبية الغربية من إنكلترا وبتعبير آخر مجموعة جزر «سيللي.. Scilly» التي تسمى بالعامية الفرنسية «Sorlingues».

وأما تسمية «Cassiterides» نفسها فقد اشتقت مباشرة من الكلمة التي تعني «ركاز أو فلزات القصدير»(*). ومازال المختصون بعلم المعادن في أيامنا هذه يطلقون اسم Cassiterides على كتل الفلز الحاوية على القصدير.

أما الشاعر اللاتيني «أفيينوس Avienus» الذي تأثر بالرواية المفقودة عن مسافر من مرسيليا من القرن السادس قبل الميلاد، فقد صرح في كتاب الـ «Ora maritima» أن الترشيشيين والقرطاجيين كانوا يتاجرون باتجاه الشمال على بعد يساوي البعد عن «Ostreymnides». ومن المعروف أن الـ «Ostreymnides» تنطبق على الجزر المختلفة في بريطانيا وفي «Finistere» وتعني هذه الكلمة باليونانية جزر المحار. وقبيل العصر

(*) أي من اللفظة اليونانية «Kassiteros». في حين كانت في سوريا عموماً تستخدم لفظة «قسطيطيريون» بالآرامية وربما بالكنعانية بشكل مشابه ـ المحقق ـ

المسيحي كان ديودور الصقلي، الذي عاصر أوغسطس يلمّ بالموضوع بشكل أفضل إذ يقول (V ص 2):

«إن سكان هذه الذروة من بريطانيا[1] التي تسمى - Belerion -[2] جديرون بالتقدير لحسن ضيافتهم، وأيضاً بسبب علاقاتهم مع التجار الغرباء ولطريقة حياتهم المتحضرة. إن هؤلاء السكان يستخرجون القصدير بمهارة فائقة من الأرض التي يحرثونها. والأرض تكون صخرية لكنها تحوي في عروتها الترابية على الركاز الذي يستخرج منها مسحوقاً نقياً بعد ذلك تتم تعبئته في قوالب. ثم يأخذون هذه القوالب إلى جزيرة متصلة ببريطانيا تسمى «Iktis»، ذلك لأن المسافة التي تفصلها عن الساحل تجف من الماء في وقت الجزر الأقصى. وهكذا بامكانهم أن يحضروا إلى هذا المكان كميات كبيرة من القصدير محملة على عربات نقل صغيرة...».

وبالحقيقة كان يجب التوجه إلى «Cornouailles» والتحقق على أرض الواقع من هذه الأمكنة.

● **الفينيقيون في مدينة «لوندر Londres»:**

بقي لي إذاً أن أجد في مدينة لوندر الشهيرة دعائم قوية بالقرب من P.D.G جديرة بأن تحمل بحثي محمل الجد وتقودني نحو الأرض الغنية بالقصدير، وأيضاً نحو منجم فعّال.

وجدت هناك استقبالاً في غاية اللطف. ولمست في الواقع أن فكرة السعي وراء القصدير الفينيقي في القرن العشرين لم تبدُ لأحد غريبة ولا مستهجنة، إنها فكرة وحسب. كما قيل لي بأنه في القاعة الكبيرة لـ «Royal Exchange» كانت توجد لوحة هامة بالنسبة للبحث الذي أقوم به. وهذه اللوحة التي تعتبر تصوراً رومنسياً كان قد قام برسمها فنان إنكليزي من القرن التاسع عشر. وتمثل بعض الفينيقيين يرتدون أفخر الثياب وهم ينزلون من السفينة مع بضائعهم في وسط الانكليز شبه المتوحشين والذين يرتدون جلود الحيوانات.

وحيث وجد فينيقيون في قلب مدينة لوندر وجدت أيضاً المهارة.

وبعد يومين وجدت نفسي في أقصى شبه جزيرة «Cornouailles» مقابل «جبل

(1) يجب أن نفهم هنا من كلمة «Bretagne» بريطانيا - أو بعبارة أخرى: - بريطانيا العظمى -.

(2) تتطابق هذه المنطقة مع الحد الأقصى من شبه جزيرة «Cornouailles».

القدّيس ميخائيل «St. Michael's Mount» الذي يماثل «Mont Saint - Michel» الموجود في فرنسا، لكنه ـ أقل عظمةً ـ على حد تعبير صديق بريطاني.

يبدو شبه مؤكد أن هذه المنطقة التي تصبح جزيرة عند أقصى المدّ وتعود شبه جزيرة عند أقصى الجزر، هي نفسها جزيرة «Iktis» التي تحدث عنها ديودور الصقلي (في النص الآنف الذكر). وعلى كل حال فقد بلغنا بذلك جنة الباحثين عن القصدير.

إن كل السكان في الطرف الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» لديهم انطباع بأن تحت أقدامهم كنزاً معروفاً منذ أقدم العصور.

في كل مكان تقريباً نجد حفراً قديمة وآثاراً لمسابك أيضاً قديمة ومازالت تنتصب مداخن لا تحصى لمناجم مهجورة.

بالواقع كان يوجد في شبه جزيرة «Cornouailles» حوالي عام 1850 ميلادي حوالي المئة من المناجم تعج بالعمل والنشاط، وكان يعمل فيها إجمالاً خمسون ألفاً من العمال يديرونها بطريقة نصف آلية بواسطة البخار الذي كان اختراعاً حديثاً حينذاك. وبين عامي 1860 و 1870 أي خلال عقد واحد من الزمن سبب اكتشاف مناجم للقصدير في أميركا الجنوبية هزيمة كل هذه المناجم تقريباً.

● منجم حديث للقصدير:

من كل تلك المناجم المذكورة آنفاً لم يبق سوى منجم «Geevor» في «Saint - Just» الذي يبعد بضعة كيلومترات عن «Penzance»[1]. أردت أن أرى وأعرف كل شيء في منجم «Geevor» هذا الذي جُددت تجهيزاته. وقد قيل لي أن تكاليف هذا التجديد التي أضيفت إلى الاستثمارات السابقة قد بلغت 5 ملايين جنيه استرليني. وعلمت أن إنتاج مقدار 60 ـ 65 طناً من القصدير يتطلب 6000 طناً من الفلزات الخام التي تسحق وتغسل بالتتابع (باستهلاك 70 طناً من الماء في الدقيقة) ثم تسحب وتغربل وتغسل من جديد وتصفىّ، وأخيراً توضع في أكياس يحوي الواحد منها 45 كيلوغراماً بشكل بودرة سوداء يساوي الكيلوغرام منها 21 شلن. ثم ترسل إلى السبّاك الذي يرسلها فيما بعد إلى المصنع.

من هنا يتضح أن أسعار مادة القصدير باهظة.

---

(1) تقع Penzance في أقصى الجنوب من Cornouailles. وهي في نفس الوقت ميناء صغير ومحطة أخيرة لخط السكك الحديدية البريطانية.

وإكراماً لذكرى الفينيقيين أهداني مدير المنجم وعاءً صغيراً مملوءاً ببودرة القصدير.

في العصر القديم كان القصدير مطلوباً أكثر من الذهب، حيث كان يدخل في صناعة البرونز. وهو يدخل اليوم في تركيب الكثير من السبائك المعدنية الحديثة التي تستخدم في صناعة اللوازم المنزلية ولوازم البناء. هذا وان مما ساعد على استمرار استخراج وتجارة القصدير في الزمن الحالي هو الأساليب الحديثة التي تختلف كلياً عن الطرق القديمة.

● **عند منابع القصدير القديمة:**

كانت صناعة القصدير مزدهرة في شبه جزيرة «Cornouailles» في الألف الثاني قبل الميلاد. وللحصول عليه كان يتم الكشط على منحدر الشواطىء الصخرية. أما تقنية حفر آبار المناجم فلم تظهر إلا فيما بعد. كانت قطع الفلز تسحق مباشرة على الصخر فوق مساحات تعمّقت بمرور الزمن تحت تأثير قوة ضربات المدقات ونتجت عن ذلك أحواض كثيرة لاحظت أنها متصلة تقريباً ببعضها البعض بواسطة جداول صغيرة.

فوق الهضاب المشرفة على الساحل توجد أنقاض قديمة يطلقون عليها تسمية «Castles». ولكنها بالواقع ليست قلاعاً وإنما مجرد أطلال لمسابك قديمة كان القصدير فيها يصب في قوالب. وعلى مقربة من هذه الأنقاض وجدت بعض السبائك المطمورة، التي يمكن أن يتطابق شكلها مع تلك القوالب التي تحدث عنها ديودور الصقلي. كما عثر في تلك الأنحاء على بعض القطع النقدية، واحدة منها نوميدية من القرن الثاني قبل الميلاد، وأخرى قبرصية من القرن الأول قبل الميلاد والكثير منها أصله من بلاد الغال، وعثر كذلك على ثور برونزي صغير، ساد الاعتقاد طويلاً بأنه عمل فينيقي، أما في اعتقادي فهو عمل إيبيري من عصر متأخر.

عدا عن ذلك تم اكتشاف غريب من نوعه في جثوة (مدفن) فوق هضبة صخرية مواجهة لجزر «سيللي Scilly» القريبة. إذ عثر في هذا المدفن على بعض أدوات الزينة المصنوعة من الخزف المزخرف الأزرق والأخضر والأسمر، وهو الذي عرف من حيث مادته وشكله في مصر خلال عهد الأسرة السابعة عشرة، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بوجود علاقات ومبادلات بين «Cornouailles» وبلدان شرقي المتوسط منذ زمن مبكر.

● جزر سيللي «Scilly»:

بعد كل ماتقدم تبقى مسألة يجب حلّها: لماذا يتحدث الكتاب القدماء عن جزر «Cassiterides» بينما يوجد القصدير في «Cornouailles» وليس في جزر «Scilly»؟...

لقد بحثتُ عبثاً في هذه الجزر عن حفريات قديمة أو حديثة. ربما يوجد آثار من البودرة أو ذرات القصدير في رمال بعض خلجان هذه الجزر الصغيرة التي يبلغ عددها مائة وأربعين جزيرة. وهي كلها رائعة الجمال لكنها مهجورة ومؤثرة، وأربع منها فقط مأهولة بالسكان.

إذا صحّ أن الفينيقيين قد وصلوا فعلاً حتى هذه الأماكن - وهو أمر مرجّح - فلابد أنهم قد استفادوا من هذه الجزر الخالية في تخزين بضائعهم تبعاً للتقليد الفينيقي في التجارة.

إن تسمية «Cassiterides» كانت ولابد تشمل بلا تمييز مجموعة مناطق المحيط الأطلسي الشمالية حيث، كان يوجد القصدير قبل العصر الروماني. وبالإضافة إلى ذلك فإن جزر «سيللي Scilly» والرأس الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» كانت تعتبر أماكن للتعبد ويُنظر إليها كأجزاء صغيرة من أرض مباركة حيث يرجح أن السكان فيها كانوا متقدمين كثيراً على برابرة القارّة.

ويتحدث «Pomponius Mela»(*) عن جزيرة منها كانت توجد فيها تسع عذراوات متميزات بسلطة سحرية على الرياح والبحار.

أما «Demetrios»(**) من جهته فلم يكن يرى في جزر «Scilly» سوى بعض السكان القلائل الذين كانوا يشتهرون بقداسة كبيرة.

وأما بالنسبة للكلتيين في إيرلندا القديمة فكانت جزر Scilly تعتبر بمثابة المكان الذي وُجد فيه الأبطال والخلود وكل أنواع الملذات. إن هذه القصص التي يرويها الرحالة والمؤرخون وتلك الأساطير لتحرض الخيال أكثر إذا ما تذكرناها لدى تجولنا في بقع الأرض الموحشة التي تشرف على الجروف الصخرية لجزر «Scilly». هناك توجد في كل مكان ذكرى لماضٍ غامض تتمثل في جثوات لاتحصى، وهي شكل من أشكال

(*) جغرافي روماني أصله من أسبانيا، عاش في القرن الأول الميلادي، وضع كتاباً في وصف البلدان معظمه عن المناطق الساحلية.

(**): من القرن الرابع قبل الميلاد. كان رجل دولة في أثينا وخطيباً وفيلسوفاً - المحقق -

القبب الترابية محمولة بواسطة بلاطات حجرية منظمة بشكل تاج. والمرجح أن هذه الجزر كانت بمثابة الأماكن المرتفعة للعبادات القديمة، أي بمثابة «بانتيون» حيث كانوا يدفنون أصحاب المراتب الدينية العليا والشخصيات الملكية.

وهذه الحجرات الجنائزية ترتبط بالنموذج الذي عُرف في إيرلندا أكثر مما ترتبط بطراز الآثار المغليثية البريطانية. أما تاريخها فيقدر بحوالي 2000 قبل الميلاد.

ومن الواضح أن هذه الجزر كان مصيرها الإنحطاط في فترة مابعد العصر المغليثي، كما هو الحال في بريطانيا. وهذا يكفي لتفسير عدم وجود آثار تذكر. إذ أنه لم يبق بالفعل سوى جثوات المدافن وبقايا أثرية بسيطة من أماكن العبادة في المواقع المرتفعة، وهذا ما يفسر التفوق الظاهر للموتى على الأحياء في تلك المعتقدات.

تتمتع جزر «سيللي Scilly» بنوع من الرهبة المسيطرة والجمال المجرد يحملان على التأمل الصوفي. وقد أكسب ذلك هذه الأماكن على مر القرون شهرة دينية.

في جزيرة «Sainte - Marie» المشرفة على البحر الهائج توجد مجموعة من الأنقاض الضخمة تدعى «قصر العمالقة» منشأها يلفّه الغموض، تضفي على المحيط شيئاً من الرهبة والأسى، وليس بعيداً عن هذه الأنقاض توجد أسطحة دائرية كانت تدعى باللغة الكلتية القديمة «Sulleh» بمعنى: ـ الصخور العالية المكرسة للشمس ـ وهذه التسمية هي التي تم تحريفها في الإنكليزية إلى لفظة «Scilly» الحالية.

أما هذه الأسطحة الدائرية (أو الشمسية) التي يرجح أنها كانت محاطة بأحجار كبيرة منتصبة، فهي تتفق ببعض الغرابة مع الوصف الذي جاء عند ديودور الصقلي في حديثه عن جزيرة تقع شمالاً في المناطق التي كان يسكنها الكلتيون، بالعبارات التالية:

«... كانت مكرسة لإله كان يتحدث غالباً إلى أتباعه. وكان يوجد سطح دائري كبير ومعبد بشكل دائري حيث كان الكهنة ينشدون مدائح الإله...».

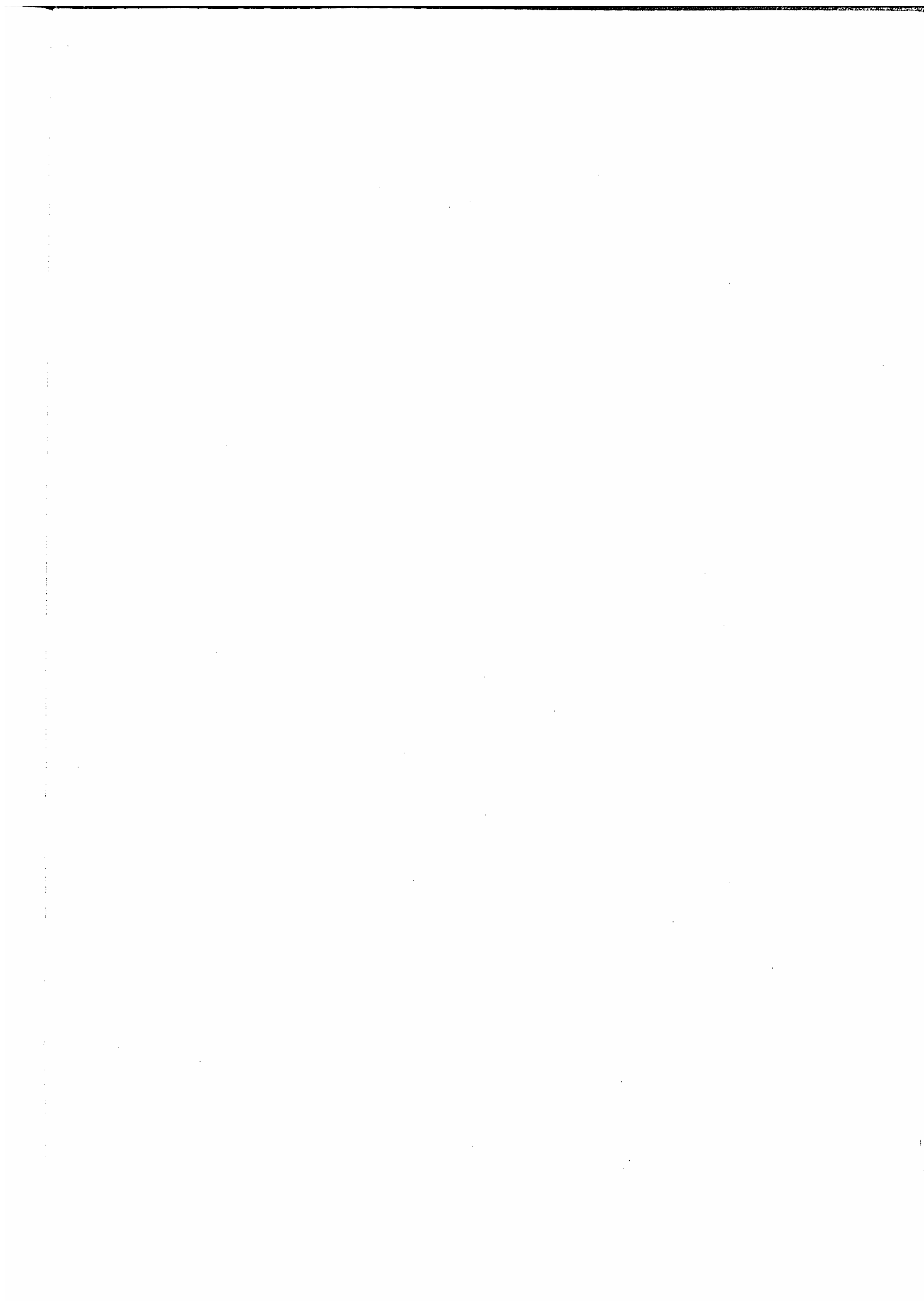
إن ماض كهذا، كثرت فيه الإعتقادات الخرافية والمقابر الكبيرة المحاطة بالأسرار والغموض والحكايات الخرافية الدينية، يفسر لماذا بقي سكان جزر «سيللي Scilly» بشكل خاص منغلقين وصوفيين وخرافيين بشكل مخيف.

كل أشكال الأساطير والطقوس الغريبة تحيط بالأزهار ذات اللون الأصفر وأزهار الربيع وأزهار النرجس، التي تصنع منها حتى اليوم أدوية ذات خواص ناجعة، ولكي تكون لهذه الأدوية الفعالية الكاملة لابد أن تقطف هذه الأزهار عندما يكون القمر بدراً فقط. فإن أرادوا مثلاً استخلاص مادة ضد السعال فيجب هشم ساق الأزهار برمها

نحو الأعلى، أما إذا أرادوا الحصول على مادة لعلاج الجروح وجب عندها برم ساق الأزهار نحو الأسفل. هناك أيضاً مشروبات للحُب، وهي نوع من نبيذ العسل يحضر في المزارع، وهو معروف أيضاً بين المشروبات الروحية التي تحضر صناعياً. وربما تفسر لنا شهرة هذا المشروب لماذا غدت جزر «سيللي» الناحية المفضلة للكثير من رحلات الأعراس ـ الشرعية أو غيرها ـ حيث تكثر الخلجان الموحشة والأيكات الجذابة وبيوت الصيادين القديمة التي تحولت إلى فنادق صغيرة.

هذا الفردوس الصغير الذي نصل إليه من «Penzance» خلال عشرين دقيقة بطائرة الهليكوبتر كان المكان المفضل لرئيس الوزراء (ويلسون» حيث كان يسكن في منزل ريفي متواضع.

بعد كل ماسبق، هل نستطيع في نهاية المطاف أن نثبت أن الفينيقيين قد وصلوا إلى جزر «Cassiterides» ـ Scilly ـ لاستثمار القصدير؟... في اعتقادي أن الفينيقيين في جميع الأحوال لم يستثمروا بأنفسهم المناجم وأنهم في أغلب الأحيان لم يكونوا يشترون الركاز مباشرة من هناك. بل الأرجح أن هذه المادة كانت تنقل من بريطانيا عن طريق التجارة الساحلية، ولا بدّ أن البحارة الفينيسيين والإيبيريين كانوا يؤمنون قسماً كبيراً من هذه التجارة التي كانت تصل حتى قادس بعد أن يرفع الوسطاء التجاريون الغاليون السعر النهائي للمادة الأولية بفرض رسوم عبور جديدة. إذاً مثلما تفعل اليوم الشركات التجارية الكبيرة لتجنب تهافت الوسطاء التجاريين ولموازنة الأسعار، يُفترض أن الفينيقيين قد قاموا، انطلاقاً من قادس، بما سأسميه عمليات «دورات قصيرة» ومن وقت إلى آخر حملة مباشرة لتخفيض الأسعار.



المنازل العالية وأطفالهن على أيديهن لإثارة الشعور بالرهبة عند الأعداء ولإثبات حماسة مشاعرهن.

كما قُدّر للعديد من أطفال عائلات الأشراف أن يكونوا قرابين لطقوس الـ «مولوخ» الهامة. ومما لا شك فيه أن التضحية في تلك المناسبات لها قيمة رمزية وأهمية بالغة إذا عرفنا مدى تعلق الشرقيين بأطفالهم. تلك كانت طريقة لتقديم أغلى ما هو عندهم ألا وهو فلذات أكبادهم، إلى الآلهة من أجل إرضائها وتهدئتها والتقرب منها.

وبما أن فكرة التضحية بالنفس في ذلك العصر كانت راسخة في ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره، فإن بيئة كهذه تجعل فكرة الإنتحار الصوفي عادية تماماً كما هو الحال لدى النسّاك البوذيين في أيامنا. والمعروف أن ديدون (إليسار) مؤسسة قرطاجة نفسها هلكت في النار.

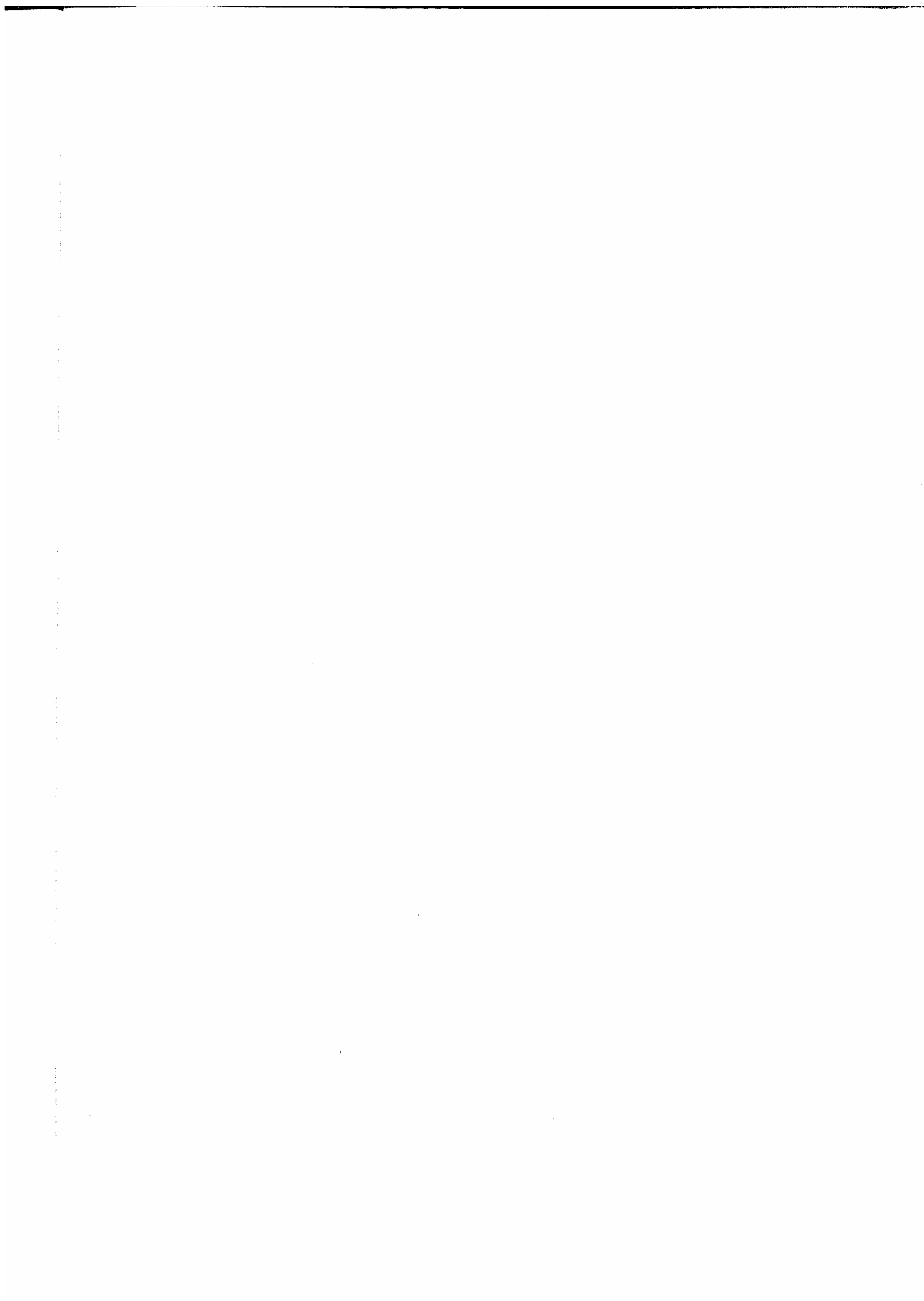
إن هذا الإحتقار للموت والأهمية التي خصوه بها في نفس الوقت، سواء كان تعبداً أم استغفاراً، يجعلنا ندرك جيداً شجاعة القرطاجيين الخارقة أثناء رحلاتهم البحرية وبسالتهم في المعارك الحربية التي خاضوها ضد الرومان دون هوادة خلال الحروب البونية بمراحلها الثلاث.

ولكن يجدر بنا التنويه إلى أنه في أوقات لاحقة، وخاصة تحت تأثير النفوذ الإغريقي المتزايد حلت محل القرابين البشرية شيئاً فشيئاً قرابين من الحيوانات وخاصة من الطيور. فقد لوحظ في طبقات الركام الأثري العليا لمعبد تعنيت أن جرار الدفن تحتوي عظاماً متكلّسة لنعاج أو طيور بدلاً من عظام الأطفال.

وعدا عن ذلك يجب القول أن قرطاجة خلال القرنين الأخيرين من تاريخها كانت بحاجة حقيقية إلى كل أبنائها من أجل إمداد الجيش وتأمين احتياجات الدفاع.

يبقى أنه كانت للقرطاجيين آلهة أخرى ثانوية أو صغرى، من بينها واحد يدعى «بيس Bess» صوّروه بشكل متكرّش. وربما كان هذا الإله البداية التي نُسجت عليها كل أساطير الشرهين.

كما يبدو من الممكن القول أن القرطاجيين كانوا «مسكونيين» حيث قبلوا عبادة آلهة غريبة.



الفصل الرابع والعشرون
الفنون والصناعة والزراعة في قرطاجة

● الفنون:

ليس هناك مايدل على وجود قدرات عالية في مجال الإبداع الفني عند فينيقيي الغرب. إذ يلاحظ أن فنهم كان مقتصراً على تحويل بعض المواد إلى الاستخدام العملي، بحيث يمكن اعتبار فنهم صناعة بصورة رئيسية. وهذه الصناعة كانت متطورة جداً في العديد من المجالات مثل التعدين والنسيج والنجارة والخزف.

كان الحرفيون، وخاصة خبراء المعادن، في قرطاجة قد أصبحوا كثيري العدد بعد حرب صقلية ما بين 409 و 338 قبل الميلاد حيث أسر القرطاجيون خلالها أعداداً كبيرة كان فيها كثيرون من الحرفيين. وقد جيء بهؤلاء الأسرى من المدن المخربة إلى قرطاجة وشكلوا فيها طوائف جديدة، وأصبح لهم أولاد وأحفاد في قرطاجة.

ولكن يبدو أن هؤلاء الحرفيين «المرغمين» ظل ينقصهم الشعور بالرابط الوطني والاعتبار الاجتماعي الضروريان لتفتح الذهن المبدع. ومع ذلك فمما تجدر رؤيته ذلك العدد الكبير من الحلي والأدوات ذات الطابع الشرقي والذوق اللطيف، المعروضة في متحف باردو. وأظن أن القسم الأعظم من هذه الحلي والأدوات قد صنع في ورشات الحرفيين في صور ومصر أو في سيراكوز. أهم ما يجدر ذكره عتاد حربي من الذهب (درع وخوذة وغير ذلك) يقال أنه كان لـ «Jugurtha»(*). وهو بالتأكيد إنتاج ورشة يونانية صنعته بناء على طلب أحد القرطاجيين الأغنياء. ويشعر المرء أن إعطاء العمل في هذا العتاد صبغة شرقية لم يكن إلا لإثارة الإعجاب عند طالبه. لكن أسلوب الرسم والبناء الكلاسيكي للأعمدة الذي تغطيه الزخرفة إنما يوحي بمزهرية صنعت من خزف السيفر «Sevres» حسب تعليمات ورغبات أمير قطري أو كويتي في أيامنا هذه.

(*) أحد الملوك النوميديين من القرن الثاني قبل الميلاد. حاول بعد زوال قرطاجة أن يستفيد من الأوضاع الحرجة في روما ليلعب دوراً كبيراً في شمال أفريقيا. لكنه لاقى حتفه على يد الرومان ـ المحقق ـ

● **الصناعة:**

إن ما يجب أخذه بعين الإعتبار في قرطاجة قبل كل شيء هو أنها كانت المدينة الصناعية الأولى في العالم.

يؤكد «أبيان Appian» في حديثه بهذا الصدد أنه في سنة 148 قبل الميلاد عندما شن الرومان حرب إبادة، استطاعت قرطاجة رغم انحطاط الأحوال فيها أن تصنع في ترساناتها الخاصة خلال أسابيع قليلة ثلاثة آلاف درع وتسعة آلاف سيف وخمسة عشر ألف رمح وثلاثة آلاف منجنيق.

ومن المعروف أيضاً أن ورشات السفن الحربية كانت تنتج وبسرعة كبيرة سفناً هامة. فلو أخذنا بعين الإعتبار الأرقام الواردة في وصف رحلة حنون البحرية - التي سترد فيما بعد - لأدركنا أن السفن القرطاجية كانت تستطيع بالتأكيد أن تنقل عدة مئات من الأشخاص وتحمل أحواضها بكميات كبيرة من البضائع أو المؤن.

● **المرافىء:**

إذا كان فينيقيو الغرب قد برعوا في صناعة السفن فقد كانوا بالتأكيد أصحاب قدرات عالية في بناء المرافىء. ولقد أدهشتني بالفعل عظمة المرافىء في قرطاجة التي يتطابق الشكل الدائري فيها والآخر البيضوي بصورة دقيقة مع وصف الكتاب القدماء من ذلك العصر، الذين تحدثوا عن مرفأ دائري داخلي كان يعتبر مرفأ حربياً مفصولاً عن المرفأ التجاري بواسطة مضيق كان بالإمكان أن تُمَدَّ فيه سلاسل عند الضرورة لمنع المرور. كما يفترض أن البحيرتين الساحليتين اللتين نراهما اليوم في حي «سلامبو» تتطابق إحداهما مع المرفأ الحربي والأخرى مع المرفأ التجاري. غير أنه من الممكن أيضاً أن تكون كلتاهما قد شكلتا قديماً المرفأ الحربي. وأما المرفأ التجاري فكان أمامياً وكبيراً يحميه في أقصى الجنوب رصيف اصطناعي رُصف بحجارة بناء فيما بين الأرصفة التي تدعى الـ «خوما Choma»(*).

كان المرفأ إذاً يشتمل على رصيف طويل يبلغ 425 متراً غرباً وحاجز عريض بطول 100 متر والرصيف الغربي وأرصفة أخرى لاتحصى وعدد كبير من الأحواض التي كان من الممكن تجفيف بعضها، ثم مخازن ومستودعات على طول الأرصفة التي تعلوها صفوف من الأعمدة.

(*) تسمية: أخذت عن اليونانية ويقصد بها ساحات تكديس البضائع في الموانىء - المحقق -

وأخيراً، كان يرتفع في الجزيرة التي تتوسط الميناء بناء كبير لمركز القيادة البحرية الذي عُثر على قواعده. ومن المعروف أنه من مركز القيادة في الميناء كانت تعطى التعليمات للسفن بواسطة الأبواق والمرايا العاكسة لأشعة الشمس على مسافة طويلة.

وكانت تستطيع أن ترسو في ميناء قرطاجة مئتان وعشرون سفينة حربية.

الواقع أن هذه المنشآت تبدو لنا على درجة كبيرة من الأهمية حتى بالمقارنة مع سعة أعمال المرافىء المعاصرة. ومن المحتمل أن القرطاجيين قد أعدّوا مراسيهم الكثيرة العدد على طول شواطىء المتوسط والأطلسي بطريقة بسيطة ولكن بكل التجهيزات الضرورية.

● **الزراعة:**

حاز القرطاجيون على شهرة كبيرة في مجال الزراعة، وذلك باستخدامهم لأول مرة أسلوب الاستثمار المكثف للأرض وعنايتهم الممتازة بالزيتون والكروم. ويرجع إليهم الفضل في ازدهار الزراعة بتلك المنطقة من الشمال الأفريقي التي أثارت أطماع الرومان حتى صاروا يعتبرونها مخزناً حقيقياً للغلال.

ومن أبرز تجديدات القرطاجيين في المجال الزراعي كان ابتكار تطعيم أشجار الزيتون البرية الذي ساعد على مر القرون على إنتاج أفضل زيتون على سواحل البحر المتوسط وفي العالم.

وأكثر من اشتهر إسمه «ماجون Magon» القرطاجي الذي وضع أول بحث في أصول الزراعة في العالم ومازال الزراعيون حتى اليوم يقتدون به ولم يزل بعد خمسة وعشرين قرناً يعتبر أباً للزراعة، كما يعتبر بحثه كتاباً موجزاً في التربية والتدجين. وهو يقدم أمثلة عن تكاثر الماشية وتحسين ذلك.

ومن الجدير بنا معرفته أن القرطاجيين الذين سبقوا أجدادهم فينيقيي الشرق في مجالات عدة، قد نجحوا بطريقة مثلى في إنماء الزراعة والإنتاج الزراعي على الأرض الأفريقية. ولكن هذا النجاح ليس مدهشاً تماماً. فالواقع أن الصوريين والصيدونيين كانوا مضطرين للإبحار لتأمين أسباب تطورهم وذلك نظراً لمتاخمتهم للسلسلة الجبلية ومناوشات جيرانهم المختلفين المستمرة معهم.

لقد قام الفينيقيون ولأول مرة بعد نقلهم الزراعة إلى الغرب بتنظيم الأراضي الضرورية للإستفادة مما ورثوه عن أجدادهم أهل المدن الكنعانية في مجال الزراعة، بالإضافة إلى عقليتهم المنفتحة وروح المغامرة التي كانت عندهم.

لكن هذا الامتداد الإقليمي الذي كان سليماً خلال القرون الأولى، وكان سبباً لارتباطٍ قوي بالموطن الجديد في الأرض الأفريقية، وهذا الإزدهار الكبير الذي رافقه، كان مما أثار الحسد عند الرومان وجر إلى حروب مدمرة فيما بعد. ويمكن القول بهذا الصدد أن القرطاجيين لم يظلّوا أصحاب السيادة على البحار فقط ولم يظلوا رجال تلك المراكز التجارية المنتشرة هنا وهناك، ولم يعد هدفهم الإبحار فقط خلال بضع ساعات نحو أماكن جديدة أو مصائر مجهولة، فقد وجدوا أنفسهم مشدودين إلى الأرض التي زرعوها وطوروها وأحسنوا استثمارها، وبما أنهم أصبحوا مالكين لهذه الأرض المنتجة فقد صاروا مضطرين لحمايتها عسكرياً، وهذا ما سيكون بداية الطريق لسقوطهم.

الفصل الخامس والعشرون
المجتمع القرطاجي

هناك وصف جيد وممتع للمجتمع القرطاجي من قبل «جيلبرت وكوليت شارلز - بيكارد Gilbert et Colette Charles - Picard» في كتابهما المتضمن لمستندات والمسمى: «الحياة اليومية في قرطاجة في زمن هنيبعل».

لدى مطالعتي لهذا الكتاب لم أستطع إلا أن أقارن بين شبح مدينة مثل نيويورك وشبح العاصمة القرطاجية القديمة حيث العيش متوقفٌ على العمل والإنتاج. أبنية عالية (من 5 إلى 8 طوابق على وجه التقدير) الأمر الذي كان خيالياً بالنسبة لذلك العصر. وهذه الأبنية بمقاييس ذلك الزمن توازي تماماً ناطحات السحاب في عصرنا هذا. كما أن حي الأعمال المسمى «بيرسا» والذي أخذت منه كلمة «بورصة» يذكرني تماماً بالـ «وول ستريت... Wall Street».

● الطبقة الأرستقراطية:

كانت المعايير الأساسية للطبقة الأرستقراطية تقوم على نجاح أعمالها وما تقدمه من مساعدات مالية. وقد تطورت هذه الطبقة بشكل ملحوظ. لكن هناك ما يشير إلى أن المجتمع القرطاجي كان يعيش حياة تقشف إلى حدٍ ما رغم مساعدات الأرستقراطية الضخمة.

كان على رأس الدولة رجلان يحملان لقب «قاضي قرطاجة» (بالفينيقية: شُوفِط). وكانت لهذين الحاكمين (القاضيين) مكانة رفيعة، ويساعدهما برلمان مكون من ثلاث مائة عضو منتخبين من بين الأرستقراطية القرطاجية، بالإضافة إلى مجلس شورى مكون من مئة عضو مكلفين بالشؤون القضائية. ويبدو أن كل الوظائف العادية ووسائط الخدمات العامة كانت متروكة إلى أفراد أقليات غريبة (غير فينيقية) كانوا يسّهلون هجرتها.

وإذا كان عدد سكان قرطاجة في زمنٍ ما قد بلغ سبعمائة ألف نسمة فإننا نستطيع أن نقدر بسهولة وجود طبقة كادحة غير متجانسة تكونت من حوالي أربعة إلى خمسة آلاف فرد منهم: تجار صغار وعمال أحواض السفن وحمالون وحرفيون وصناع. وقد

ذكرنا فيما سبق أن فئة الحرفيين خبراء التعدين كانت قد تشكلت في البداية من الأسرى أو المهجرين بعد حروب صقلية. كما كان بعض الإغريق قد أقاموا في قرطاجة، ولابد أيضاً أن بعض الأفريقيين من السود كانوا يسكنونها، وأن جماعات من البدو أيضاً جاءت لتستقر فيها. وكانت هذه الأقليات المختلفة عندما تحس بخطر الحرب تزيد من عدد الجنود المرتزقة الذين كانت قرطاجة تجمعهم من مختلف أنحاء العالم المعروف تقريباً لتأمين حمايتها.

● **المرتزقة:**

الاعتقاد السائد هو أن الشباب القرطاجيين كانوا بصورة عامة يفضلون أن يكونوا رجال أعمال وأصحاب مصارف أو قباطنة سفن أو أن يعملوا في الاستيراد والتصدير على أن يذهبوا إلى الحروب. ويعتبر الكثيرون أن ذلك كان واحداً من جملة أسباب سقوط قرطاجة. وهؤلاء الرجال الذين كانوا أصحاب ثروات قبل كل شيء، اعتقدوا بأنه يكفي أن يكون لديهم المال لكي ينتصروا في المعارك. وقد بدّدوا ثروات طائلة بلا جدوى سواء في صنع السفن الحربية الكثيرة أو في تجهيز الفيلة المدرعة أو في تشكيل وتمويل فرق الجنود الأجنبية، ولم يفلحوا بالواقع إلا في إثارة سخط وتذمّر شعوب العالم في ذلك الحين.

● **رجال المال:**

كان الرأسماليون وأصحاب السفن الكبار قد أتقنوا دون شك كل فنون التجارة الدولية الكبيرة. حيث كانت أعمالهم تشتمل على كل ماهو معروف في عصرنا هذا من تأمينات ساحلية واعتمادات مصرفية وقروض من كل الأنواع وتمويل بالمساهمةأو بالحساب وكل أشكال الحسومات والإجراءات التجارية. وفي قرطاجة ظهر أول قرض له صفة دولية.

ولم يفسحوا مجالاً لتقدم الإغريق عليهم في سك العملية، فقاموا في ورشاتهم بسك عملتهم من الفضة والذهب.

إن البورصة التي كانت تحدد الأسعار العالمية للمواد الأولية والتي صارت تمول العمليات الحربية كان لها دور في سقوط قرطاجة.

● **اللغة:**

هذا الخليط الكبير من الأجناس والأقليات المهاجرة الذي عاش في قرطاجة كان

يكتب ويتكلم بلغة مشتقة مباشرة من الفينيقية (الكنعانية) أطلق عليها اسم «اللغة البُونية» وقد أشرنا إلى أصل هذه الكلمة فيما سبق. وقد اشتقت منها لفظتا «Poenus» و«Poenulus» حيث كان الرومان يقصدون بذلك القرطاجيين. وقد اعتاد الرومان أن يركبّوا قصصاً مسلّية مبالغ فيها عن لهجة البونيين. وبعد احتلال قرطاجة أصبح يُنظر إلى المستوطنين الرومان فيها وكأنهم أوربّيو الجزائر في عصرنا الحالي. وما علينا إلّا الرجوع إلى مسرحية «Plaute» المسماة «Poenulus» لنرى فيها المغامرات الهزلية لقرطاجي لدى زيارته لروما.

● **الأزياء:**

كان اللباس الإعتيادي عند القرطاجيين شرقياً مؤلفاً مما يشبه الجلباب والصدرية (أو السترة) والأرجح أنه كان شديد الشبه بالقفطان الحالي. ويبدو أن القرطاجيين لم يكونوا مهتمين بمظهر الجمال الجسدي كما كان اليونان. ويبدو أيضاً أنهم اعتبروا السّمنة الخفيفة (أو البدانة الممتلئة) دلالة على النجاح في الأعمال. وكان اليونان أول من أدخل إلى أفريقيا الشمالية ذات الطابع الشرقي اللباس القصير والآلهة العارية. والأرجح أن هذه الألبسة القصيرة لم تكن محبذة في المجتمع القرطاجي كما هو الحال بالنسبة لـ «الميني جوب» في أيامنا هذه في البلاد العربية.



الفصل السادس والعشرون
معبد الحب الكبير في صقلية

بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد كان انتشار القرطاجيين وتأسيسهم للمراكز التجارية قد شمل كل الحوض الغربي للبحر المتوسط.

أما بالنسبة لصقلية فكان فينيقيو الشرق منذ ما قبل ذلك قد استقروا في الجهات الشرقية منها. ثم أن مجيء الإغريق إلى هذه المنطقة من جهة وتأسيس قرطاجة من جهة أخرى اضطرهم لترك هذه الجهة والتجمع في القسم الغربي من الجزيرة حيث كان هذا الموقع المقابل لقرطاجة يؤمن لهم المراقبة شبه الكاملة لحركة مرور السفن بين غربي البحر المتوسط وشرقيه.

عند استقرار الفينيقيين في الجهة الغربية من صقلية لم يجدوا أية مقاومة من جهة قبائل الـ «إيليميين Elymes»، بل على العكس رحّبوا بهم وتحالفوا معهم إلى درجة الانصهار فيهم تقريباً.

كانت الأماكن الرئيسية لاستيطان الفينيقيين في «بانورم Panorme» المسماة اليوم «باليرمو Palermo» وفي جزيرة صغيرة تدعى «موتيي Motye» وفيما بين «باليرمو» و«موتيي» يرتفع جبل «إيريكس Eryx» المشرف على البحر. وعلى قمته كان ذلك المعبد الشهير المكرس لـ «عشتروت/ أفروديت» والذي قام على أساس موغل في القدم. وكانت كاهنات البغاء المقدس في هذا المعبد تقوم على خدمة البحارة والمسافرين. ويعتقد أنه أسس لاجتذاب عدد كبير من سكان قرطاجة، حيث يعتقد أن الآداب الاجتماعية في قرطاجة كانت تنفر من الفسق وممارسة البغاء. وإضافة لذلك فإن عبادة الإلهة «تعنيت» التي طغت أخيراً على عبادة «عشتروت» خلال القرن الرابع ق.م كانت قد ألغت من المعابد القرطاجية طقوس البغاء الجماعي. ولذلك فمن الواضح أن القرطاجيين كانوا يجدون فوق جبل «إيريكس» ـ الذي يبعد عن قرطاجة مسافة بضع ساعات إبحاراً ـ ما يشبع رغباتهم مع القيام في الوقت نفسه بواجباتهم في التعبّد.

ومما يُحكى أنه من هذه القمة التي يسميها الإيطاليون اليوم قمة «إيريس Erice» كان ممكناً في الجو الصحو عدّ أشرعة السفن في ميناء قرطاجة. وقد حالفني الحظ

شخصياً أن أصل إلى قمة جبل «إيريس» في جو صحو، ولكن حتى باستخدام المنظار لم أتمكن من رؤية أقرب قطعة من الساحل الأفريقي. ولابد أن الرومان الذين تناقلوا خرافة كهذه قد التبس عليهم الأمر فظنوا لمعان مرايا أمير البحر هي أشرعة السفن. لم يعد بامكاننا اليوم أن نرى شيئاً من معبد إلهة الحب، إذ أنه بعدما دثر قامت على أنقاضه أبنية أخرى متعاقبة على مر العصور كان آخرها قصر من القرون الوسطى. لكن الموقع بقيت له روعته وبساطته. وقد نجحت إدارة الآثار الإيطالية في الكشف عن أساس المعبد القديم وأسس أبنية أخرى قامت فوقه لم تعرف هويتها بعد.

غير بعيد عن جبل «إيريس» المذكور كانت جزيرة «موتيي» الصغيرة تقع هي أيضاً في أقصى الغرب من صقلية. وكان هذا الموقع استراتيجياً بالنسبة للتجارة القرطاجية. كما كانت تعتبر بشكل رئيسي مركز استيراد الفضة من مملكة ترشيش ومن ثم تباع للإغريق الذين يسكنون في سيراكوز بشرقي صقلية والذين سكّوا نقوداً على شكل النقود القرطاجية الأولى.

يوجد اليوم في باليرمو متحف جمعت فيه الكنوز الأثرية وخاصة القرطاجية، التي وجدت في تلك المنطقة. وقد أثار إعجابي بشكل خاص. تابوتان حجريان منحوتان على شكل إنسان ويقال أنهما من صيدون، أحدهما يمثل امرأة شابة ترتدي فستاناً صنعت طياته من المرمر، أما تقاطيع الوجه الخشنة بعض الشيء فقد تم تجميلها، ويعتبر هذا امتداداً للتأثير الإغريقي القديم.

الفصل السابع والعشرون

جَرْبَة

تشبه جربه واحةً كبيرة متوضعةً على سطح الماء ليس بعيداًعن الحدود بين تونس وطرابلس. ويبدو أن لهذه الجزيرة حكاية طويلة حيكت منها أساطير غريبة لاتُعدّ.

كان يسميها القدماء «الجزيرة المسطحة»، والواقع أن أعلى ارتفاع لها عن سطح البحر يتراوح بين 15 و20 متراً.

ويقال أن الرحالة «أوليس Ulysse» قد جاء إليها وأطال المكوث فيها بعد أن تذوق لأول مرة طعم أزهار اللوطس، هذه الأزهار التي كانت تجلب النسيان. ويروي «هومير» أن السكان كانوا يقتاتون بهذه الأزهار البرية ولذلك أطلقت عليهم تسمية «اللوطسيين». ولكن في هذه الأيام من المحال أن نجد مثل هذه الأزهار، فهل ياترى قُصد بها التمر الذي يوجد في هذه الجزيرة والذي يختلف طعمه عن التمر الذي نجده في أي مكان آخر؟...

أما الشاعر «فيكتور بيرارد Victor Berard» فقد كانت كلمة «لوطس» بالنسبة إليه ذات مدلول شاعري جميل، إذ يمكن أن تكون قد جاءت من كلمة «Lethe» اليونانية التي تعني النسيان.

لقد أرشدني أحد سكان الجزيرة إلى الساحل الصغير الذي يُعتقد أن الرحالة «أوليس» كان قد رسا فيه، وهناك بعض الأنقاض من منزل بدا لي أن قواعد بنائه قرطاجية، ومن المحتمل أن «أوليس» أقام فيه أثناء وجوده في الجزيرة.

ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن الفينيقيين قد جاؤوا أيضاً إلى جربة. إذ أن الجزيرة اشتهرت في العصر الروماني بالصباغ الأرجواني الذي كان يُنتج فيها، هذا الصباغ الذي سعى وراءه كبار العاملين على سواحل البحر المتوسط. ويمكننا أن نتخيل مدى أهمية هذه الصناعة لدى تجولنا على شاطىء مدينة القنطرة شمالاً حيث يمتد حقل كبير من بقايا أصداف المرّيق القديمة.

عدا عن أسطورة «أوليس» هناك أسطورة أخرى تقول أن الملك سليمان أتى أيضاً إلى جزيرة جربة، وخلال مكوثه فيها أسس معبداً يهودياً يعتبر من أقدم المعابد في العالم. وقد بقي عبر القرون يُرمز إليه بكنيس لليهود ومزار بجانبه يسمى «La Griba».

ومازال هذا المزار يشهد حركة نشيطة. وقد أكد لي أحد رجال الدين اليهودي الذي تناقشت معه، أن ابن داوود قد جاء إلى هذه الأمكنة حتى قبل تأسيس المعبد.

وبينما كانت تنبعث من الكنيس تراتيل مزامير الملك سليمان استطعت أن أقرأ على مهل نقشاً كان على جدران الكنيس فيه العبارات التالية:

«لقد أُعلم الحجاج الأسخياء بأن هباتهم مخصصة لأولئك الذين يرتلون التوارة المقدسة..

إن تشييد هذا المقام الصغير يعود إلى سفر خروج المعبد البابلي الأول قبل حوالي خمسة وعشرين قرناً.

إذاً كل العطايا قد جمعت لمساعدة العجزة الذين يرغبون بترتيل التوراة المقدسة.

نلتمس من الحجاج أن يكونوا أسخياء والله سيكافئهم على ذلك.

الرجاء خلع الأحذية وتغطية الرأس عند الدخول..

الرجاء عدم التدخين...»

وكانت قد دونت في أسفل هذا النقش أسماء بعض المتبرعين الأسخياء بشكل لوحة تذكارية كالتالي:

Eliaoun Aboulkar
Nedjna Aboulkar
Haouita Nadar
Alfred Cohen
Napoleone Pariente

لقد مر معنا فيما سبق شيء عن العلاقات بين حيرام الكبير ملك صور وبين سليمان، وعن رحلات السفن المشتركة، ولكن الملك سليمان، لم يكن ليستطيع القدوم إلى جربة إلا في سفينة صورية.

هناك آثار فينيقية أخرى على أرض الجزيرة، جرار صنعها الخزافون في جربة. وهي ذات أعناق واسعة وأشكال ضخمة، تشبه تماماً تلك الجرار التي أعيدت إلى تونس من العصر البوني.

لم يعد من الضروري اليوم أن نتناول زهرة اللوطس لكي ننسى الزمن في جزيرة جربه، ففي ذلك السحر الدائم للرمل الأشقر المخملي، وبين زرقة البحر الشفافة وزرقة السماء الغامقة يطيب العكوف على عبادة الشمس فوق الـ «Ludes» ذات القشرة السوداء والستار الأحمر والتي قد تكون من التراث القرطاجي.

الفصل الثامن والعشرون
مالطة وسرّ معابد الكهنة

عند ملتقى تيارات البحر المتوسط كلها كانت جزيرة مالطه الصغيرة، التي استقلت سنة 1965، تعتبر منذ قديم الزمن من أهم النقاط البحرية. وربما تكون هذه الجزيرة من أكثر الجزر غرابة. ولقد زرتها أثناء رحلتي البحرية على طرق الفينيقيين الساحلية.

والمعروف أن القرطاجيين استوطنوها بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد. وقد قام المعهد الإيطالي للدراسات الشرقية باشراف البروفسور «ساباتينو موسكاتي» باكتشافات متعددة فوق المرتفعات المشرفة على الخليج الصغير المسمى «مارساكلوك Marsaxlokk». ومن جملة ماتم الكشف عنه دعائم أكروبول قرطاجي قديم. وفي مكان آخر وجدت نقوش عديدة باللغة البونية (الفينيقية الغربية).

يقع خليج «مارساكلوك» في الجهة الجنوبية الغربية من مالطة، وكان يوجد على الأرجح في هذا الجزء من الجزيرة المرفأ والمدينة مع المنشآت القرطاجية. كان مما اشتهرت به مالطه هو النظام البديع لـ «الفرسان» الذين اقترن اسمهم باسم الجزيرة: «فرسان مالطه»: ـ Chevaliers ـ ويعتبر قصر «سان جان Saint Jean» المشرف بجدرانه المضيئة على ميناء العاصمة «Valette» رمزاً لعظمة هذه الجزيرة التي تحظى باهتمام دولي. وهذه العاصمة «Valette» التي تقوم فوق شبه جزيرة ضيقة محاطة بممرات بحرية، تتمتع بشكل طبوغرافي مثالي لتأسيس قاعدة حربية ساحلية ذات أهمية كبيرة. ولذلك رصد البريطانيون خلال عدة قرون مبالغ كبيرة في مجال الدفاع عن موقعهم بمالطه. ولهذا أيضاً قصفت دول المحور تلك العاصمة بالقنابل خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي الجزيرة أمر آخر يلفت الانتباه وهو اللغة التي يتكلمها المالطيون والأسماء الغريبة للأماكن الجغرافية. إذ نجد على سبيل المثال بلدة باسم: «رباط» أو «مدينة» وأخرى باسم «زيتون» وغيرها باسم «ملياح» أو «صافي»... إلخ حيث شعرت بنفسي في لحظة معينة وكأنني موجود في بلد عربي وعلى التحديد في المغرب.

ولكن هنا أيضاً عدد لايحصى من الأسماء العائدة لأصول أخرى، مثال ذلك:

«Qurendi» و«Zurrieg» التي لها نغمة تذكرنا بألفاظ نسمعها في إقليم الـ «باسك» - بين أسبانيا وفرنسا -.

كما يمكننا استعراض كلمات أخرى مثل: «Zebbug» - «Siggiewi» - «Kirkop» - «Naxxar» - «Ghaxag» - «Xagga — Ix» - «Ix - Xwieki» - ثم «مارساكلوك Marsaxlokk». والملاحظ أن هذه اللفظة الأخيرة عبارة عن مركب مع كلمة عربية (م ر س = مرسى).

هذه الكلمات ذات الوقع الغريب على السمع قد تكون ناتجة عن اختلاط ما بين اللغات المحلية القديمة وبين الفينيقية والبونية.

عدا عن ذلك توجد أسماء من أصل لاتيني. ولا غرابة في ذلك، فالجزيرة عرفت عهداً من الإحتلال الأسباني ثم الإيطالي، الذي ترك آثاراً في الأنحاء المتاخمة للعاصمة. ومن هذه الأسماء:

«فاليتا Valetta» - «فلوريانا Floriana» - «باولا Paola» - «فيتوريوسا Vittoriosa» - « سان روكو San Rocco».

ثم كان للبريطانيين أثرهم أيضاً على الأسماء الجغرافية إذ نجد مثلاً:

«St. Thomas Bay» - « Peter's Pool» - «St. Julians» و«Paul's Bay».

عدا عن هذه الأسماء الغريبة ونفوذ الفرسان المالطيين وطبوغرافية الجزيرة المتميزة فإنها تقدم لنا بعض الروائع الأثرية الأخاذة: إنها تلك المعابد التي لاتحصى والتي تبعث على الإحساس بأن جزيرة مالطه كانت خلال الألف الثالث قبل الميلاد أروع وأغرب مكان للعبادة والحج في كل أنحاء البحر المتوسط.

والواقع أننا نجد في جميع أنحاء الجزيرة تقريباً المعابد التي يتألف مخططها إجمالاً من ثلاث قاعات إهليليجية الشكل متصلة فيما بينها. الأولى يرجح أن تكون تلك القاعة المفتوحة للحجاج والزوار. أما الثانية فذات أبعاد أقل وهي التي يجتمع فيها الكهنة. وأخيراً الثالثة، عبارة عن حجرة بسيطة يعتقد أنها كانت معدة لقدس الأقداس وفيها مذبح. كما عثر على مذابح في الأماكن الجانبية.

لم يبق من هذه المعابد ذات القبب المتهدمة سوى الجدران وفي أعلاها نلاحظ بداية الإنحناء (التقوس) الذي كان يشكل القبة.

والأحجار التي بنيت بها هذه المعابد ضخمة. وقد تمثل نساءً بأجسام بدينة جداً، وربما كان المقصود بذلك أمهات الآلهة، وأما الأشكال الضخمة فمن المحتمل أنها



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

كانت تتوافق مع تذوّق الجمال في ذلك الزمن. يوجد في مالطه وفي جزيرة «كوزو» الصغيرة حوالي المئة من هذه المعابد. والمعبد الرئيسي هو معبد «Tarxien».

وهناك اكتشاف جديد لابد أنه سيزيد من الأهمية الأثرية التي تتراءى لنا حول أصل هذه المعابد وحقيقتها. ففي «باولا» - إحدى القرى الآنفة الذكر - حدث أن انهدم منزل بعض البسطاء فلاحظوا بذلك أن المنزل كان متصلاً مع سرداب يشرف في نهايته على حجرات مليئة بعظام الأموات. عندها سارعوا إلى سدّ هذا المنفذ وكتموا سرّ ذلك طيلة سنوات عديدة خوفاً من أن يكونوا قد كشفوا مصدراً للشرور أو اللعنات. وقبل بضعة عقود من الزمن عُرف هذا السرّ في «باولا» وتم الكشف عن معبد تحت الأرض.

إذا تصورنا كمية عظام الأموات التي كانت توجد هناك (حيث الصالات ممتلئة حتى السقف) لحسبنا بادىء الأمر أنه عبارة عن مدفن كبير جماعي تحت الأرض. ولكن إذا أزحنا هذا التراكم الضخم من العظام بدت لنا قاعات نظامية ذات هندسة معمارية ممتازة، تتصل أعمدتها المعقوفة فيما بينها بطريقة رائعة(*).

وتعتبر نظرية انتقال الموجات الصوتية مظهراً من مظاهر التقنية العالية لهذه المعابد. إذ أن الكاهن يمكث في حجرة جانبية (هيكل خفي) ويتحدث أمام كوّة في الحائط على ارتفاع الرأس، وهذه الكوّة تحدث تكبيراً للأمواج الصوتية التي تصطدم بعد خروجها بالجدران المقوسة المقابلة(*) ثم تمرّ من غرفة إلى أخرى من خلال ثقوب صغيرة. وبهذه الطريقة يكون صوت الكاهن واضحاً وقوياً في الغرف البعيدة عن الهيكل.

وقد قمت بالتجربة بنفسي، إذ جعلت شخصاً يتحدث في المكان المفترض للكاهن وتنقلت في القاعات المختلفة وتأكدت من علم بث الأمواج الصوتية فعلاً، والذي كان مغفلاً في أيامنا رغم التقدم التقني.

لابد أن فينيقيي الشرق كانوا يرسون في مالطة منذ ماقبل تأسيس قرطاجة. والأرجح أن عصر امتدادهم الكبير نحو الغرب قد تزامن مع عصر انحطاط هذه الحضارة المالطية المدهشة. كما يرجّح أن الفينيقيين قد عرفوا أماكن الحج الرائعة هذه في وقت كانت لاتزال فيه تجتذب الزوار بالرغم من انحطاط الحضارة. ولايستبعد أن

(*) لم يتضح شكل البناء من خلال هذا الكلام. ولكني أرجح أن - اتصال الأعمدة المعقوفة - ثم - الجدران المقوسة - قصد بها المؤلف طريقة بناء السقوف بشكل قناطر - المحقق -

يكون الصوريون والصيدونيون قد ابتهلوا إلى إله معبد «Tarxien» عند رسوّهم هناك أو إبحارهم.

عند خروجي من ذلك المعبد (المدفن) في «باولا» فوجئت بإعلان مكتوب بالأحرف اللاتينية يدعوني لحضور القداس الكاثوليكي، وكان مدوناً كما يلي:

«أواش لقيتي الله؟..»...؟ Ouach L'guiti Allah وهذا النقش كان بالمالطية القريبة جداً من العربية العامية ويعني:

«هل وجدت الله؟..».

وهذه المناجاة المباشرة تتفق في مبدئها مع عبارة «هل وجدت المسيح؟..» التي نصادفها في كل مكان تقريباً في البلاد الأنكلوساكسونية بهذا الشكل:

»Have You met Jesus?..«

عندئذٍ رجعت إلى كنيسة «سان جان... Saint Jean»، وكان كما توقعت تماماً، حيث استمعت هناك إلى خطبة (وعظ) بنفس اللهجة العامية المالطية التي كانت قد لفتت انتباهي في الإعلان المذكور. وكما هو الحال عند كل الكاثوليك فإن الذين كانوا يحيطون بي حضّوني على البقاء في الصراط المستقيم الذي رسمه الله القادر. وعندها لاحظت أن مسيحيي مالطة يستخدمون لفظة «الله» وليس لفظة أوربية (مثل God أو Dieu» تعبيراً عن الرب. وهذا يعني أن المسيح عندهم أيضاً هو ابن الله ورسوله.

الفصل التاسع والعشرون

سردينيا ـ المواجهة مع رجال النوراج

يهيأ للمرء في سردينيا أن الفينيقيين قد رحلوا منها أول أه [illegible] إذ أنه لاوجود بعدهم للأثر الإغريقي، وحتى الرومان لم يقيموا سوى منشأة بسيطة وبعيدة عن مواقع القرطاجيين.

تعدّ سردينيا إحدى المناطق الفريدة في العالم من حيث الآثار التي تركها القرطاجيون والتي ماتزال ظاهرة على وجه الأرض رغم اندثار بعضها. يرجح أن فينيقيي الشرق كانوا قد رسوا في جنوبي سردينيا، وربما كان ذلك عندما حملتهم أمواج البحر الهائج أو الرياح المعاكسة مايقارب المسافة الطويلة بين «بوزولي Puzzoli» وبين أوتيكا. ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا قد أقاموا سوى منشآت بسيطة وقتية. إلا أن أهم ما استطاعوا تحقيقه هو معالجة المشكلة الحقيقية لسردينيا ألا وهي الإحتكاك مع رجال النوراج.

ولابد بهذا الصدد من توضيح المقصود بذلك:

النوراج «Nouraghe» أبنية ضخمة مشيدة بحجارة منحوتة ومركبة بشكل رائع، بحيث يشبه البناء قلعة ذات شكل مخروطي.

وربما كانت هذه الأبنية تشتمل على برج واحد أو نسق من الأبراج على شكل مثلث، وربما أيضاً، كما في مدينة «باروميني Barumini» التي لابد أنها كانت عاصمة، حيث اعتمد الشكل المخمس. والقلعة التي لاتزال قائمة حتى اليوم لم تتأثر بعوامل الزمن إلا في أجزائها العليا المنحوتة بشكل دقيق.

وأكثر مايثير دهشة كبار المهندسين المعماريين هو تلك الأشكال الهندسية الجميلة لهذه الأبنية المكونة من قطع كبيرة من الصخر ومن دون تدخل أي عامل آخر كالتراب أو الرمل أو غيره. وأيضاً من دون أن تكون مكومة بشكل عشوائي.

ويعتبر سكان أبنية النوراج هذه أقدم جماعة سكانية في سردينيا. ولابد أنه كانت لهم كبرياؤهم. ويبرهن فنهم المعماري المخصص بأكمله للدفاع الحربي على اهتمامهم

الكبير بفن الدفاع وحبهم للوطن. المعتقد أن هؤلاء السكان كانوا متجمعين على شكل طوائف تحت إمرة رئيس يتولى السلطات المدنية والعسكرية.

وكان الاتصال بين أهم القلاع يتم بواسطة الإشارات البصرية التي تقوم بها دوريات الرصد القابعة على ذرى هذه القلاع.

وبفضل المصورات الرائعة التي حواها مؤلف الفنان «Giovanni Liliu»[1] نستطيع أن نكون فكرة دقيقة عن الشكل الحقيقي لتلك الصروح التي بنيت بين القرنين الثامن عشر والعاشر قبل الميلاد، وهذا على كل حال مادلت عليه طريقة الكربون المشعّ.

ويبدو أن هذا الشعب الذي لم يترك غريباً من قبل يستوطن أرضه، قد استقبل القرطاجيين بكل بساطة لدرجة أنه عاش معهم في تآلف. وهذه الظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية، وهي تتفق مع الصفات الإنسانية والدبلوماسية للفينيقيين.

وليس هناك من صورة أفضل للتعبير عن الوفاق الذي ساد بين سكان جنوب غرب سردينيا وبين الفينيقيين من ذلك التمثال العملاق الذي تحدث عنه بطليموس في جغرافيته. وكان هذا التمثال يرمز للإله بعل ولكنه كان يحمل النقش التالي: «Sardus Pater». وقد اختفى هذا التمثال، لكن التحريات التي قام بها الكتّاب وعلماء الآثار توصلت إلى أنه موجود. إذ يؤكد «بوزانياس Posanias» مكتشف أسلوب «الدليل الأزرق» أن الغرباء الذين يسكنون غرب سردينيا كانوا قد أرسلوا تمثالاً برونزياً للإله «Sardus» إلى «دلفي Delphes» حيث أعجب الحجاج بهذه الهدية.

أما علماء الآثار من جهتهم فقد اكتشفوا أيضاً في جنوب غرب الجزيرة تمثالاً صغيراً للإله الشهير باسم Sardus. ويعتبر الثوب الذي يرتديه بدون حزام من الطراز الفينيقي الصرف.

وقد وجدت دلائل عديدة على الوجود الفينيقي ومازال يتكرر الكشف عن دلائل جديدة في كل أنحاء الجنوب الغربي لسردينيا. ففي «Nora» الواقعة في أقصى الجنوب من الجزيرة بناحية «Capo di Pula» أنقاض يفترض أنها من مدينة القرطاجيين الأولى في سردينيا. وبين هذه الأنقاض اكتشف نصب تذكاري بالغ الأهمية عليه نقش بالفينيقية. ويقدر أنه من القرن التاسع قبل الميلاد، أي أنه معاصر لتأسيس قرطاجة. وقد نقل إلى متحف «Cagliari» حيث يمكن قراءة النقش الذي كتبه الإيطاليون عنه بلغتهم:

---

(1): كتاب «La Civilta Dei Sardi» صدر في 1963 Turin.

Templo Del Capo Di Nogar
Che E, in Sardegna
Prospera Sia Esso
Prospera Sia Tiro
Madre Di Kition Et Narnaka!
Il Quale Templo Acostruito Nogar
In Onore Di Pumai.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن اسم سردينيا ظهر وللمرة الأولى مكتوباً كما يكتب ويلفظ اليوم.

من «نورا Nora» يفترض أن يكون الفينيقيون قد انتشروا في بادئ الأمر على طول الساحل الجنوبي وحتى «Cagliari» وفي جزيرة «سان أنطيوكو Sant Antioco» حيث تم العثور على مقبرة كبيرة ومحرقة بلدة «Sulcis» القديمة مع مجموعة من الجرار التي أبقت عليها في مكانها إدارة الآثار الإيطالية محاطة بستار زجاجي كي لاتتلفها عوامل المناخ.

وكان ذلك بمثابة متحف تُرك في مكانه الحقيقي وترك في نفسي أثراً عميقاً. فإذا ما اتجهنا قليلاً نحو شرق الجزيرة وجدنا أن الفينيقيين قد اهتموا بشكل أساسي بمناجم الحديد التي استمر نشاطها منذ ذلك الزمن حوالي ثمانية وعشرين قرناً أو أكثر. فالواقع أن عصر الحديد أخذ يتطور منذ ذلك العهد (أي عهد الفينيقيين).

يطل على هذه المناجم وعلى سواحل سردينيا الجنوبية جبل «سيراي Sirai» حيث قادني الأستاذ «Ferrucio Barreca» من إدارة الآثار في مدينة «Cagliari» الذي عثر بمساعدة مجموعة من علماء الآثار القادمين من روما على قلعة قرطاجية من القرن السادس قبل الميلاد، وكان اكتشافها صباح اليوم الذي وصلتُ فيه. وقد استطعت أن أميز حدود الحصن الرئيسي المحاط بسور ومراكز أمامية.

وعلى مسافة قصيرة من القلعة كانت توجد فوق منطقة صخرية آثار بونية أخرى: مقبرة كبيرة ومعبد يعود إلى العصر نفسه.

وإلى الشمال بمواجهة «Oristano» استطعت أن أميز فوق شبه جزيرة تسدّ الأفق في الغرب مدينة بونية أخرى ذات أهمية كبيرة تدعى «Tharros» مع كل ملحقاتها حتى مكان محرقة القرابين «توفت» وعلى مسافة بضعة كيلومترات في بلدة للصيادين رأيتهم يصنعون قوارب من رزم القصب شبيهة بتلك التي كانت توجد في مصر

القديمة والتي ذكرتها الرواية التوراتية في قصة موسى عندما ألقي به في أحدها. لكن القرطاجيين لم يثبتوا وجودهم على السواحل فحسب، بل أن وجودهم ومهارتهم السياسية عليه أدلة في داخل الجزيرة. ففي الجهة المقابلة تماماً للقلعة النوراجية في مدينة «باروميني Barumini» يمكن للمرء أن يرى البلدة القرطاجية التي لاتزال شبه سليمة، والجاثمة على ارتفاع أبنية النوراج، مثلما كانت البلدات في العصور الوسطى حول قصور الأسياد.

ولابد أن القرطاجيين كانوا يبادلون حديد سردينيا مع قصدير البحار الباردة ونحاس قبرص. فقد وجدت بالواقع تماثيل صغيرة رائعة صنعها سكان النوراج، علماً أن صنعها يتطلب النحاس والقصدير والجزيرة تفتقر إليهما. وقد اكتشفت من هذه التماثيل أعداد كبيرة وعرضت في متحف «Cagliari» بالقرب من تمثال الإلهة الأم التي يسميها البعض «الأم الصورية» أو أحياناً «أم البحر الأبيض المتوسط». وهذا التمثال عبارة عن صخرة يبلغ ارتفاعها 1.50 متراً وعرضها حوالي ستين سنتمتراً وتوحي تماماً بشكل جزيرة سردينيا، ولكنه بالطبع شكل تقريبي لأن سكان سردينيا في ذلك العصر لم يكونوا ليستطيعوا تكوين فكرة واضحة عن حدود جزيرتهم وشكلها.

وإن مايميز هذه الصخرة ويعطيها دلالتها الأسطورية ـ الدينية هو تلك الأثداء الأربعة التي تظهر بوضوح تام على وجهها.

كان سكان النوراج مزارعين ورعاة لديهم قطعان وأراض. ويدل توزع أبنية النوراج على نوع من التنظيم الإقليمي القائم على الشروط الجغرافية. ويفترض أن أكبر أبنية النوراج كان يقيم فيها «الملك ـ الراعي» الذي كانت سلطته القضائية المعترف بها تساعده على إدارة كل المهام الدينية والسياسية والقضائية والحربية بمساعدة مجلس الشيوخ.

أما الأبراج النوراجية البعيدة فكانت تفيد في إيواء المجموعات المسلحة التي كان بعضها مقيماً والآخر متنقلاً (أي دوريات).

لابد أن حضارة سكان النوراج كانت جامدة وساذجة، ولكنها كانت أيضاً ذات طابع روحاني عميق. وقد ارتبطت هذه الروحانية ارتباطاً مباشراً بالطبيعة. إذ أن الإيمان بالإله كان مقترناً بالجبال والينابيع. ولابد أن طقوس العبادة كانت تقام فوق القمم أكثر مما تقام في المعابد الكائنة تحت الأرض والتي اكتشفت بالقرب من الآبار المقدسة. وقد استخدمت هذه الآبار المقدسة فيما بعد لتعميد الأطفال في أوائل عصر المسيحية وبعضها تحول إلى بيوت للتعميد في العصر المسيحي المتطور. وقد دامت هذه الروحانية

المتأصلة في نفوس سكان النوراج زمناً طويلاً، فسكان سردينيا الحاليون احتفظوا بكبرياء أسلافهم وباستقلالهم وبهذا الإيمان بالقوى الخارقة في الطبيعة الذي يحاول المذهب الكاثوليكي أن يعززه بكثرة التطواف ومواسم الحج في نفس أماكن العبادات الوثنية حيث كانت تقام الطقوس قديماً، تلك العبادات التي ألحقت سريعاً بعبادة المسيح ومريم العذراء.

وهكذا حالفني الحظ وتمكنت من حضور موسم الحج السنوي الكبير «سان ردنتوري San Redentore» الذي يقام بالقرب من «Nuoro» في وسط سردينيا فوق الجبل القديم المقدس لدى سكان سردينيا الأوائل. وقد أخرج الناس بهذه المناسبة كل الألبسة القديمة التي احتفظوا بها وتبين لي أن عدداً كبيراً من الرجال كان يضع تلك القلنسوة التي استخدمها البحارة الفينيقيون، اللينة المحنية نحو الأمام.

كما لاحظت حليةً تزينت بها النساء، من نوع تلك التي عثرت عليها، والتي وُجد منها على السواحل الفينيقية، وهي عبارة عن فتيلة من الذهب يوحي شكلها بالثدي وهي شبيهة بالأثداء العديدة لآلهة الخصب الفينيقية والمصرية.

لقد كان هناك نوع من التداخل أو الإختلاط بين آثار النوراجيين وآثار الفينيقيين سببه الغموض الذي ساد في السابق لدى باحثي ماقبل التاريخ حول دولة سردينيا. وقد ظل الناس طويلاً يعتقدون أن أغلب آثار سردينيا القديمة بما فيها الفن المعماري النوراجي هي من صنع الفينيقيين. إلى أن عقد المؤتمر الكبير في بولونيا عام 1871. ثم أنه في عام 1890 بدأت أول حملة تنقيبات عن الآثار النوراجية. وخلال الفترة الأخيرة تكونت عند علماء الآثار قناعة بأن الحضارة القديمة أو الأولى في سردينيا كانت «إيبرو - ليغورية». يمكن القول أن سردينيي القرن العشرين قد استمدّوا ميلهم الشديد نحو الاستقلال من ذلك الماضي الشاقّ والمرموق. وقد حصلوا على الاستقلال الفعلي من حكومة إيطاليا المركزية وصارت نسبة 90 بالمئة من الضرائب والرسوم المفروضة على السكان السردينيين تعود إلى حكومة الجزيرة المستقلة. وعندما يحضر البوليس المركزي الإيطالي إلى بلدةٍ ما في الجزيرة لإجراء تحقيق معين يُطلب منهم بطريقة مهذبة أن يعودا بعد ثلاثةأيام ليجدوا أمامهم حلاً للمشكلة.

والفلاحون في سردينيا تتملكهم رغبة شديدة وذكية في صنع مايدعى «ماء الحياة» من خلال تقطير الخمر. ويعتبر صنعه ممنوعاً، لذلك أطلقت عليه أيضاً تسمية «Filou de Ferrou» التي تعني: «السلك الحديدي». وتوضيح ذلك هو أن الفلاحين لتجنب المشاكل مع الرقابة المالية والتستر على الأمر كانوا يدفنون القوارير في التراب. ولكي

يتعرفوا على مكانها ثانية كانوا يغرزون في السدادة سلكاً حديدياً ويتركونه يظهر قليلاً فوق وجه التربة. وبذلك يستطيعون العثور بسهولة على مخبأ القوارير. وعندها يدقون الأقداح بكل سرور مع أصدقائهم ومع عابري السبيل على حساب وزير المالية. وبهذا الصدد علمت أنه في سردينيا لايقال كما هو معتاد: «بصحتك!...» - عند تبادل الأنخاب - وإنما يقولون: «Saludi'e trigu» وتعني: «السلام والحبوب».

الفصل الثلاثون
الجزائر القرطاجية «إيكوزيم»

كان الاعتقاد عند بعض باحثي الآثار أن القرطاجيين قد أسسوا محطات للرسّو على طول سواحل الجزائر الحالية وحتى المغرب بمعدل محطة كل حوالي 30 كيلومتراً. وهذا الاعتقاد الذي يبدو لي محتملاً ليس مبنياً إلا على كمية قليلة جداً من الدلائل الأثرية.

ومن الأمثلة المعروفة: «Hippone» التي أصبحت تدعى «Bone» وكانت بالتأكيد مركزاً تجارياً هاماً. وكذلك الأمر «Rusicade» أو (Philippeville) و«Russuccuru» أو (Dellys) و«Rousginiae» أو (Matifou) و«Iole» أو (Cherchell)... وقبل زمن ليس بالبعيد اكتشفت في الجزائر قطع من العملة القرطاجية سُكّت في نفس منطقة اكتشافها. وقد سلط هذا الإكتشاف ضوءاً جديداً على المراكز التجارية القرطاجية على الساحل الجزائري.

صنعت هذه القطع النقدية من خليطة يصعب تحديدها، ولكن ربما تكون من خليطة الرصاص والنحاس. وتظهر على هذه القطع صورة الإله ملقارت الذي نميزه بسهولة من الهراوة التي يحملها بيده اليسرى. وإلى جانب ملقارت نقشت كلمة «إيكوزيم» بالأحرف الفينيقية. هذه التسمية الفينيقية التي غدت عند الإغريق «إيكوزي Eikosi» ثم باللاتينية «إيكوزيوم Icosium» هي مركب من كلمتين: إحداهما «زيم/سيم» التي تعني الجزيرة كما هو الحال في «إيبوزيم» التي هي «إيبيزا Ibiza» و«إينوزيم/إينوسيم Inosim» التي هي جزيرة «St. Pietro» في سردينيا. وكان المقصود بها على الأرجح الجزيرة الصغيرة التي تقع في خليج الجزائر الصغير والتي أصبحت تسمى بالعربية «الجزيرة».

يبقى أن الكلمة الأخرى «إيكوز» تحتمل عدة معانٍ مختلفة، إذ يرى البعض أنها تعني: الشوكة أو العصفور النجس ثم البومه، ويرى فيكتور بيرارد أنها تعني: النورس. وأعتقد أنه يمكن الأخذ بهذا التفسير الأخير.

من غير المعروف على وجه الدقة إلى أيّ زمن ترجع هذه القطعة النقدية التي

وجدت منها نماذج قليلة فقط. وربما لانكون مخطئين إذا أرجعنا تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد وذلك في زمن تشكل ممالك البربر الأولى في نوميديا وموريتانيا.

إن المراكز التجارية القرطاجية في الجزائر لم تترك عملياً أي أثر يثبت وجودها، فلابد في هذه الحال أنها كانت محطات بسيطة ومخازن أكثر منها مدنا. وليست بعض النقوش القرطاجية الحديثة أو اللاتينية المتفرقة سوى دلائل ضعيفة لتحديد مدى النشاط ونوعية التبادل التجاري للفينيقيين في الجزائر. وربما تكون قد وجدت بعض المحطات المتطورة.

يرى البعض أنه كان محظراً إشعال النار على السفن القرطاجية. وكان يجب إلقاء المرساة كل مساءٍ لتحضير وجبة ساخنة على الأقل كل أربع وعشرين ساعة. وكانت هذه الطريقة متبعة في بعض خطوط الملاحة، ولكنها كانت حتماً غير مريحة وطويلة جداً بالنسبة للرحلات البعيدة.

كان الساحل الجزائري إذاً يستقبل في مرافئه السفن المحملة بالبضائع الثقيلة والتي كانت تتجه بشكل بطيء نحو غربي حوض المتوسط، بينما كانت المراكب الشراعية السريعة تنقل على الطرق المباشرة في عرض البحر المسافرين والأشياء الثمينة والسلع الغذائية السريعة التلف.

ويمكن القول أن هاتين الوسيلتين في الإبحار تقابلهما في عصرنا هذا القطارات السريعة والقطارات البطيئة.

الفصل الحادي والثلاثون
التوسع والرحلات الكبرى

حوالي القرن الخامس قبل الميلاد عرف الفينيقيون الغربيون (القرطاجيون) عصراً كبيراً من التوسع.

● **هِملْكون... والبحث عن العنبر:**

أُرسل هملكون من قرطاجة في رحلة طويلة للبحث عن العنبر في البحار الباردة شمالي المحيط الأطلسي. بعد الانطلاق من قرطاجة واجتياز أعمدة هرقل اتجهت الرحلة شمالاً.

الواقـع أنـه لم يبق عن هذه الرحلة سوى حكاية مختصرة راسخة بشكل أجزاء من رسالة في نص المؤرخ الروماني «أفينوس Avienus» الذي يقول فيه:

«كان القرطاجيون يملكون قديماً فيما بعد أعمدة هرقل العديد من المدن والأبراج. وباتجاه الغرب، كما يقول هملكون يوجد البحر الهائج. لذلك لم يغامر أحد بإقامة أي بناء فوق هذا البحر الذي لاحدود له والذي تصطدم أمواجه بعيداً باليابسة... هذا ما رآه هملكون القرطاجي بأم عينيه، وأنا أروي حسب الحوليات القديمة لقرطاجة...».

ثم يصف «أفينوس» شعباً يعيش في شمال أوروبا. إنه الشعب البريطاني الساكن في شبه جزيرة «Cornouailles» أو الشعب الفينيسي في خليج «Morbihan». وهو يتحدث عنهم بهذه العبارات:

«...إنهم يمخرون البحر في مراكبهم. هذه المراكب التي لم تصنع من خشب الصنوبر أو التنوب وإنما صنعت من الجلود. ويستغرق الإنسان يومين إذا أراد الذهاب من هناك (Cornouailles) في السفينة حتى الجزيرة المقدسة، كما كانت تسمى قديماً، (وهي على الأرجح إيرلندا) والتي تحتل مساحة كبيرة في البحر وتعتبر مقر الشعب الإيبيري. وتقع جزيرة Albions جانباً وهي التي زارها هملكون قديماً لمدة أربعة شهور...».

ويقول «بلينيوس» من جهته أن الفينيقيين وصلوا حتى المحيط الجرماني. أما العالم

«Herren» فيفترض أنهم دخلوا إلى بحر البلطيق. ومؤخراً اكتشف عالم الآثار «Schliemann» قلائد من العنبر داخل القبور الفينيقية وأجرى عليها تحاليل لكي يعرف مصدرها فلم تكن سوى عنبر البلطيق. وإن هذا العنبر الذي انتشر فيما بعد في الشرق وفي شمال أفريقيا حيث يندر وجوده، من المحتمل أن يكون القرطاجيون قد أدخلوه إلى هذه المناطق.

● رحلة نيخو البحرية... ورأس الرجاء الصالح:

يذكر هيرودوت في الفصل الرابع من تاريخه أن أحدهم قد روى له أن بعض البحارة الذين كلفهم «نيخو» فرعون مصر في القرن السابع قبل الميلاد بالإبحار حول أفريقيا انطلقوا عبر البحر الأحمر ليدوروا حول الجزء الجنوبي من أفريقيا.

هيرودوت نفسه يقول أنه لايعتقد بهذه الرحلات التي لابد أنها كانت تميل إلى الأسطورة أكثر مما تميل إلى الواقع(*).

● رحلة حنون البحرية:

تعتبر رحلة حنون القرطاجي في استكشاف غربي أفريقيا حدثاً كبيراً. ورغم أن الأسباب الظاهرية لهذه الرحلة كانت اكتشاف جغرافية السواحل الغربية لأفريقيا، فلا بد أن حنون كان يبحث قبل كل شيء إن كان هنالك من سبيل للتوصل عن طريق البحر إلى مصادر الذهب الأفريقية. ولذا سوف نتعرض إلى رحلة حنون هذه لدى بحثنا في طريق الذهب فيما بعد.

(*) أغلب الدراسات الحديثة تعتبر أن رحلة الدوران حول أفريقيا كانت حقيقية وممكنة، لابل أنها ربما كانت عادية لدى المقارنة مع عملية عبور الأطلسي من قبل الفينيقيين.

انظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. فيليب حتى الجزء الأول ص 108 طبعة بيروت 1958. ثم: Karthago (الوارد ذكره في مطلع الفصل الخامس والعشرين) الطبعة الألمانية عن الأصل الفرنسي...... Stuttgart, 1983. P. 235 - 236 وأيضاً:... Sergio Pernigotti: Phoenizier und Aegypter من كتاب: Die Phoenizier. P. 528

(Hoffmann und Campe) Hamburg, 1988. وذلك عن الأصل الإيطالي: I Fenici "Mailand» 1988" - المحقق -

الفصل الثاني والثلاثون

الحروب البونية

إن موضوع بحثي بالأساس هو تحديد إسهامات الفينيقيين في الحضارة الكونية وطرق الملاحة الكبيرة التي شقوها في أعالي البحار. ولهذا كنت قد عزمت على الابتعاد عن مجرى الأحداث التاريخية الذي، ويا للأسف!.. يُبرز المعارك الحربية أكثر مما يؤكد على المنجزات السلمية. ولكن يبدو لي أن الحروب البونية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصير قرطاجة، مما يحتم علينا ألا نهملها.

لقد أشرت بالذكر فيما سبق كيف أن نجاح الرأسماليين وأصحاب السفن في قرطاجة قد جلب عليهم الحسد. وبالتالي فإن حماية مصالحهم، وبالأخص احتكار المعادن الأساسية، كان يجبرهم على الدفاع عن طرق ملاحتهم الساحلية التي كانت دوماً مهددة.

وإن روما في توسيع دائرة نفوذها أكثر فأكثر كانت تأخذ بالمثل القائل: (الاقتصاد يحاذي السياسة)، كما يقال عادة في الخطب الانتخابية. وكانت روما تشعر بأنها مهددة من قبل القواعد القرطاجية القوية التي تحيط بها من كل الجهات في سردينيا وصقلية ومالطة وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالي. ولذلك كانت أهداف الحرب البونية الأولى بالنسبة لروما أن تبعد الأخطار المباشرة التي بدت متاخمة لها. وعندما انتهت الحرب البونية الأولى في سنة 241 قبل الميلاد أخرجت روما القرطاجيين بشكل نهائي من سردينيا وصقلية والجزر الإيولية، وكانت بذلك نهاية السيطرة القرطاجية في البحر المتوسط. لكن البونيين احتفظوا بمراكزهم في أندلوسيا وأفريقيا. وكان يردهم دائماً بواسطة مركز قادس القصدير من «Cornouailles» والفضة من ترشيش. إن المعاهدة التي انتهت بموجبها الحرب البونية الأولى كانت قد قسمت مناطق النفوذ داخل شبه الجزيرة الإيبيرية. وقبلت قرطاجة بما حُدد لها من مناطق نفوذ في إيبيريا. إلا أنه بالرغم من هذه الاتفاقية التي وقعت في سنة 219 قبل الميلاد استولى هانيبعل على «ساجونت Sagonte» وهي مستعمرة هامة في أسبانيا وحليفة لروما.

بعد ذلك بفترة قصيرة (سنة 218) تحركت روما من جديد معلنة الحرب البونية الثانية. وكان ذلك بأن أرسلت إلى قرطاجة وفداً رسمياً من أجل التفاوض. وكان مجلس الشيوخ القرطاجي أثناءها متردداً في اتخاذ قرار، فما كان من رئيس الوفد الروماني المفاوض إلا أن رفع بيده ذيل ردائه وصرخ أمام المجلس القرطاجي: «إني أحمل هنا السلم أو الحرب»، فاختاروا أيهما شئتم!...» فأجاب أعضاء المجلس القرطاجي: «اختر أنت!...» فاختار المبعوث الروماني الحرب.

وكانت حملة هانيبعل الأسطورية، التي قاوم فيها غارات الإيبيريين والترشيشيين المتواصلة دون أن يكترث بالمتاعب التي كان يواجهها بين الحين والآخر مع جنوده المرتزقة.

لكن «بوبليوس سيبيون Publius Scipion» ومن ثم ولده «كورنيليوس» تمكنا من التقدم في إيبيريا واسترجاع «ساجونت Sagont». وأسر في المعركة هسدروبعل برقا أخو هانيبعل(*). ثم اجتاز الرومان إسبانيا كلها حتى الأطلسي واستولوا على ترشيش ثم على قادس عام 206 قبل الميلاد.

خلال هذه المرحلة من الحروب قام هانيبعل بتلك المغامرة الغامضة. إذ أنه في فترة كان الرومان فيها منشغلين بتعزيز احتلالاتهم الجديدة وتنظيم المقاطعات، وبدلاً من أن يدخل قرطاجة كما طلب منه مجلس الشيوخ اجتاز بجيشه (الذي كنا نعتقد أنه هُزم وضعفت عزيمته) جبال البيرينيه وبلاد الغال وعبر نهر الرون مع جيشه وفيلته فوق الطوّافات، ثم اجتاز ممرات جبال الألب ونفذ إلى سهل الـ «بو Po» وخاض سلسلة من المعارك توغل خلالها في إيطاليا باتجاه الجنوب.

(*) أعتقد أن الأصح هو أن هسدوربعل (ويرد أحياناً: آزروبعل) أخا هانيبعل لم يؤسر بل أنه عندما ثبتت له خسارة المعركة قاتل بطريقة انتحارية حتى سقط قتيلاً وسلاحه بيده. وهذا ما ورد في مصادر عديدة استندت إلى كتّاب رومان.

أنظر على سبيل المثال: Woerterbuch der Antike. P. 275, Stuttgart 1988.

جورج مصروعة: هنيبعل. الجزء الأول ص 521 و 523. بيروت 1959/ 1960.

فرانسوا ديكريه: قرطاجة أو امبراطورية البحر:

في الترجمة العربية لـ: عز الدين أحمد عزو. ص 199. الأهالي 1996

ثم المرجع السابق (في هامش الفصل السابق): Die Phoenizier :

Giovanni Brizzi, Hannibals Expedition, P.67.

وتقول هذه المصادر أن الرومان أحضروا رأسه المقطوع وقذفوا به أمام أخيه هانيبعل وهو في معسكره بايطاليا - المحقق -

كانت فكرته كما يبدو هي أن يدخل قرطاجة ليس عن طريق البحر وإنما عن طريق البر، مجتازاً بشكل مباشر إيطاليا كلها، وأن يهزم العدو في عقر داره محتلاً عاصمته.

إن هذه الخطة الجريئة، أو هذا الرهان الذي كان يبدو أنه يتحدى كل القواعد الحربية القديمة، كان لابد له أن ينجح، ولكن هناك مدينة «كابوا Capua» وملذاتها. ويرجح أن هانيبعل الشرقي قد وجد ولأول مرة بعد سنوات من الحملات العسكرية القاسية البيئة التي كان يتوق إليها(*).

انتهت هذه الحملة في الواقع بمأثرة حقيقية، وهي إبحار جيوشه مع كل عتاده وحيواناته على سفن استطاعت أن تقلع رغم حمولتها من سواحل البلد الذي كان في صراع معه.

أما الرومان الذين كان لديهم الوقت لأن يستردوا أنفاسهم فقد قرروا أن يهاجموا عدوهم فوق أرضه. ودخل «سيبيون الأفريقي» الأراضي القرطاجية. وفي سنة 202 قبل الميلاد انتصر في معركة «زاما» الشهيرة.

هناك أمر بهذا الصدد يدعو إلى الدهشة، ففي نهاية حرب ثانية شديدة الضراوة رأى القرطاجيون الذين هزموا على أرضهم أن الرومان قد تركوا لهم فرصة للبقاء من جديد. إن معاهدة السلام لم تفعل شيئاً سوى أنها أقرت بالانتصارات العسكرية للرومان على إسبانيا وترشيش. وهكذا كان لقرطاجة كل الحق في أن تحافظ على كيانها. أما روما فرغم كل تعهداتها كانت تشجع تمردات القبائل الأفريقية.

لكن بالرغم من هذا الوضع الذي لايطاق عرفت قرطاجة ولادة جديدة، مبرهنة مرة أخرى عن شدة البأس.

وفي عام 149 قبل الميلاد تذرعت روما بأول حجة جاءتها لتلقي بنفسها في الحرب البونية الثالثة. وكانت تلك حرب الفناء التي سجلت فيها قرطاجة صموداً بطولياً. كان الجنود الرومان مضطرين للقتال في المدينة شارعاً بشارع ومنزلاً بمنزل. وانتشر الغليان في قرطاجة وتشتت السكان وولى هانيبعل هارباً وذلك لم يكن معهوداً بالنسبة

(*) بخصوص إقامة جيش هانيبعل في «كابوا» وتأثيرات هذه الإقامة سلبياًعلى مجرى الحرب يمكن الرجوع إلى جورج مصروعة في كتاب «هنيبعل» الجزء الأول ص 436 - 437. ومن المعروف عند الباحثين في تاريخ قرطاجة أن فشل حملة هانيبعل الإيطالية له أسباب جوهرية متعددة. ومع ذلك فالإقامة في شتاء تلك السنة في كابوا برزت في واجهة تلك الأسباب - المحقق -

للتقاليد القرطاجية القديمة التي تبجّل الانتحار التكفيري في النار(*). إن موقفه يدعو للاعتقاد أن هذا المحارب المشهور، الذي ربما كان دمه غربياً أكثر منه شرقياً، لابد أنه انساق وراء عمل لاإرادي، مغربي أكثر منه فينيقي. وبهذا الصدد أود أن أذكر على سبل المثال بعض رؤساء قبائل الأوراس أو الأطلس الذين فضلوا أثناء الحملات الفرنسية أن يذهبوا ليموتوا من الألم والجوع منعزلين في كهوف على أن يقبلوا بالهزيمة.

(*) ربما كان الاختصار الشديد لهذا الموضوع الهام وتقديمه بشكل نتف بسيطة وسريعة هو الذي سبب بعض الإرتباك في المعلومات والاضطراب في التسلسل التاريخي عند المؤلف. فالمعروف من خلال كل المصادر التي ذكرتها في الحواشي السابقة ومصادر أخرى غيرها أن هانيبعل أولاً: لم يولّ هارباً كما تقول هذه العبارة، وثانياً: لم يكن خروجه من قرطاجة بعد سنة 149 خلال حرب الإبادة هذه، بل أنه كان منذ سنة 195 قبل الميلاد قد غادر قرطاجة إلى سوريا عندما أحس بأن خصومه في الدولة القرطاجية نفسها يحاولون تسليمه للرومان، وفي وقت لاحق غادر سوريا أيضاً ونزل عند ملك «بيثينيا». ولما أحس أن الرومان ماضون في ملاحقته وطلبوا من ملك «بيثينيا» تسليمه أيضاً فضل الموت بنفسه فتناول سمّاً كان يحمله، وذلك في سنة 183، أي قبل احتلال الرومان قرطاجة بأكثر من ثلاثين عاماً. انظر المراجع السابقة ـ المحقق ـ

الفصل الثالث والثلاثون

البقاء أو «بعد زوال قرطاجة»

لقد دمر الرومان قرطاجة تماماً، ولكنهم لم يفلحوا في تحطيم وإزالة الروح البونية التي عاشت في شمال أفريقيا وبقيت آثارها حتى يومنا هذا متمثلة في أمور عديدة منها اللباس والحلي والخزف والتقنيات الزراعية التي ابتكرها «ماجون» وبعض أشكال السلوك أو بعض المعتقدات أيضاً.

وفي بداية العصر المسيحي وبالرغم من كل الجهود التي بذلها الرومان لإسدال الستار على أولئك المهزومين القدماء (القرطاجيين) فقد استمرت حضارة وشكل من أشكال الفنون بحيث دعيت هذه الفترة بالبونية الجديدة. وكانت حينذاك لاتزال تقدم القرابين للإلاهة تعنيت، ولكن هذه القرابين لم تكن من الأطفال بل من الثيران والطيور. وتبرهن لنا بعض المسلات التي اكتشفت في تونس أن البربر الذين كانوا مضطرين لأن يسلّموا بآلهة الرومان بقوا يتركون أمكنة الصدارة في أعالي المسلات للإلهة تعنيت وحتى للثالوث الفينيقي أيضاً: بعل - عشتروت - ملقارت. وهذا بعد ثلاث أو أربع مائة سنة من زوال دولة قرطاجة.

وحتى القرن الثالث الميلادي كان الحكام الرومان لشمال أفريقيا (قرطاجة سابقاً) يحملون اللقب الفينيقي «شُوفط» بلفظته اللاتينية «Suffet أو Sufes» أي «قاضي قرطاجة». كما كان على القديس أوغسطين، بعد ستة قرون من خراب قرطاجة، أن يلقي مواعظه أو خطبه باللغة البونية ليوضح للناس مايريد أن يقول عندما كان يمارس تعليم الدين في منطقة «هيبون Hippon» التي تسمى اليوم «بون». وهناك أمور كثيرة أخرى يصعب عدها، فروما لم تستطع إطلاقاً أن تمحو عند سكان الشمال الأفريقي ذكرى قرطاجة والأفكار التي جاءتهم بها من الشرق وكل أشكال الأعمال الحسنة، والآلهة أيضاً، التي كان لديهم متسع من الوقت لعبادتها. هذا وإن نزعة الحنين إلى الوطن بالنسبة للمجتمعات الشرقية تجعلنا ندرك بشكل أفضل مدى السرعة النسبية التي تقبّل فيها المغاربة وخاصة التونسيون الإسلام واستيطان العرب، وفيما بعد استيطان الترك.

● **وفي القرن العشرين:**

خلال هذا القرن الحالي أصبحت تونس، التي تعد خليفة قرطاجة، بلداً اجتمعت فيه الدقة الشرقية والعقلية الفينيقية المغامرة وبأس الأفارقة والتصوف وشعور الإسلام وبعض النرجيلات وبعض الوجوه المشوربة (وهذا من التراث التركي)، والكل ممزوج بالثقافة الفرنسية. ومن فرنسيي اللغة هؤلاء كانت تونس الحديثة تريد أن تشكل (دون التخلي عن اللغة العربية) منتدى عالمياً كبيراً مؤلفاً من مئة وستين مليون عضواً، والكل يتفق حول فكر موحّد يقوم على الاستقلالية والتمييز.

إن العثور على آثار قرطاجة في تونس البيضاء والحديثة يشكل متعة كبيرة بالنسبة للباحثين. وفي متحف باردو أول مايسترعي الانتباه هو تلك المسلات التي تصور الإلاهة تعنيت، وتلك الجواهر المصنوعة من عجينة زجاجية وهي أول شكل من أشكال الحلي المقلدة. وتمثل غالباً وجوهاً بشرية ساخرة أو صوراً هزلية يرجح أنها صور بعض النماذج العادية لسكان قرطاجة، والتي لها أشكال تبعث على الضحك.

ويجدر بنا طبعاً أن نحاول مشاهدة موقع قرطاجة القديمة، فما علينا إلا أن نذهب إلى هناك بالقطار الصغير عند طلوع الفجر، ذلك القطار الصغير الذي يبدو وكأنه يسير فوق البحيرة الشاطئية، مثلما سار المسيح فوق المياه. ولابد من رؤية الشمس وهي تشرق من وراء الجبل المقدس لدى القرطاجيين، وتذهب ـ مثلما ذهب تشرشل ـ لتستجم في موقع زاما.

هناك جادة عريضة تتجه نحو مركز قرطاجة القديمة الذي كان يحيط به سور يحمي المعابد والقصور وخاصة حي الأعمال «بيرسا» الذي حول اليوم إلى حدائق وفيلات هادئة.

وليس بعيداً عن تونس وفي آخر رأس بون لابد من مشاهدة تلك المقالع الضخمة التي انتزعت منها حجارة قرطاجة على مر الزمن. وهناك أيضاً «قرقوان» تلك القرية البونية الكبيرة التي اشتهرت بمنازلها ذات الحمامات الإفرادية.

أضف إلى هذا أن تونس اليوم بقيت بلداً قائماً على بورجوازية ريفية متينة يعيش أفرادها في ضياع وليسوا متفرقين في الأرياف. وقد أطلق عبد العزيز إدريس على حضارتهم اسم «حضارة الضياع». وإن كان فينيقيو الغرب قد تركوا لنا دلائل تبين تمسكاً بالأرض ونجاحاً في الزراعة لايضاهى، كان أحد أسبابه قرب الأراضي الخصبة، فقد ساعدهم أيضاً في سعيهم وراء الثراء موقعهم الجغرافي الذي أمن لهم الاتصال مع طريق الذهب الأسطوري الذي يعبر الصحارى.

الجزء الرابع

مع فينيقيي الغرب
على طريق الذهب

الفصل الرابع والثلاثون
عبر الصحارى
طريق الذهب البرّي

يبدو أن القرطاجيين سعوا منذ بداية استيطانهم في شمال أفريقيا إلى الاتصال بجنوبها عبر النقاط المؤدية إلى طريق الذهب.

إن كتابات المؤرخين القدماء بالإضافة إلى الشيء المتناقل والنقوش الصخرية في الصحراء تجعلنا نفترض أنه كان يوجد منذ عهود قديمة جداً طريق يمر عبر الصحراء من وإلى أماكن الذهب. والمفترض أيضاً أن عربات تجرها الخيول كانت تعبر هذا الطريق، إذ أن ظهور العربات يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد(*).

● الجرميون:

هذه العربات التي استخدمت في الصحراء كان يقوم بصنعها شعب أسطوري (لانملك عنه معلومات واضحة) يدعى أفراده بـ «الجرميين». وكان عبارة عن جماعات قبلية أفريقية جاءت من جنوبي طرابلس وكانت قد احتكرت وسائل النقل العابرة لأفريقيا.

كانت خطوط سيرهم تبدأ من ساحل البحر المتوسط وجنوب تونس لتلتقي كما يبدو في «جاراما» عاصمة الجرميين وتدعى اليوم «جرْما» ولابد أن العربات المنطلقة من «جرما» مجتازة مضائق الـ «تبستي Tibesti» كانت تصل إلى مرتفعات الـ «تاسيلي Tassili» خلال أسبوعين.

ومن هناك كانت قوافل الجرميين تسلك طريقين مختلفين: أحدهما باتجاه الصحراء الغربية ونهر السنغال والثاني صوب الجنوب باتجاه بحيرة تشاد والنيجر. أما فيما يتعلق بالاتجاه الثاني فالأمر غير مؤكد تماماً، لأن النقوش الصخرية التي تشير إلى العربات غير متوفرة في هذا الاتجاه، وعلى العكس فكلما اقتربنا من الغرب كثرت الدلائل على

(*) لابل أن العربات كانت معروفة ومستخدمة منذ الألف الثاني. ويكفي أن نعرف أن الحثيين في أوج قوتهم خلال القرن الرابع عشر ق.م. استخدموا العربة القتالية في حروبهم. انظر أيضاً الحاشية التالية - المحقق -

وجود العربات. ولابد أنه كان يوجد لجماعات الجرميين فرع هام على حدود الصحراء. وفي هذه المنطقة أيضاً يبدو أنه كان يوجد طريق للعربات باتجاه الجنوب يلتقي بالطريق الآتية من الشرق في أنحاء موريتانيا الحالية وليس بعيداً عن نهر السنغال.

وتظهر لنا العربات منقوشة على الصخور يجرها حصانان أو أربعة، كما هو الحال بالنسبة لعربات الهكسوس(*) أو تلك التي استخدمها الرومان. ولكن يمكن هنا أن نتساءل كيف كانوا يؤمنون الماء لشرب الخيول أثناء عبور الطريق الصحراوي الطويل؟... لو أن هذه المشكلة وجدت في أيامنا هذه لكانت متعذرة الحل. ولكن كل الدلائل تشير إلى أنه في ذلك العصر - قبل 3000 سنة - كانت الصحراء الأفريقية أكثر رطوبة وحياة من اليوم. وهذا ماتبين في الدراسات الكثيرة التي تمت خلال السنوات الأخيرة.

إن مجموعة الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة في مرتفعات «تاسيلي» بالقرب من «جانيت Djanet» والتي كشفتها للعالم أعمال الباحث «هنري لوت Henri Iothe» تبرهن على أنه في ذلك العصر كانت توجد أنهار ومناطق خضراء ومراع كانت تسرح فيها قطعان هائلة من المواشي. ويبدو أن مصادر المياه كانت كثيرة وبالتالي فإن تأمين العلف والماء للخيول لم يكن يعتبر مشكلة.

ويرجح أن هذه العربات كانت تنقل باتجاه الجنوب المنتجات المصنوعة والأقمشة وعجينة الزجاج (أو الأدوات الزجاجية) الآتية من حوض البحر المتوسط. وفي الاتجاه المعاكس كانت العربات تجلب دون شك من أفريقيا السوداء مسحوق الذهب والعاج وبعض الأخشاب الثمينة والصمغ، وربما أيضاً اليد العاملة من أجل الصناعة وعدا عن ذلك المرتزقة من أجل الحروب.

وللتمكن من احتكار الاستيراد والتصدير كان على فينيقيي قرطاجة أن يثبتوا أقدامهم قدر الإمكان في جنوب تونس وطرابلس حيث وجدت من جهة أخرى آثار واضحة تدل على تلك السياسة التجارية.

● **طرابلس:**

كانت منطقة طرابلس الغرب قديماً منطقة وصول القوافل حيث يتم تبادل البضائع

(*) هذا يناقض مرة أخرى ماذكره المؤلف في مطلع هذا الفصل (الحاشية السابقة) من أن ظهور العربات كان في الألف الأول قبل الميلاد، لأن الهكسوس الذين استخدموا العربات كانت سيطرتهم على مصر مابين القرنين الثامن عشر والسادس عشر قبل الميلاد.

المستوردة مع البضائع الأفريقية. ففي البلاد نفسها كانت توجد طيور النعام التي كانت تربى من أجل بيضها وريشها. وكان بيض النعام يستخدم في تزيين مداخل البيوت الفينيقية والبونية. والبيضة نفسها بشكلها الجميل كانت تمثل رمزاً. وقد اعتبروا أن لوجود البيض قرب أبواب المنازل أثره الحسن في إبعاد «العين الشريرة أو الحاسدة». ليس هذا فحسب، وإنما لزيادة الأثر السحري في البيض كان الفينيقيون يرسمون على قشوره صورة عين بواسطة صباغ الحناء والأرجوان(*).

وفي الكثير من المواقع القرطاجية بمنطقة البحر المتوسط تم العثور على بيض النعام مرسوماً عليه صورة العين التي تطور أسلوبها مع الزمن.

لقد أنشئت المراكز التجارية في طرابلس الغرب على يد القرطاجيين حوالي القرن السادس قبل الميلاد في مناطق يرجح أنه كانت فيها لسفن فينيقيي الشرق موانئ بسيطة قبل ذلك.

كانت هناك ثلاث مناطق متقاربة في تلك الناحية الغنية من شمال أفريقيا وهي: «صبراتا Sabratha» و«ليبتيس Leptis» و«أويا Oea».

ويقول الشاعر «سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus» أن «صبراتا» و«لبتيس» قد احتلهما الصوريون أما «أويا» فقد احتلها المهاجرون القادمون من صقلية والذين انضموا إلى الـ «إيليميين». وأمام التهديد المتمثل بالإغريق المستوطنين في إقليم «كيرينه Kyrene» كان القرطاجيون مضطرين لتحويل مراكزهم التجارية البسيطة إلى مراكز تجارية/ حربية قوية بشكل فعلي. وقد ثبت ذلك من خلال التحريات الأثرية والأشياء القديمة التي اكتشفت مؤخراً في منطقة «لبتيس ماجنا Leptis Magna» في القبور البونية تحت المسرح والتي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

ولكي يتجنب القرطاجيون في طرابلس حصول أي خلاف أو مواجهة عسكرية مع إغريق إقليم «كيرينه» سعوا إلى إقامة حد بشكل ثابت ونهائي بين مناطق النفوذ الإغريقية والقرطاجية في هذا الجزء من أفريقيا.

وبهذا الصدد تروى قصة غريبة، هي قصة الأخوة «فيلينه Philenes» الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية التحديد واقتسام الأراضي في تلك الناحية الصحراوية الشاسعة

(*) من المعروف أن معتقدات من هذا النوع لانزال نلاحظ استمراريتها في البلاد السورية عند بعض أولئك الذين نعتبرهم البسطاء من الناس، إذ يلجأ البعض للكتابة على بيضة مفرغة بقصد إبعاد الشر عن إنسان أو حيوان أو نبات أو غير ذلك - المحقق -

التي تمتد بين طرابلس وكيرينه. وذلك بأن اتفق الطرفان (القرطاجيون والإغريق) على أن يطلق كل منهما عدّائَيْن من عاصمته وتكون نقطة تلاقي العدائين الأربعة هي الحد الفاصل بين منطقتي النفوذ.

وسواء أكان القرطاجيون حاذقين في تنفيذ العملية أو كان الأخوة «فيلينه» عدائين أقوياء فإن النتيجة أسفرت عن نقطة التقاء تبعد ثلثي المسافة عن قرطاجة وثلثها فقط عن «كيرينه» احتجّ الإغريق على هذه النتيجة مؤكدين أنه لابد أن يكون هناك خداع في العملية. واقترحوا عند ذلك أنهم يقبلون بالنتيجة وبالحد الذي وصل إليه القرطاجيون إذا قبل الإخوة «فيلينهِ» بأن يدفنوا أنفسهم أحياءً ليبرهنوا على حسن نواياهم وبراءتهم من الخداع.

وقبل الأخوة بذلك على الفور.

اختفى على مر السنين نصب تذكاري كان قد أقيم لتخليد ذكرى تلك الشجاعة والتضحية الوطنية. ولكن الموقع ظل يدعى بعد ذلك «Arae Philenorum» بمعنى - ساحة الأخوة فيلينه - وبقي الحد الأكثر رسوخاً بين طرابلس الغرب وكيرينه.

● **صبراتا:**

في صبراتا وفوق أنقاض المباني القرطاجية قام الرومان ببناء مدينة فسيحة وفخمة. ويعد المسرح بأعمدته البالغة القدم أروع مثال على الفن المعماري الروماني. وكما في كل المدن الأخرى في هذا الجزء من أفريقيا فإن المباني البيزنطية قد طغت على قسم من الطبقة الأثرية الرومانية.

من المدينة القديمة ومن خلال الأعمدة يمكن للمرء أن يرى على بعد حوالي 200 إلى 300 متراً من الشاطئ الرملي سلسلة من الصخور التي تجعل زبد الأمواج يتدفق دائماً في مكان واحد. وبالواقع فإن ذلك ليس صخوراً حقيقية أو طبيعية، وإنما هي بقايا من السد القديم الذي بناه القرطاجيون في مياه البحر ثم أجرى الرومان عليه بعض التحسينات. وكانت الغاية منه حماية المرفأ.

أما من جهة الداخل فإن صبراتا ليست بعيدة عن الصحراء المواجهة لها والتي تجمّع أمام أسوار المدينة رِمالها المدوّمة باستمرار.

● **طرابلس:**

لقد أصبحت طرابلس - وهي مدينة «أويا Oea» القديمة - العاصمة الحديثة للدولة

الليبية المعاصرة. وهي مدينة كبيرة مصممة بشكل جيد، وكثيرة النشاط حيث أن فيها خليطاً من السكان متعددي الجنسيات. فنجد رجال أعمال من لندن وبحارة من اليونان ونبلاء إيطاليين وليبيين متحدرين من جماعات الجرميين (الذين سبق ذكرهم). هذا وإن عائدات البترول قد ساعدت بشكل جيد على رفع المستوى المادي في هذه الدولة.

● «لبتيس ماجنا Leptis Magna»:

هي المدينة الأكثر عظمة في ذلك الزمن بين كل المدن الواقعة في أفريقيا الشمالية (طبعاً باستثناء قرطاجة). وكان موقعها المنعزل مابين الصحراء والبحر يزيد من عظمتها.

وربما كان من أهم أسباب فخامتها أنها مسقط رأس «سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus» الذي حكم الامبراطورية الرومانية مابين 193 و 211 ميلادية، وقد أحب هذه المدينة منذ طفولته. وكانت لهذا الإمبراطور زوجة لاتتكلم إلا باللغة البونية (القرطاجية) وأما اللاتينية فكانت تتكلمها بشكل سيء. ويعرف عنه أن كان فخوراً بأصله وسعيداً بعائلته ذات الطبائع والعادات الشرقية والتي كانت من جهتها تحس بالإستغراب إزاء النظام الصارم السائد في قصر الإمبراطور الروماني.

في تلك المدينة لاحظت وجود العديد من النقوش القرطاجية، ولكن ما أدهشني هو فكرة ازدواجية اللغة (اللاتينية إلى جانب القرطاجية)، إذ يشعر المرء رغم الأهمية الخاصة للأحرف اللاتينية أن هناك نوعاً من التنازل من قبل السيطرة الرومانية لمصلحة اللغة البونية. ومن المعروف أن خراب قرطاجة قد سبق حكم «سبتيميوس سيفيروس» بعدة قرون. ومع ذلك لم يكن يروق للرومان تعلق الفلاحين الليبيين وهم من أصول بربرية بلغة تلك المدينة الكبيرة التي زالت فيما بعد. وقد تم كشف الرمال عن آثارها في العشرينات من هذا القرن.

● تراجع الطريق البري للذهب:

لابد أن الجفاف التدريجي لمنطقة الصحارى، الذي كان موضوع جدل في الأوساط العلمية، قد ازداد بشكل فعلي منذ القرن الخامس قبل الميلاد. وهناك مايدعو لاعتقاد جازم بأن الجرميين قد واجهوا صعوبات كثيرة في إرسال قوافلهم عبر الصحراء التي كانت قد بدأت تأخذ شكلها الحالي القاحل، وبالتالي فإن أرباحهم وتكاليف النقل كانت ترتفع أكثر فأكثر.

وهذا مادفع بالقرطاجيين إلى البحث عن الذهب عبر الطريق الساحلي المباشر مفتتحين بذلك خط ملاحة حول المغرب وأفريقيا.

وهناك أيضاً نجد تفسير الاستكشاف الذي قام به حنون القرطاجي. فاعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد أصبح افتتاح طريق الذهب الساحلي والإبقاء عليه ضرورة ملحّة بالنسبة لقرطاجة.

ولكن... ماذا كان مصير الجرميين؟...

الأرجح أنهم تخلوا عن عرباتهم شيئاً فشيئاً. وعندما ظهرت في المغرب أولى الجمال الآتية من الجزيرة العربية قبل ميلاد المسيح بزمن قصير استأنف الجرميون خطوط سيرهم التي لم ينسوها، وباستخدام الجمال غدت هذه الطرق طرق القوافل والهجرات الصحراوية الكبيرة.

الفصل الخامس والثلاثون
رحلة حنون البحرية

حدثت في الربع الأول من القرن الخامس قبل الميلاد مأثرة دونت في سجلات الاستكشاف البحري تحت عنوان «رحلة حنون البحرية»(*).

ومن المفترض أن عائلة حنون ظهرت فيها سلسلة من الشخصيات البارزة شغلت مناصب في الدولة القرطاجية عدا عن الأميرال حنون الذي اشتهر من خلال هذه الرحلة.

كانت أحداث هذه الرحلة قد نقشت في معبد ملقارت في قرطاجة ولكن لسوء الحظ هُدّم المعبد مثلما هدّمت قرطاجة نفسها.

والمعلومات التي وصلتنا عن هذه الرحلة مأخوذة بالواقع عن نص يوناني دونه بعض الناسخين اليونان.

ولكن النص اليوناني رغم التفاصيل التي يحتويها يلاحظ فيه بعض الغموض والعبارات المثيرة للتساؤل. وهذا يعود لسببين: الأول هو أن الغموض في بعض الأماكن قد يكون سببه أخطاء الناسخين. والثاني هو أن نقص الوضوح والتفاصيل قد يكون سببه هو أن التقرير الأصلي الذي قدمه حنون عن رحلته كان معظمه مدوّناً في أسرار الدولة لأسباب اقتصادية واستراتيجية، بحيث يمكن القول أن الغايات الفعلية لهذه الرحلة (ألا وهي البحث عن مصادر الذهب) لم يكن من الممكن إعلانها رسمياً، وأن أجزاء التقرير التي دونت في المعبد والمتعلقة بوصف أحداث الرحلة وأخطارها قد بالغوا فيها من أجل الإيحاء بالرعب وإبعاد المنافسين. وهو أمر عرف عن القرطاجيين في رحلاتهم الأطلسية.

وقد جاءت أخبار الرحلة حسب النص اليوناني مرتبة في فقرات قصيرة ومتسلسلة على الشكل التالي:

«... إنها قصة الرحلة الطويلة التي قام بها حنون ملك القرطاجيين في بلاد ليبيا،

(*) ولكن أغلب المصادر ترى أن هذه الرحلة كانت في القرن السادس قبل الميلاد وليس الخامس، وترجح تحديداً سنة 530 ق.م - المحقق -

خارج أعمدة هرقل، والتي نقشها على صخرة في معبد كرونوس (الذي هو معبد ملقارت).

1 ـ قرر القرطاجيون أن يبحر حنون بعيداً عن أعمدة هرقل ويؤسس مستعمرات فينيقية ـ أفريقية. عندئذ أبحرت ستون سفينة حاملة على ظهرها حوالي ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء ومؤناً وتجهيزات ضرورية.

2 ـ وبعد أن أبحر حنون لمدة يومين فيما وراء أعمدة هرقل قام بتأسيس أول مدينة وسميت حينئذٍ «ثيمياثيريون». وكانت تشرف على سهل واسع.

3 ـ ولدى إبحارنا باتجاه الغرب وصلنا إلى «سولويس Soloeis» وهو رأس ساحلي في ليبيا مغطى بالأشجار. وقد أسسنا هناك معبداً باسم الإله «بوسيدون».

4 ـ وبعد أن أبحرنا باتجاه الشرق مدة نصف يوم بلغنا بحيرة تبعد قليلاً عن ساحل البحر ومحاطة بالأعشاب الطويلة التي كانت تتغذى بها بعض الفيلة وحيوانات أخرى متوحشة.

5 ـ خلال يوم كامل من الإبحار وصلنا إلى ساحل أنشأنا عليه خمس مدن جديدة وهي: «كاريكون تايخوس Karikon - Teichos» ـ «غيته Gytte» ـ «أكرا Akra» ـ «مليتّا Melitta» ـ «أرامبيس Arambys».

6 ـ ثم تابعنا طريقنا فوصلنا إلى نهر «ليكسوس Lixus» العريض الذي ينبع من ليبيا. وعلى مسافة منه رأينا بعض البدو الرحل الذين يعرفون باسم الـ «ليكسيت Lixites» تتقدمهم قطعانهم. مكثنا عندهم بعض الوقت وأصبحت بيننا وبينهم مودّة.

7 ـ في داخل البلاد مناطق مليئة بالحيوانات المتوحشة الثائرة وفيها جبال شاهقة. ويعيش هناك سكان اثيوبيون لايستقبلون الغرباء. ويزعمون أن نهر «ليكسوس» يجري من هذه المنطقة، وأنه في قلب تلك الجبال تسكن جماعات تدعى بالـ «تروغلوديتيين Troglodytes» أفرادها لهم أشكال غريبة ويستطيعون ـ كما روى لنا الليكسيتيون ـ أن يسابقوا الخيول في الركض.

8 ـ وبعد أن اصطحبنا معنا بعض المترجمين من بدو الليكسيت أبحرنا مدة يومين باتجاه الجنوب بمواجهة ساحل مقفر ولدى إبحارنا يوماً آخر باتجاه الشرق مررنا بجزيرة صغيرة على طرف أحد الخلجان. أقمنا هناك منشأة وأسميناها «كرنه Kerne». وقدّرنا لدى رجوعنا إلى خط سير الرحلة أننا أصبحنا بمواجهة قرطاجة، حيث أن الرحلة من

قرطاجة إلى أعمدة هرقل كانت تبدو أنها تقارب الرحلة التي قطعناها من أعمدة هرقل إلى «كرنه Kerne».

9 ـ من هنا أبحرنا أمام نهر يدعى «كريتس Chretes» وبلغنا بحيرة توجد فيها ثلاث جزر أكبر مساحة من جزيرة «كرنه».

ولما استأنفنا الإبحار لمدة يوم وصلنا إلى طرف البحيرة التي يشرف عليها جبل شاهق يسكنه أناس متوحشون يرتدون جلود الحيوانات، وقد قذفونا بالحجارة ومنعونا من الاقتراب والرسو.

10 ـ من هناك تابعنا الإبحار أيضاً فبلغنا نهراً آخر كبيراً ومليئاً بالتماسيح وأفراس النهر. عندئذ عدنا إلى جزيرة «كرنه».

11 ـ ثم أبحرنا باتجاه الجنوب مدة اثني عشر يوماً بمواجهة الساحل الذي كان مكتظاً بالإثيوبيين. وكانوا يهربون لدى رؤيتنا. ولغتهم غير مفهومة حتى بالنسبة للمترجمين الليكسيتيين الذين كانوا معنا.

12 ـ وفي اليوم الأخير رسونا بالقرب من جبال شامخة مكسوة بأشجار تفوح من أخشابها رائحة زكية.

13 ـ أبحرنا في تلك الأنحاء مدة يومين فوصلنا إلى خليج كبير كان باستطاعتنا أن نرى على شواطئه عند حلول الظلام نيراناً كبيرة وأخرى أصغر تشتعل في كل الأنحاء بالتناوب.

14 ـ بعد أن أخذنا حاجتنا من المياه أبحرنا عندئذ مدة خمسة أيام بمواجهة السواحل حتى بلغنا خليجاً كبيراً كان يسميه مترجمونا «قرن الغرب» وكانت توجد في هذا الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة مالحة، وفي البحيرة أيضاً جزيرة أخرى صغيرة. خلال النهار لم يكن بإمكاننا أن نرى سوى غابة. لكن عندما أقبل الليل رأينا نيراناً مشتعلة في كل الأنحاء وسمعنا صياحاً عالياً فانتابنا الرعب وقررنا أن نغادر تلك الجزيرة.

15 ـ عندئذ أبحرنا بسرعة كبيرة ونحن نطوف حول ساحل موحش كانت تنبعث منه روائح البخور. وكانت سيول من النار والحمم تنتشر وتمتد حتى البحر وكانت هذه البلاد لايمكن مقاربتها بسبب الحرارة.

16 ـ وغادرنا هذه المنطقة بسرعة كبيرة ونحن نشعر بالرهبة وأبحرنا أيضاً مدة أربعة

أيام. ثم رأينا منطقة في الليل تشتعل النيران في كل أرجائها وفي الوسط كانت توجد نار أعلى مما حولها من النيران بدت لنا وكأنها تلامس النجوم. وأما في النهار فكنا نرى جبلاً مرتفعاً وعرفنا أنهم يسمونه «عربة الآلهة».

17 - استأنفنا الإبحار مدة ثلاثة أيام مجتازين ذلك المكان الذي تسيل فيه الحمم الخطيرة. وبلغنا خليجاً يدعونه «قرن الجنوب».

18 - في أقصى هذا الخليج كانت توجد جزيرة أخرى مليئة بالقرود من بينها عدد كبير من الإناث ذات الأجسام المكسوة بشعر كثيف سماها مترجمونا الغوريلات وقد حاولنا اللحاق بهذه القرود ولكننا لم نستطع الإمساك بأي قرد ذكر إذ أنهم كانوا معتادين على تسلق الأرض الوعرة. وهربوا وهم يقذفوننا بالحجارة كي لانلحق بهم، ولكننا أمسكنا بثلاث إناث أخذن يدافعن بشراسة عن أنفسهن بالأسنان والأظافر ويحاولن الإفلات. عندئذ قتلناهن وسلخنا جلودهن وأخذناها معنا إلى قرطاجة، وكنا حينذاك قد توقفنا عن متابعة الإبحار لنفاذ مؤونتنا وشرعنا في رحلة العودة...».

إن هذا النص الذي نتذوق فيه بلا جدال نكهة مغامرة حقيقية بالرغم من طابعه الأسطوري، قد كان موضعاً للعديد من التأويلات. وبشكل إجمالي لنقل أنه قد وجدت تأويلات مختصرة وتأويلات موسعة. إن خصوم حنون يعتبرون أنه لم يتجاوز سواحل المغرب. أما المتحمسون له فهم مقتنعون بأنه بلغ سواحل الكاميرون. ومعظم الباحثين للنص بشكل عام يرون أنه على كل حال قد بلغ نهر السنغال.

لنحاول أن نحدد النقاط الرئيسية لخط رحلته بالرجوع إلى الافتراضات الأكثر شيوعاً.

في الجهة الجنوبية من مضيق جبل طارق تقع المستعمرة الأولى في المغرب ليس بعيداً عن القنيطرة الحالية، وفي المهدية التي تطل على سهل واسع يدعى سهل الغرب.

أما الرأس المسمى «سولويس Soloeis» - في الفقرة الثالثة - فربما يكون هو الرأس الأبيض الذي تحول اليوم إلى شاطئ صخري مقفر، لكنه كان على الأرجح مكسواً بالأشجار قديماً.

وأما البحيرة المحاطة بالأعشاب الطويلة والتي ستكون فيما بعد موضع نقاش فقد تكون إحدى البحيرات الشاطئية الواقعة على الساحل المغربي.

وأما المدن الخمس فلا بد أن تنطبق على المراكز التجارية الموزعة على طول الساحل المغربي وحتى موريتانيا. ويفترض أن إحدى هذه المدن مماثلة للمنشأة التي كانت فوق

جزيرة موغادور والتي كانت بالتأكيد أحد المراكز التجارية البونية الأكثر نشاطاً على الساحل.

ومن الجدير بالذكر ـ لأولئك الذين يعرفون المغرب جيداً ـ أن من بين الأسماء التي ذكرها حنون اسم «أكرا»، ولكن في المغرب عدة مواقع تحمل اسم «أكرا»، أحدها قريب جداً من المناطق التي تعني بحثنا، أي على مقربة من المحيط الأطلسي، وهو مركز يعج بالنشاط، ويعتبر سوقاً للجمال. ويقع قريباً من وادي الدراع ويقصده كبار رعاة المورس. وهذا مايشجع على الاعتقاد أن النهر المسمى «ليكسوس Lixus» ربما كان هو وادي الدراع وأن الرعاة الـ «ليكسيتيين» هم رعاة المورس الذين مازالوا حتى اليوم يجوبون تلك الأنحاء. وقد ذكر تقرير حنون حينذاك أن بعضاً من هؤلاء الـ «ليكسيتيين» رافقوهم على سفنهم وعملوا كمرشدين لهم ومترجمين. ولاغرابة في ذلك لأن كبار الرعاة الذين كانوا في الصحراء الغربية قد لعبوا دائماً دور الوسطاء بين أفريقيا السوداء وأفريقيا البيضاء.

ولكن من كان يا ترى ساكنو الكهوف هؤلاء، الذين يعيشون في الجبال الغربية من منابع نهر «ليكسوس»؟....

إذا صح أن نهر «ليكسوس» هو بالفعل وادي الدراع الحالي، فإننا نجد في الواقع على المجرى العلوي لهذا النهر وفي الجروف الصخرية هناك كهوفاً قديمة لابد أنه كان يسكنها أسلاف البربر.

وبعد إبحار حنون ومن معه على طول تلك السواحل المقفرة دخل في خليج وجد فيه جزيرة صغيرة ـ في الفقرة 8 ـ وهناك بالحقيقة ثلاث جزر يمكن أن تكون إحداها هي الموصوفة: الأولى هي جزيرة «تيدرا Tydra» في جنوب خليج «ليفرير Levrier» والثانية جزيرة «سان لويس Saint Louis» الواقعة عند مصب نهر السنغال، وإلى الجنوب قليلاً جزيرة «غوري Goree» على بعد بضعة مئات من الأمتار عن «داكار Dakar». وعليه فإن هناك احتمالاً كبيراً أن تكون جزيرة «كرنه Kerne» الواردة عند حنون هي جزيرة «غوري Goree» الحالية الواقعة بين مصب نهر غامبيا ومصب نهر السنغال. ولابد أن الساحل في ذلك المكان ظهر لهم على شكل خليج واسع.

في هذه المرحلة من الرحلة (أو التقرير) نكون قد بلغنا منطقة أسرار الدولة (كما ذكرنا ببداية الفصل). فإذا مضينا في نهر السنغال المعروف باسم «كريتس Chretes»، وإذا ما أخذنا برواية حنون، فإننا نجد أن ذلك البلد الجبلي ورافد النهر الذي نصادفه في

طريقنا ينطبقان على نهر «Fademe» وعلى بلاد «Bambouk» الشهيرة المعروفة ببلاد مناجم الذهب الأسطورية. ومن هنا نستنتج أن هذه البلاد كانت تذخر بثروات هامة، حيث أن حنون يقدم لنا وصفاً للاستقبال الذي لاقاه والذي يمكن أن يُرهب كل الذين حاولوا ربما تقليده.

وبعد تلك البلاد يأتي ذكر النهر المليء بالتماسيح وأفراس النهر والذي يتطابق تماماً مع نهر «غامبيا Gambia».

ثم أنه في الفقرات 12 و 13 و 14 من النص اليوناني نجد أوصافاً مطابقة لشبه جزيرة «Cap - Vert» أو لسواحل «Casamance».

لكن المسافات المبينة من خلال ذكر أيام الإبحار ليست مطابقة أبداً وهذا ربما يكون ناتجاً عن تشويه أو تحريف في النص وخلل تعرض إليه الترتيب الزمني للفقرات.

أما بالنسبة لسيول النيران المتدفقة التي شوهدت وهي تغوص في البحر فقد تكون نيران الأدغال أو صورة مبالغاً فيها لوصف المناخ. إن الذين يذهبون إلى خليج «Benin» عندما يخيم الهدوء المطلق وتشتد الحرارة يدركون أن المرء يشعر وكأنه يستنشق النار. أما فيما يتعلق بالجبل المسمى «عربة الآلهة» فقد يكون نسبة إلى البركان الوحيد الثائر في تلك المنطقة والذي يدعى اليوم جبل الكاميرون. وأخيراً، وفي نهاية هذا الوصف، هناك غنيمة الصيد: فماذا عن الغوريلات التي تدافع عن نفسها بهذه الشراسة؟.. لابد أنها كانت بالنسبة لحنون ومرافقيه البرهان البين عن المخاطر التي تعرضوا لها، وبعبارات أخرى الدليل القاطع على أهمية استكشافهم، وهناك شواهد أخرى تدل على أن الجلود التي جلبها حنون معه قد عرضت في معبد ملقارت (كرونوس) في قرطاجة.

وبشكل عام هناك أخيراً أمر هام تجدر الإشارة إليه. إذ تقول لنا هذه القصة أن ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء من أصل «ليبي - فينيقي» قد أبحروا على ستين سفينة في بداية الرحلة. والمقصود بـ «الليبي - الفينيقي» ذلك الجنس البشري الخاص بقرطاجة والذي كان يتألف من أفريقيين وشرقيين. إذاً لابد أن يكون هؤلاء الناس (المرافقون في الرحلة) بغالبيتهم من دم بربري (من قبائل البربر) وإذ ذاك ليس من العجيب أن يندمج أحفادهم شيئاً فشيئاً مع سكان السواحل الشمالية الغربية لأفريقيا حيث كانوا في الواقع من أقربائهم، وهذا مايمكن أن يفسر انصهارهم التدريجي على مر الزمن.

الفصل السادس والثلاثون

إيبيزا «Ibiza»

قاعدة عسكرية قرطاجية

قام فينيقيو المغرب بتأسيس هذه القاعدة العسكرية «إيبيزا ibiza» بعد مئة وستين عاماً من تأسيس قرطاجة وأعطوها اسم «إيبوزيم/ إيبوسيم Ibosim» ثم صار شكل الاسم فيما بعد حسبما دونه الكتاب اليونان الرومان: «إيبوسوس Ebusus».

تقع جزيرة «إيبيزا» في أقصى جنوب الباليار. وقد كتب ديودور الصقلي في تحديد موقعها: «... إنها تبعد ثلاثة أيام بلياليها إبحاراً عن أعمدة هرقل ومسافة يوم عن البحر الإيبيري ومسافة يوم وليلة عن ليبيا ـ أي أفريقيا ـ...».

كما يصف ديودور المدينة بمنازلها الكبيرة ذات البناء الجيد وبأسوارها العالية وميناءها.

وتشرف المدينة اليوم على قسم كبير من الميناء المحمي بشكل جيد. وتصعد طرقاتها على منحدرات هضبة مرتفعة تدخل ضمن مخطط المدينة الفينيقية. ويبدو أن إيبيزا لم تتعرض إطلاقاً لدمار كامل، وبذلك تعتبر مدينة فينيقية حقيقية لم تفتك بها الحروب والأحقاد بعكس ماحصل لكل من صور وقرطاجة. ويفترض أن المدينة قد حافظت على معالمها الأساسية الأولى طيلة خمسة وعشرين قرناً دون أن يطرأ عليها تغير ملحوظ. وقد أظهر تشابك الأزقة والسلالم والأروقة والطرق المسدودة بيوتاً يرقى معظمها إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي ولكنها دون أدنى شك بنيت فوق أسس البيوت الفينيقية القديمة.

ظلت المدينة القديمة محمية بأسوار تعود بقدمها إلى بضعة قرون فقط ولكنها ليست إلا ترميماً لأسوار فينيقية أقدم منها مع زيادة في ارتفاعها. وتلك الأسوار الفينيقية أثبتت فعاليتها خلال الحرب البونية الثانية حيث أن «سيبيون» كان قد حاصر المدينة عقب دخول القرطاجيين إلى إسبانيا، دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها.

وفي هذا الصدد يقدم ديودور الصقلي تفاصيل أخرى عما كانت عليه إيبيزا في القرن الثالث قبل الميلاد فيقول:

«... عندما لم يتمكن سيبيون من احتلال المدينة قام بنهب الحقول والمنازل الريفية. ويقال أن غنائمه من أعمال النهب هذه فاقت غنائمه من قرطاجة...».

أما اليوم فقد اختلفت الأحوال بالطبع في حقول إيبيزا... إنها تبدو لنا أقل نضارة عما وصفه ديودور. ومع ذلك نرى فيها عدة موارد من بعض الزراعات والكروم وأشجار الخرنوب والزيتون.

وكانت الزراعة المنظمة لأشجار الزيتون قد دخلت تلك الجزيرة على يد الفينيقيين الذين ابتكروا تطعيم الأشجار البرية كما برع أهل قرطاجة في هذا المجال، ويدين لهم حوض البحر المتوسط بأكمله بالفضل في هذا النوع من أشجار الزيتون الشديدة الصلابة والمقاومة.

انتشرت الزراعة على هضاب كثيرة الأودية وموشاة بمزارع ذات جمال طبيعي بسيط. وقد تصادف هنا وهناك فلاحات وقد ارتدين تنانير على شكل زهرة اللوطس المقلوبة حسب التقاليد الشرقية.

وتتزين النساء بتلك الحلي القديمة في أيام الأعياد والأعراس ومناسبات أخرى، وهذه الحلي ذات طابع شرقي قديم عبارة عن لآلئ وإبزيمات مفرغة ومذهبة تعلق بواسطة سلاسل صغيرة تغطي الصدر من الكتف إلى الكتف الآخر بشبه واقية فعلية من الذهب. وهذه المجوهرات هي غالباً ذات تصفيح أو طلاء بالذهب. والإبزيمات كلها مفرغة وغالباً على شكل مخروط مزدوج. كما توجد قطع أخرى تزيينية على السلاسل على نمط الفتائل المعدنية وغيرها.

وتتشابه هذه الحلي تماماً مع تلك التي أوجدها ونشرها القرطاجيون في كل أنحاء حوض البحر المتوسط. ومن جهة أخرى فإن هذه النماذج من السلاسل التي تحملها النساء في جزيرة إيبيزا هذه الأيام تشبه تماماً تلك التي نشاهدها لدى النساء في تونس معلقة على جانبي الوجه. أما الفلاحون المتقدمون في السن فتشاهَد على رؤوسهم كما في سردينيا قلنسوة البحارة الفينيقيين المصنوعة من الصوف والمحنية إلى الأمام أو إلى الجانب.

لقد بقي التأثير الفينيقي خالداً في الجزيرة، إذ نجد أن التجمع الثقافي الأكثر أهمية في إيبيزا أطلقت عليه تسمية «تعنيت»، وفي أعلى مكان في المدينة، وتحديداً في المتحف القديم يوجد في صدر المكان تمثال نصفي يدعى «تعنيت»، ويعتقد أنه في الواقع تمثال للإلاهة «ديميتر» يعود تاريخه إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وهو

العصر الذي كانت فيه عبادة ربة المحاصيل والمزروعات «ديميتر» منتشرة كثيراً في قرطاجة.

وإن هذا التمثال النصفي المصنوع من الطين المشوي هو في الواقع «مبخرة» ويبرز من حوافها العليا فوق رأس الإلاهة قرن الخصب. كما نجد بالطبع في هذا المتحف - وهو أكثر المتاحف التي زرتها على الطرق البحرية الفينيقية إثارة - نجد فيه ذوائب صنعت من الزجاج وجراراً، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة من الطين المشوي يطلق عليها موظفو المتحف بلهجتهم اسم «رجال الثلج». وهي تماثيل صغيرة معرة تتراوح أطوالها بين 13 و 18 سنتمتراً وتمثل بشراً من الجنسين بأعضاء جنسية بارزة، مما يدفع للإعتقاد أن تكون هذه التماثيل قد كرست لعبادةٍ ما يرجح أن لها علاقة بالخصب.

ومن المفروض أن تكون هذه التماثيل من إنجاز فنان محلي، لأنها لاتُظهر علاقة بأي تقليد فني معروف.

ويعتقد أنه كان في «إيبيزا» معبد للإلاهة تعنيت. ولكن من المؤكد وجود معبد مخصص للآلهة رشف وملقارت في نفس الوقت. والشيء الذي يثبت ذلك هو وجود لوح نقش عليه الإهداء (النذر) عثر عليه في مغارة قريبة جداً من إيبيزا. وقد كتب هذا النقش بأحرف فينيقية نستنتج من خلالها أن تاريخ تأسيس المعبد يعود إلى حوالي القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. ويقول النقش: «إلى سيدنا رشف - ملقارت. هذا المعبد الذي نذره س أدر ابن ي آأس ابن ب ر ج د إبن إشمون هيل...».

فوق الهضاب القريبة من القلعة لم يتم التنقيب بشكل كامل عن المقبرة الكبيرة البونية التي توجد تحت الأرض[1] وبالنظر إلى عدد سراديب الدفن وأهميتها نستطيع القول أن إيبيزا كانت بالتأكيد إحدى أهم المنشآت القرطاجية في البحر المتوسط.

توّجتُ إقامتي في إيبيزا باختلاطات هامة مثمرة وخاصة مع شباب التجمع الثقافي «تعنيت» الذين كانوا يجتمعون مساءً ليناقشوا الأغاني والألحان القديمة في الجزيرة. وقد وجدت في بعض هذه الألحان التأكيد على الحنين إلى الشرق. لكن الطابع المسيطر هو طابع القرن الثامن عشر الاسباني.

كما حالفني الحظ بمقابلة السيد «Isidoro Macabich» وهو عالم إيبيزي كبير كما يقول أهل المدينة باحترام.

(1) التل الذي توجد فيه المقبرة يسمى «بويغ الطواحين» ويعني ذلك بوضوح - بالنسبة لفلاح من جبال البيرينيه الشرقية - «جبال الطواحين».

وبالنسبة له تعتبر إيبيزا «عارضة» القرطاجيين في البحر المتوسط الغربي وقاعدة بحرية كان بإمكانهم أن يخبئوا فيهاأسطولاً مهدداً، ونقطة انطلاق للرحلات باتجاه «نوميديا» ـ بشمال أفريقيا ـ أو باتجاه شبه الجزيرة الإيبيرية، بالإضافة إلى كونها ميناءً منذ القرن الخامس قبل الميلاد على طريق الذهب الذي كانت له محطات أقل أهمية في أندلوسيا ـ الأندلس.

الفصل السابع والثلاثون
أندلوسيا (الأندلس)
وجود في كل مكان

في فترة انطلاقة القرطاجيين الكبرى بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد حقق الوجود الفينيقي استقراراً على طول سواحل الأندلس المتوسطية. وقد عُرف عنهم أنهم أقاموا منشأةً كل حوالي ثلاثين كيلومتراً على هذه السواحل. ولكن التحريات الأثرية حتى الآن لم تؤكد إلا على بعض هذه المنشآت وهي: قرطاجنة و«موجاكار Mojacar» و«ريال دي فيرا Real de Vera» و«ألمونيكار Almunecar» التي كانت تدعى في ذلك الوقت «سكسي Sexy» وأخيراً «كرتيا Carteya» التي تقع على مضيق جبل طارق.

وقد ركزت جهودي في البحث على الموقعين الأقل شهرة وهما «موجاكار» و«كرتيا»، ذلك لأني اكتشفت فيهما الصفحات الأكثر أهمية في كتاب قرطاجة الكبير.

في منتصف الطريق بين قرطاجنة و«أليريا Almeria» توجد مجموعة من المواقع ذات أهمية خاصة. ولابد أن تكون هذه المنطقة قد شُكنت منذ ماقبل التاريخ، إذ يرى المرء على الشواطئ الصخرية عدداً لايستهان به من الكهوف. وتظهر مقابر فينيقية على مرتفع صغير وسط السهول. ومن غرائب الصدف أنه على بعد حوالي 200 متر من هذا الموقع تنتصب على الجبل الفيلّا التي كان يقيم فيها الفقيد «لويس سيريت Louis Siret» الذي كرس جزءاً كبيراً من حياته للماضي الفينيقي في أسبانيا وهو الذي قال لوزير أسباني من هيئة التفتيش:

«سيدي الوزير... إذا رغبت بأجمل متحف في العالم... فما عليك إلا أن تغطي التسعين كيلومتراً التي تفصل قرطاجنة عن Almeria بسقف كبير....».

كان علي فيما بعد أن أتثبت من أن «سيريت» كان محقاً فيما قاله. على الشاطئ القريب من تلك المنطقة كنت قد لاحظت وجود أكوام من الحمم المعدنية. وقد روى لي أحدهم قصة غريبة بهذا الصدد قائلاً:

= كان يوجد سابقاً منجم حديد يستغله القرطاجيون. وكانت سفنهم ترسو على طول الرصيف العائم مما ساعدهم على تحميل المعدن. ولكن ذات يوم كان عليهم أن يغادروا البلاد. ولكي لايتركوا المنجم عرضة لاستغلال مزاحمين لهم، يقال أنهم أقاموا بعض شعائر اللعنات وحذروا السكان قائلين أن من يقترب من المنجم سيموت حرقاً بنار إله الشمس. واستمر هذا الاعتقاد الموهوم عند الناس طيلة عدة قرون لم يستفد خلالها أحد من المنجم إطلاقاً إلى أن جاء اليوم الذي غدت فيه أفكار التطور التقني والصناعي موضع اهتمام وعناية بدفع من «Primo de Rivera» وذلك بين عامي 1925 - 1930. وقد قررت أسبانيا أن تبدأ من جديد وبواسطة الوسائل الحديثة بالاستفادة من منجم القرطاجيين القديم هذا.

في اليوم الذي بدأ فيه تشغيل أهل البلد لوحظت عندهم قلة الحماس للذهاب إلى ذلك المنجم الملعون. ومع ذلك بدأت الحفارات والرافعات والمطارق عملها الصاخب. ولكن ذات يوم، وفي اللحظة التي بلغت فيها إحدى فرق العمل دهليزاً جديداً انفجر من الأرض دفق هائل من البخار وغُمر المنجم على الفور بسيول حارقة من جيب مائي كان قد انفجر من قلب الأرض. وقد هلك الكثير من الرجال في هذه الكارثة=.

وضمن إطار مأساوي مكون من المواد المهملة والعوارض الملوية، ووراء جبال من الحمم المعدنية القديمة، استطعت أن أرى تلك البحيرة الكبيرة الملونة بلون الصدأ، والتي ترمز إلى انتقام آلهة الفينيقيين. وفي الجهة الأخرى من الوادي الرسوبي كان ينتظرني اكتشاف أكثر إثارة: فوق بروز صخري مرتفع يطل على المكان الذي يفترض أنه كان خليجاً فيما مضى، تربض قرية متواضعة تدعى «موجاكار Mojacar». يُتوقع أن يكون قد وجد في ذلك المكان مركز للمراقبة وبرج لإعطاء الإشارات وربما أيضاً حصن منيع للقرطاجيين رغم أن التحريات الأثرية لم تثبت ذلك حتى الآن. ولكن موقع هذه القرية بالحقيقة يتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة إذ يشرف على البحر من جهة وعلى داخل البلاد من جهة أخرى.

ومايروى عن هذه القرية جدير بالذكر. إذ يقال أنها بنيت على يد العرب ـ البربر الذين أقاموا في الأندلس طيلة سبعة قرون. وقد حافظت القرية من جهة أخرى على مظهرها مثل قرية من قرى البربر التي نصادفها في جبال المغرب، فلها نفس الأبواب المنخفضة ذات المسامير الكبيرة، ونفس الأقفال ونفس مطارق الأبواب ونفس الجدران.

وإبّان التوسع الإسباني الكبير، عندما احتل من جديد الملك فرديناند والملكة الكاثوليكية إيزابيل في عام 1492 المنطقة وأقاموا معسكرهم في «Real de Vera» -

التي يعود اسمها لذلك الحدث التاريخي - أرسل سكان «موجاكار» المسلمون وفداً يطلب البقاء في إسبانيا والسماح لهم بالإقامة في منازلهم محتفظين بأعرافهم مع بقائهم أوفياء للدين الإسلامي.

ويقال أن إيزابيل قامت بإقناع فرديناند بقبول ولاء المسلمين مع احترام المطالب التي تقدموا بها. وبذلك بقيت «موجاكار» حتى يومنا هذا جزءاً فعلياً من أفريقيا الشمالية على الأرض الاسبانية. وغدا سكانها على مر القرون كاثوليكاً ولكنهم حافظوا في نفس الوقت على التقاليد الإسلامية الأندلسية. ومازالوا ينسجون في الورشات القديمة أغطية وشالات مغربية وتذهب الفتيات إلى النبع وقد ارتدين تنانير طويلة واسعة ووضعت الواحدة منهم على رأسها منديلاً عضت على طرفه بأسنانها فسترت بذلك نصف الوجه. وتذكرنا الجرار التي يحملنها على رؤوسهن بالشكل المستدير للجرار القرطاجية. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت على واجهات المنازل رسماً سحرياً واقياً مطلياً بالقطران على جوانبه المكلّسة. وهذا الرسم لم يكن إلا رمز الإلاهة تعنيت. لقد قاومت قرطاجة على أرض الأندلس الرومان ثم العرب واسبانيا المسيحية.

● **كرتيا** «Carteya»:

في الجهة المواجهة لمدينة طنجة في قلب خليج صغير على ساحل شبه الجزيرة الإيبيرية كانت تحتل مدينة «كرتيا» - أو قرطاجة الصغيرة - موقعاً فريداً في العالم حيث تجمع زوايا الرؤية بين البحر والمحيط وقارتين في آنٍ واحد.

يقال أن هذه المدينة بناها البونيون. ثم احتلها الرومان خلال تطور الأحداث المعروف. ولكن المدينة، التي يعتقد أنها كانت غنية، وجد قسم كبير منها مهدماً حوالي القرن الرابع الميلادي، وذلك إثر كارثة طبيعية سجلها المؤرخون اللاتين. إذ يقال أن مياه البحر تراجعت وجف الخليج وبعد فترة قصيرة عادت الأمواج من جديد وجرف إعصار شديد كل شيء في طريقه.

وبما أن «كرتيا» كانت قد شيدت على منحدر هضبة فإنه بإمكاننا رغم كل شيء أن نرى بقايا الأحياء الأكثر ارتفاعاً.

لقد كان هذا المركز التجاري مزدهراً إلى أن حل به ذلك الخراب. ويبدو أن المصدر الرئيسي من مصادر ثروة هذا المركز كان نوعاً من أنواع الصلصة تعتبر أصلاً لـ «الكتشب Ketchup» المعروف حالياً. وقد رويت لي القصة الطريفة لاكتشاف هذه الصلصة كما يلي: بينما كانت مصلحة التنقيبات الأثرية الإسبانية تقوم بالحفر في

إحدى المناطق عثرت على برميل غطته قشرة سميكة من الملح والرمل، وهي البقايا الملموسة لكارثة الموج العالي، وبعد رفع هذه القشرة ظهرت طبقة متصلبة تشبه الاسفلت، وقد اعتقد البعض بذلك أنهم وصلوا إلى قعر البرميل. وبحذر شديد تم بواسطة المعول كسر قطعة من هذه المادة التي أجري عليها تحليل مبدئي في مدريد ومن ثم في مخبر خاص في موسكو. وقد بينت نتائج التحليل بوضوح أن محتوى البرميل كان مادة متحجرة مكوناتها الأساسية نباتية وحيوانية. وبمقارنة هذا الاكتشاف مع النصوص القديمة استطاعوا أن يحددوا أن هذه المادة عبارة عن صلصة، كانت حتى العصر الروماني لاتزال مطلوبة كثيراً في كل أنحاء البحر المتوسط. وتدعى صلصلة الـ «غاروم garum».

وكانت مكونة بشكل أساسي من نوع خاص من السمك أو الصدف (يقال عنه اليوم فاكهة البحر). كان هذا السمك يملح ويطلى بالزيت ويهرس ثم يحضر بأشكال مختلفة ذات تركيز خفيف ومذاق متنوع ناتج عن مزيج من التوابل والبهارات وأحياناً من زيت الزيتون والبندورة.

ويبدو أنه كانت هناك إيرادات كثيرة من هذا الـ «غاروم» الذي كان يباع في جرار مختومة حسب المذاق مع وضع ماركة الصناعة عليها.

ومنذ مدة ليست طويلة تم بالفعل العثور على حطام سفينة حربية شراعية على السواحل الفرنسية الجنوبية وكانت فيها حمولة من الجرار المملوءة بهذا الـ «غاروم» تحمل أختامها ماركة مصنع «كرتيا».

والمنزل الصغير الذي أقمت فيه خلال هذه المرحلة من أبحاثي والذي يدعى «La Venta los Remos» والواقع في الجهة المقابلة تماماً لحقل التنقيبات، كانت صاحبته تصنع كل يوم نفس الوجبة لعائلتها ونزلائها. وأعترف بأن مذاق تلك الشرائح الريفية التي كانت تعدها قد أعجبني. وكانت في معظم الأحيان مرفقة بصلصة شهية سمراء محمرة كانت السيدة ترفض البوح بطريقة تحضيرها. وربما كانت تصنع الـ «غاروم» نفسه من دون أن تدري.

الفصل الثامن والثلاثون

المغرب وأرجوان «Getulie»

أشار «غوتييه Gautier» في كتابه الهام «ماضي أفريقيا الشمالية» إلى الوصف الغريب لأعمدة هرقل الذي دونه مؤرخ عربي.

في موقع يبدو مطابقاً لموقع طنجة يقال أنه كانت توجد «ثلاثة تماثيل، أصفر وأخضر وأسود» والتي اختفت منذ ذلك الحين، وكان أحدها يحمل على صدره هذا النقش الذي ترويه الأساطير العربية:

«صنعه أبرهة ذو المنال الحميري لإله الشمس لنيل حظوة لديه». تُرى من كان أبرهة ذو المنال؟... الحميري؟... أو الرجل الأحمر؟... ربما كان مجرد رجل فينيقي، حيث أننا نعرف حسب بعض المصادر العلاقة المتينة التي كانت قائمة بين الحميريين والفينيقيين.

ويحتمل أن الفينيقيين وصلوا إلى مناطق محددة من سواحل المغرب في عصر حديث نسبياً، وذلك بين القرنين الثاني عشر والسابع قبل الميلاد. لكن الحميريين الذين قدموا مباشرة من حدود الجزيرة العربية والخليج الفارسي(*) ربما كانوا قد سبقوهم.

وتتحدث الروايات المتناقلة في كل أنحاء المغرب تقريباً عن هجرات قديمة جداً قدمت من الشرق. وقد توصلتُ إلى المصادر القديمة لهذه الروايات التي تتحدث عن تعمير المغرب، وتوصلت إلى الأرض المأهولة بالسكان، التي وجدتها في المغرب طليعة البحارة الفينيقيين.

وعلى ضوء الاكتشافات الأثرية والنصوص والروايات المحكية تظهر لنا بلاد المغرب قديماً كما هي اليوم أرض التلاقي المثالي للشرق والغرب. وفي الواقع نجد في المغرب شواهد هامة تركها أهل الحضارة الأطلسية الذين يمكن أن نسميهم اختصاراً بالأطالسة.

فيما بين الرباط وتيدر في وادي بو رقرق، بالموقع المسمى «نخيله»، تم العثور على

(*) ارجع إلى ماذكرته عن هذه المسألة في تقديم الكتاب.

نصبين تذكاريين رسمت عليهما أشكال نصف دائرية متعاقبة ومتداخلة مع خطوط متلوية توحي بأمواج البحر أو بخط سير الأفعى. وهذه الرسوم مألوفة على العديد من الآثار المغليثية الأخرى على الهدب الأطلسي الأورو - أفريقي.

إذاً فقد كان المغرب، كما كانت جزر الكناري وبريطانيا وجزر الكورنوي وإيرلندا أرضاً للأطالسة قبل أن يكون أرضاً للشرقيين. لابد أن هذا الجنس البشري كان قليل الأهمية مكوناً من أناس بسطاء هم من بقي على قيد الحياة من تلك القارة (الجزيرة) الأطلسية الأسطورية الشهيرة التي يقال أنها غُمرت في الأطلسي واختفت. وربما لم تكن رواية أفلاطون الطريفة عن الـ «أتلانتيس Atlantis» هذه مجرد فكرة أفلاطونية وحسب، بل كان لها على الأرجح أساس من الصحة. وقد تكون إحدى الكوارث الجيولوجية الكبيرة نقطة البداية لهذه القصة الأسطورية.

ويفترض أن مهاجرين جاؤوا من الشرق كانوا قد ساهموا في هذا الإعمار الأول في البلاد المغربية.

ومما يسترعي الاهتمام هو مانجده في المغرب، كما هو الحال في كافة أنحاء أفريقيا الشمالية، من تشابك وتكامل مذهل بين النصوص القديمة وروايات المؤرخين العرب والروايات المحلية الشعبية التي حفظها المطلعون. إن من الأمور التي مازالت منتشرة هي الذكرى الحميرية المتعلقة بـ «الرجال الحمر» والفكرة التي يحملها الكثير من البربر بأنهم متحدرون من الأصل الكنعاني. وفي جنوب المغرب يبدو أن أفواجاً بشرية متعاقبة أتت عبر الطريق الصحراوي القديم قد استقرت ونتج منها العرق البربري المغربي، وذلك بعد الإختلاطات الطويلة مع الأطالسة.

لقد كان المحيط الأطلسي المصدّ الحقيقي والنهائي من جهة الغرب الذي أجبر القادمين على التوقف عن متابعة السير وراء الشمس. ولذلك يقال أنهم استقروا في كل القسم الجنوبي الغربي من المغرب على منحدرات جبال الأطلس الأعلى وأطلس الداخل. وربما تكون هجرات هؤلاء قد تمت بهدوء. وربما يكون بعضها أيضاً قد تم بشكل خطى حثيثة. وقد أبصرت من جهة أخرى أعمالاً مدهشة في أماكن عديدة.

في الجزء الجنوبي من المغرب مابين «تاغونيت» و«محاميد» أتيحت لي الفرصة أن أتحدث مع بعض الرجال الفقهاء الذين كانوا قد حفظوا عبر القرون روايات تتعلق ببعض الجوانب من تاريخ المسيح وداوود.

وفي وسط جبال «بني» يبرز مرتفع صخري كلسي يطل على «تاغونيت» لازال يسمى «جبل داوود». وفوق هضبة مرتفعة وراء تلك الجبال توجد مواقع لم أعرف أكثر منها كآبة. ففي موقع شديد الجفاف، حيث يشعر المرء أنه يتيبّس في مكانه بين حرارة الشمس والحرارة المنبعثة من الأرض، توجد المئات من القبور التي تبعث على التصور أن كارثة حربية وقعت هناك. أيكون قد هلك جيش من العطش والتعب فوق هذه الهضبة العالية؟.. لاأحد يدري.. ومن الذي هلك يا ترى في هذا الموقع المنعزل الذي لايرغب أي إنسان بالبقاء فيه؟... فضلاً عن ذلك كيف يمكن تفسير وجود تلك النماذج من الأشخاص الآسيويين الذين نصادفهم اليوم منتشرين في الجنوب الغربي من المغرب؟.. وفي تلك المنطقة الواقعة بين وادي السوس وأطلس الداخل نجد أن من بين كل عشرة أشخاص واحداً يحمل الملامح الآسيوية الشرقية ـ وجنتان بارزتان وعينان مغوليتان ـ وكذلك كيف يمكننا تفسير وجود فولكلور وأغانٍ شبيهة بتلك التي نسمعها في أذربيجان في الوديان المرتفعة.

إذاً لايوجد في المغرب أصل أو جنس واحد وإنما تنوع كبير من السلالات أساسها العرق البربري كما دعاه الرومان ثم العرب وبعدهم الفرنسيون. ومن جهة أخرى لو أخذنا أفراداً من هذه الجماعات السكانية المختلفة من الريف والأطلس الأوسط والأطلس الأعلى ووادي السوس، لأدركنا أنهم مختلفون تماماً من الناحية الفيزيولوجية رغم أنهم اكتسبوا بمرور الزمن صفات وسلوكاً اجتماعياً متشابهاً تقريباً.

لهذه الأسباب كلها يمكننا أن نسلم بأن الفينيقيين ومن ثم القرطاجيين قد استُقبلوا بالترحيب على السواحل المغربية ولم يعتبروا غزاةً وإنما بمثابة زوار أصدقاء يحمّلهم سحر الشرق. وكانوا مثلما كان البربر القدماء يتمتعون بروحانية تقوم على عبادتي الشمس والخصب. وقد عثرتُ عند الحدود الجنوبية للمغرب على عدد كبير من النقوش المتعلقة بالشمس يعود تاريخها إلى ماقبل العهد الفينيقي. كما عثرت بالقرب من مصاطب التضحية في مواقع مقدسة مختلفة على نقوش صخرية للبقريات تثبت أنه في أقدم العصور كان الناس هناك يعتقدون فعلاً بأسطورة الثور مثلما كان الحال في كنعان وجزيرة كريت. إذا فقد وجد الفينيقيون الأوائل مناخاً مناسباً في المغرب. ويمكن أن يكونوا قد ضمنوا لأنفسهم دون صعوبة مراقبة مضيق جبل طارق الحالي محتكرين بذلك الملاحة في المحيط الأطلسي. ولم يكفّ القرطاجيون عن تدعيم منشآتهم على جانب المضيق. وتبدو هذه المواقع على الساحل المغربي بالغة الأهمية.

● **تطوان:**

بالقرب من تطوان البيضاء الحالية وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات من ساحل البحر المتوسط تقع مدينة «تامودا» الصغيرة، وهي القاعدة الاستراتيجية للقرطاجيين، كما أنها تشرف على داخل مدينة طنجة وعلى الريف. ولابد أنها كانت قديماً مرفأً للسفن، حيث يمكن بالواقع أن نتبين بوضوح تعرجات مصب النهر الكبير القريب جداً والذي طمرته بمرور الزمن كومة من الرمال والطمى.

ليست لدينا معلومات كثيرة عن «تامودا» التي أصبحت فميا بعد قلعة رومانية صغيرة قبل أن ترى تطوان الشمس.

لو أتيح لقرطاجي اليوم أن يزور هذه المنطقة فإنه سيشغف حتماً بتاريخ تطوان التي يعود تأسيسها إلى نهاية العهد العربي في إسبانيا وإعادة فتحها على يد فرديناند وإيزابل.

خلال الربع الأخير من القرن الخامس عشر غادر مسلمو الأندلس جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية على شكل جماعات لكي يستقروا في المغرب فكانوا بذلك «لاجئي» ذلك العصر أو بتعبير آخر «جماعات المشردين» وربما كان عدد أولئك الذين رحلوا مابين الأربعمئة والستمئة ألفاً، استقر عدد كبير منهم في فاس التي كانت في ذلك الوقت مدينة مشهورة واستقر آخرون في الرباط وطنجة. ولكن تطوان استقبلت العدد الأكبر من هؤلاء المهاجرين.

لقد أتوا إلى المغرب حاملين معهم التقاليد الراقية للحياة المدنية التي عاشها مسلمو إسبانيا. فقد حمل البناؤون والرسامون والموسيقيون معهم علمهم وتقاليدهم بالإضافة إلى أدوات العيار التي تسمح لهم بإعادة صنع تحف الجص المنقوشة والسقفيات المطلية والمصابيح ذات الأشكال الهندسية الأنيقة التي كانت تمثل بهاء القصور في كل من غرناطة وقرطبة.

وتعدّ تطوان بالفعل المعهد الفني الكبير الذي ينبض بذلك الفن العربي وتلك الموسيقا الأندلسية اللذين تمسكت بهما العائلات القديمة في تطوان. لقد عرف الفن الشرقي الذي ازدهر في المغرب وإسبانيا أحد أشكاله الأكثر نشاطاً في أقصى الغرب الإسلامي.

وعندما ننظر في خريطة إسبانية ندرك مباشرة أن المناطق التي استوطن فيها العرب في الأندلس أطول فترة تتطابق إلى حد كبير مع المناطق التي استوطنها وعمرها فيما

سبق الفينيقيون والقرطاجيون. كما كانت توجد في هذه المنطقة من الجنوب الغربي الإيبيري مملكة «ترشيش» الأسطورية التي اتضح سابقاً وجود صلات متينة بينها وبين الشرق. إن الشعور الدائم بالحنين إلى الشرق في جنوب إسبانيا كما في شمال أفريقيا، كان دون شك مما سهل مهمة طارق بن زياد الذي فتح أندلوسيا سنة 710 ميلادية على رأس بضعة آلاف من المحاربين. ويحتمل أن السفن التي استخدمها طارق بن زياد كانت شبيهة بتلك التي لايزال يستخدمها الصيادون في انحاء تطوان. إنها قوارب كبيرة ذات كوثل وجؤجؤ ضامرين وتستطيع أن تتقدم بواسطة شراع صغير مربع الشكل أو بواسطة مجاذيف. وهذه السفن شبيهة أيضاً بتلك التي نراها على المسلات التذكارية القرطاجية، ليس لها دفة، ويوجهها مجذاف كبير ملتوي شبيه بالمجاذيف التي كان يصنعها الملاحون القرطاجيون.

● **طنجة:**

يرتبط تاريخ طنجة بالميثولوجية القديمة التي تقول أنها بنيت على يد هرقل الذي، كما نعرف، لم يكن سوى ملقارت الفينيقي، وهذا يجعلنا ننسب هذه المدينة إلى أصل فينيقي.

إن موقع طنجة الأطلسي والمتوسطي في نفس الوقت ذو أهمية استراتيجية كبيرة. فقد ضمن الفينيقيون لأنفسهم نقطة حيوية للسيطرة على المضيق. وعلى مقربة من طنجة، مقابل المحيط الأطلسي، وفي مكان غير بعيد عن المغارة التي تزعم الأسطورة أن هرقل استراح فيها بعد عمله المضني في بناء الأعمدة (أي أعمدة هرقل)، يوجد المركز الصناعي المسمى «كوته Cota». وهو عبارة عن ورشة صناعية مهجورة منذ العهد الروماني كان قد أسسها القرطاجيون. وهذه الورشة (أو المعمل) التي حافظت على معالمها بصورة جيدة نسبياً تتيح لنا أن نتعرف على المراحل العملية في تعليب الأسماك خلال ذلك الزمن ومن المفروض أن عمليات صيد سمك الطون كانت نشيطة على جانبي المضيق من جهة الأطلسي.

كان السمك بعد تنظيفه يغطس في أحواض من الماء المالح، ويحفظ على شكل طبقات بعد أن يضاف إليه الملح.

وخلاصة القول أنه قبل خمسة وعشرين أو ثلاثين قرناً من الزمان أسس أحد المعامل الكبرى لتعليب الأسماك في المغرب الحالي، ربما على يد الفينيقيين، ولكن الأرجح على يد القرطاجيين.

اكتشفت حول مدينة طنجة عدة مقابر كبيرة يعود تاريخها إلى الألف الأول قبل الميلاد. وخلال كتابتي لهذه السطور كانوا يكتشفون مقابر جديدة.

وباعتقادي أن طنجة تتميز عن كل مدن المغرب الأخرى بأنها احتفظت بالفعل بالروح الفينيقية.

وطنجة، هذه المدينة المنفتحة وشبه المستقلة، كانت عبر القرون، وحتى عندما انطوى المغرب على نفسه، مدينة الاتص[illegible] والدبلوماسيين وكان فيها دائماً كثير من الأجانب. وخلال مرحلة الوصاية الفر[illegible] كان لطنجة موقع دولي، مما سمح لها أن تكون ملجأً للحركات السياسية التي [illegible] العدة للاستقلال.

ورغم انخراط هذه المدينة في المغرب [illegible] والمستقل فقد بقيت تتميز بالروح الفينيقية.

أما سكان طنجة وقد برعوا في الأعمال التجارية، فهم لايكتفون بالأعمال المحلية وحسب، إنما يفكرون على صعيد حوض المتوسط والعالم.

وهم مموّلون على درجة ممتازة. ويقال أن واحداً منهم قبل زمن ليس بالبعيد قام بتجهيز ودعم الجيوش الظافرة بقيادة الجنرال فرانكو. وكان بذلك يعيد إلى الأذهان صورة عن الممولين القرطاجيين الذين كانوا يمولون مشاريع هانيبعل الحربية في اسبانيا.

وفينيقي أيضاً ذلك السحر الفتان الذي جذب أصحاب المليارات ومتذوقي الجمال الدوليين وجعلهم يبقون في طنجة ويبنون فيها المساكن الفخمة والقصور التي لايأتون إليها إلا بضعة أشهر في السنة من أجل الاستجمام والاستمتاع بحماماتهم التي تحمل أبهة الشرق.

● **ليكسوس «Lixus»:**

إذا تجاوزنا طنجة باتجاه الجنوب على طريق الساحل الأطلسي للمغرب وعبرنا سلسلة من المرتفعات المكسوة في بعض الأماكن بأشجار بلوط الفلين الباقية من الغابة القديمة الواسعة التي كانت تغطي سابقاً أراضي المغرب، وصلنا بعد ذلك إلى وادي «ليكسوس Lixus» وغير بعيد عن مصبه بالقرب من ملاحات هامة بين الطريق والبحر كانت تقوم مدينة «ليكسوس» الفينيقية بمحاذاة هضبة مرتفعة. هذا المصب الذي طمر منذ عهد بعيد والذي تتضح فيه تعرجات الوادي لابد أنه كان في الأزمنة القديمة مصباً لنهر واسع صالح تماماً للملاحة. كما كانت «ليكسوس» تشتهر بمعابدها التي يتحدث عنها المؤرخون القدماء ومنها معبد بوسيدون ومعبد ملقارت.

وكما هو معروف عند الفينيقيين كانت هذه المعابد تقوم على أماكن مرتفعة. ويمكن أن نلاحظ فعلاً تحت المستوى الروماني القاعدة الضخمة للمعابد القديمة المتجهة نحو مغرب الشمس تبعاً لتقاليد ذلك الزمن. وقد بنيت هذه القاعدة بحجارة كبيرة منحوتة.

لابد أن هذا المركز التجاري كان يعتمد في موارده بشكل أساسي على الصيد والتمليح. ويمكن استنتاج ذلك من خلال العدد الكبير للأحواض المنتشرة عند سفح الهضبة على طول الطريق.

بعد زوال قرطاجة صارت «ليكسوس» تابعة للحكم الروماني. وتبعاً لما هو منتظر نجد أن المعابد الفينيقية التي أصبحت رومانية قد نصّرت في العهد البيزنطي ثم ضُمّت إلى الإسلام فيما بعد. ونجد في الطبقة العليا من الأنقاض بقايا مسجد لاشك أنه هجر منذ عهد بعيد. والمرجح أن «ليكسوس» قد ظلت في طي النسيان حوالي الألف سنة إلى أن جاء عهد الحماية الاسبانية على المنطقة، وأخذ آثاريو مدريد المختصون بالمراكز التجارية والمواقع الفينيقية الواقعة جنوبي إسبانيا، يوسعون أعمالهم فعثروا بالتدريج على ضواحي مدينة «ليكسوس» القديمة التي أصبحت اليوم معروفة تماماً.

ومن أعلى الأكروبول ومن خلال الأعمدة المرتفعة يرى المرء على الضفة الأخرى من النهر مدينة «لاراش» التي عاشت فيها الدوقة «de Guise» مع كونت باريس في معزل عن العالم لسنوات طويلة.

وإذا ماتوغلنا في تلك الأراضي المجاورة رأينا على جانبي وادي «ليكسوس» وعلى مد النظر بيارات شاسعة من البرتقال.

وإن الذين يتصورون هناك حديقة «Hesperides» الأسطورية بتفاحها الذهبي المشهور لايدور في أذهانهم أن أشجار البرتقال تلك قد زرعت في القرن العشرين من قبل «روتشيلد».

● **موغادور «Mogador»:**

لقد أتيحت لي فرصة جيدة للإطلاع على حقائق موغادور الفينيقية، وذلك بفضل الباحث «Paul Koerbele» الذي نذر نفسه تماماً، ومنذ عدة أعوام، وتحت إشراف «أندريه جودان Andre Jodin» من المركز الوطني للأبحاث العلمية (C.N.R.S) للدراسة والتنقيب في جزيرة موغادور.

إن خليج موغادور الطبيعي محمي من الأمواج الصاخبة بواسطة جزيرة صخرية

صغيرة يبلغ طولها حوالي 200 متراً وعرضها حوالي 100 متراً. وتنحدر هذه الجزيرة الصغيرة انحداراً شديداً من إحدى جهاتها، لكن المرء يستطيع أن يرسو على السطح المحمي الذي هو بمواجهة اليابسة، بفضل خليج رملي صغير يسمح بإيواء القوارب وجعلها تسرع نحو الشاطئ.

وعلى جانبي هذا الشاطئ يوجد الموقع الأثري الذي تمت فيه اكتشافات هامة خلال السنوات الأخيرة.

كان من ذلك عدد هائل من الأواني الفخارية والمزهريات الصغيرة ذات الأطواق التي لها شكل الفطر، أي أنها من النموذج الفينيقي. وقد تم العثور عليها في أقدم طبقة توصلت إليها الحفريات. وقدر أن هذه الأشياء بمجملها ترقى إلى القرن السابع قبل الميلاد. وهذا يعني أن وجودها سابق لتوسع قرطاجة التي كانت في أوج ازدهارها خلال القرن الخامس على وجه التقريب، أي عندما قام حنون برحلته البحرية. وإذا نظرنا إلى أكوام الأصداف التي عثر عليها في نواحي موغادور نستنتج أن فينيقيي الشرق ومن ثم القرطاجيين وأخيراً الرومان كانوا مهتمين كثيراً بصناعة الأرجوان في هذه الجزيرة.

● الأرجوان:

من الواضح أن صناعة الأرجوان أعطت شهرة لجزيرة موغادور حتى جاء وصفها عند «بليني Plinius» بأنها إحدى الجزر الأرجوانية. وقد سمي أرجوان جزر هذه المنطقة بأرجوان «getule» لتمييزه عن أرجوان صور وأرجوان جربة. وكان اسم «getule» يطلق بشكل عام على العشائر التي كانت تستوطن المناطق الساحلية من المغرب بين الأطلس والمقاطعات الرومانية. كما كان يطلق اسم الـ «ليكسيت Lixites» على السكان الذين انتشروا في الجنوب بين الأطلس وأفريقيا السوداء. والواقع أن هناك كل الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن هذا النوع من الأرجوان المسمى بأرجوان «getule» كان يصنع على الساحل الأطلسي للمغرب، ورغم أنه أقل شهرة من أرجوان صور إلا أنه كان ذا صيت واسع إذا أخذنا بعين الاعتبار كلمات التحريض التي جاءت عند «هوراس Horac»:

«... لآلئ وأقنعة وعاج ومزهريات إترورية صنعت من البرونز ولوحات وفضة وملابس فاخرة يلمع عليها أرجوان getule.. كل هذه الكنوز... كيف لاتكون لنا!...».

لقد استمرت صناعة الأرجوان في موغادور بالازدهار على مر العصور. وكانت

تعتمد كما في صور على دراسة صدف المرّيق الذي كان يدعى في تلك المنطقة «Purpura hemastoma».

إن دراسة مختلف الطبقات الأثرية تبين أن إنتاج الصباغ في الجزيرة قد مرّ بفترات ركود وفترات نشاط. ويبدو أنه قد طرأ عليه تجديد في عهد «جوبا» الثاني، ذلك الملك المغربي (بين 50 قبل الميلاد و 23 ميلادية) الذي جعلت منه ثقافته ورحلاته وزواجه من «كليوباترا سيليني» ملكاً ذا نفوذ قوي وصيت واسع في روما. ويقال أن «جوبا» قد نشر صنع الأرجوان إلى مابعد الساحل المغربي، ذلك أن «بليني Plinus» يوضح قائلاً:

«مما نعرفه عن جزر موريتانيا أن الملك جوبا قد اكتشف البعض منها وأنشأ فيها مصابغ لأرجوان Getule...».

ترى هل تشتمل الجزر التي وصفها «بليني» بالجزر الأرجوانية فقط على تلك الجزر القريبة من الشاطئ؟... أم أيضاً تلك التي تدعى جزر الكناري؟...

يبدو لي نص «بليني» واضحاً تماماً، بما أنه يتحدث عن جزر اكتشفها الملك جوبا. إذ هل من الممكن أن يتفاخر ملك باكتشاف جزيرة تقع على مقربة من ساحل بلاده؟... إنني أعتقد أن تسمية «الجزر الأرجوانية» كانت عموماً تشمل جزيرة موغادور مع تلك الجزر القريبة من الكناري «Lanzarote» و«Fuerteventura».

من الصعب أن نتصور أن الفينيقيين وظفوا وكلاء وحامية ليتفرغوا فقط لمهنة الصباغة. ولابد أن مركزهم في موغادور كان يشكل قديماً نقطة وصول القوافل الآتية من أفريقيا عبر الصحراء وممرات جبال الأطلس. وقبل أن يقوم الأميرال حنون بفتح طريق الذهب البحري إلى الجنوب قليلاً يرجح أن موغادور كانت محطة شحن للبضائع الثمينة الآتية من الجنوب. ومن جهة أخرى تم العثور على العاج المزخرف على أرض موغادور نفسها، علماً أن تجارة العاج قديماً كانت مرتبطة دائماً بتجارة الذهب. تعتبر جزيرة موغادور التي أصبحت اليوم مقفرة أرضاً مثالية بالنسبة لعلماء الآثار. وفي الجهة المقابلة تماماً للجزيرة بنيت مدينة موغادور الصغيرة فوق شبه جزيرة. وربما يوجد هناك أيضاً أساس منشأة قديمة، ولايتوقع أن تكون هناك صعوبات في الشروع بأعمال التنقيب لأن مدينة موغادور هذه منظمة تماماً. وبالواقع فقد بنيت هذه المدينة في القرن الثامن عشر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي أصدر سنة 1765 في عاصمته مراكش أمراً ببناء مركز تجاري مهيأ جيداً للمبادلات الخارجية وإيواء السفن، خاصة وأن عاصمته مراكش الواقعة على بعد 150 كيلومتراً عن الساحل كانت بحاجة إلى ميناء.

● لماذا «الصويرة»؟...

هناك قصة طريفة تبين لنا بهذا الصدد، كيف أن موغادور في ذلك الحين أطلق عليها الاسم العربي «الصويرة».

من أجل نجاح الأعمال في بناء المدينة الجديدة تم تكليف مهندس فرنسي من «أفينيون Avignon» يدعى «Theodore Cournut»، حيث كان يعتبر بمثابة المعونة الفنية بمفهومنا الحالي. وبعد أن حظي هذا المهندس بثقة السلطان وأصبحت في حوزته وسائل كافية قام بوضع تصميم لمجموعة ممتازة من الأسوار المتينة مزخرفة بالأسلوب التركي، وتصميم للأحياء التجارية والسكنية وميناء بحري رائع ومنازل عالية ذات نوافذ كبيرة، وحصوناً لاستخدام المدافع بشكل مناسب تماماً.

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يتابع وهو جالس في قصره بمراكش تطور الأعمال باهتمام كبير ويطلب من مستشاريه إحضار المخططات والمصورات التي يصممها «كورني». وحيث أن هذه المعاينات للمصورات كانت متكررة فقد اصطلح السلطان اسم «الصويرة» على ورشة البناء التي لم يكن يعرفها أو يراها إلا من خلال الصورة، واعتاد أن يطلب رؤية الصويرة. وشيئاً فشيئاً درج هذا المصطلح في الأحاديث العامة للدلالة على تلك المدينة المستقبلية التي يجري العمل فيها. وبعد أن تم بناؤها وكانت طبق الأصل عن الصور التي رآها السلطان لم يخطر ببال أحد منذ ذلك الحين إيجاد اسم آخر لها غير اسم «الصويرة».

خلال القرن التاسع عشر أدت التسهيلات التي قدمها الميناء الجديد إلى اجتذاب تجار مدينة السوس والعديد من يهود المغرب. وفي ظل أسوار المهندس «كورني» وفوق الموقع الفينيقي القديم تشكلت مجموعة سكانية مزدوجة من المسلمين واليهود عاشت في وفاق تام، وقامت بتصنيع المعادن الثمينة ومارست فوق شبه الجزيرة الصغيرة هذه في أقصى الغرب من المغرب التجارة على نطاق واسع.

وانتشر سكان الصويرة مثل اللبنانيين في كل أنحاء العالم. وأصبح لعائلات بأكملها أحفاد في أمريكا وفرنسا وانكلترا. وهكذا صادف أن أحد أبناء موغادور ويدعى «هواري بيليشا Hoare Belisha أصبح وزير حرب قبل بضع سنوات في إحدى حكومات ملكة بريطانيا.

الفصل التاسع والثلاثون
جزر الكناري

«إن الفينيقيين، أولئك البحارة القدماء المجدّين، كانوا أول من اكتشف جزر الكناري. وقد سموها: أليزوت. وهو اسم من أصل سامي. وأقاموا فيها أحد المراكز التجارية العديدة التي كانوا يحصلون منها على المنتجات الضرورية لتجارتهم. واليوم تشكل جزر الكناري المقاطعة التاسعة في اسبانيا والتابعة لحكومة مدريد المركزية...».

Juan Del Rio Ayala

أثناء فترة إقامتي في جزر الكناري سمحت لي الفرصة بأن أجتمع لمدة طويلة مع «Juan Del Rio Ayala»، هذا النابغة الكناري، الذي ينتمي على حد تعبيره إلى جماعة الـ «Guanches» القدماء. واستنتجتُ حينذاك أن أولئك الـ «Guanches» ربما كانوا مثله، أقوياء الشكيمة عيونهم زرقاء غامقة وبشرتهم برونزية وشعرهم أشقر مغبّر.

في جزيرة كناري الكبرى أشار لي بشيء من التأثر إلى الوادي السحيق حيث كانت ترتفع جبال الـ «Guanches» المقدسة، وخاصة ذلك الشعف الجبلي الحاد الإرتفاع، حيث يقال أن آخر قادة الـ «Guanches» الذي رفض أن يخضع للاسبان سنة 1483 فضل أن يلقي بنفسه من أعلى هذا الشعف المرتفع على أن يستسلم. وفي الواقع كان الاسبان ينتظرون هذا اليوم منذ سنة 1344 وهي السنة التي قام خلالها البابا كليمون السادس بتولية ولي العهد في إسبانيا على الجزر الغنية وأعطاه لقباً جميلاً هو «الأمير السعيد».

ولكن خلال حوالي نصف قرن من الزمن لم يبتسم الحظ للأمير السعيد، وقد احتاج إلى مساعدة فارس نورماندي نبيل يدعى «جان دي بيتنكورت Jean de Bethencourt» كان سيد منطقة «Grainville» للقيام بعملية عسكرية وسياسية ونفسية في آن واحد انتهت إلى احتلال شبه سلمي لأربع من جزر الأرخبيل الكناري السبع وهي: «Lanzarote» - «Fuerteventura» - «Gomera» - «Hierro». وقد أسر «بيتنكورت» الملوك الصغار المحليين بسحره وتأثيره قبل أن يأسرهم بسلاحه وعمّد

عاصمته «سانتا ماريّا» باسم «بيتانكوريا». ولكن إن كان الحظ قد ابتسم له في جزر الكناري فإن أحواله ساءت في مناطق نفوذه الأصلية في النورماندي. فكان أن سلم مقاليد الأمور إلى أحد أولاد إخوته، فقام هذا الأخير بتسليم مناطق النفوذ إلى بعض الأرستقراطيين الأندلسيين الذين أكملوا غزو الأرخبيل محتلين الجزر الثلاث الرئيسية: كناري الكبيرة و«بالما Palma» و«تينيريف Tenerife».

بعد ثلاثة أعوام ظهرت سفن كريستوف كولومبس في الأرخبيل. وكان هذا البحار الكبير قد جاء لكي يمهد طرق اكتشافاته ويدرس أسرار التيارات والرياح في الأطلسي. وأثناء ذلك وقع في حب فتاة جميلة من الجزيرة تدعى «دونا بياتريز Dona Beatriz»، الأمر الذي أطلق خيال الناس في نشر مختلف الأقاويل، منها أن كولومبس تأخر ست سنوات عن اكتشاف أميركا مانحاً الأولوية لحبه. ومن الممكن أن تكون قصة «بياتريز» الشهيرة مجرد خرافة حيث نسب إليها لقب هو «بياتريز دي بوباديلّا Beatriz de Bobadilla» الذي يعني بالاسبانية: «الإشاعة». وسواء كان ذلك خرافة أم حقيقة، فيبدو أن جاذبية خاصة كانت في الحل والترحال وفي كل الفرص تقود مراكب كولومبس نحو جزر الكناري، حيث مكث طويلاً في منزل حاكم جزيرة كناري الكبرى. ومازالت اليوم قاعات هذا المنزل تحمل ذكريات الملاح الكبير في حين ينتشر في فناء الدار سرب من الببغاوات التي تثرثر مزينة المكان بألوانها البراقة.

ولكن من كان ياترى أولئك الـ «غانش Guanches» الذين كانوا يستوطنون الجزيرة منذ زمن طويل؟... والذين كانوا في عصر النهضة يجهلون البرونز والحديد والقوس والسهام ودولاب الخزاف والأبجدية؟.. إن المشكلة التي تواجهنا في هذه المسألة تتعلق خاصة بعلوم إنسان ماقبل التاريخ. والحقيقة أنه من الصعب جداً اليوم أن ندرس ميزات الـ «غانش»، ذلك أن دم هذا الشعب قد امتزج تماماً بدم الغزاة. ومن حسن الحظ تم العثور على عدد هائل من المخلفات وعظام الموتى في كهوفهم وفي مختلف المقابر الكبيرة. لقد عاش هؤلاء الناس حتى الغزو الإسباني مستخدمين أدوات من الخشب والحجر المصقول. وإن الخيار الذي واجهوه حينذاك بين الإبادة والعبودية قد دفعهم لترك تلك المواقع التي بقيت شبه سليمة حيث يقال أنها محاطة بالخرافات.

لقد توجب الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر للتفرغ للدراسة العلمية لحضارة أولئك الغرباء. ويبدو أن المسنّين من الـ «غانش» الذين كانوا يعانون من أمراض مستعصية قد رحلوا إلى كهف منعزل لكي يقضوا نحبهم هناك وبسرعة بعيداً عن الغزاة.

كانت الطقوس المتعلقة بالموت رسمية. وكانت أجساد الموتى تحنط بواسطة الراتنج الأحمر ثم توضع في أغلفة مصنوعة من القش وجلود الحيوانات ومصممة بعناية.

وقد تم العثور على مزهريات غريبة كانت تصلح على الأرجح للعبادة. وهي ذات شكل كروي ورقبة عريضة. أما المقابض فذات شكلين وتمثل أجساماً بشرية مختلطة. ويعتقد البعض أن هذه المزهريات كانت تفيد في حفظ رفاة الأموات لعائلةٍ ما مع فصل رفاة الذكور عن رفاة الإناث. لقد قادني قدم حضارة الـ «غانش» على الفور إلى طرح سؤال على «خوان ديل ريو أيالا Juan del Rio Ayala» ـ المذكور آنفاً ـ وهو: ـ إذا كان الفينيقيون قد أتوا فعلاً إلى جزر الكناري، فلماذا لم ينشروا على الأقل صناعة وتداول البرونز والحديد؟...

وكان رأيه أن الفينيقيين، وعلى التحديد القرطاجيين، قد أسسوا بالتأكيد منشآت بسيطة في الأرخبيل. ويقال أنهم لم يستقروا في كل جزر الأرخبيل واكتفوا بالاستيطان في جزيرتي «Lanzarote» و«Fuerteventura» القريبتين من أفريقيا، حيث تبعدان على الأكثر 80 كيلومتراً عن الساحل.

في بداية العصر المسيحي توجه «جوبا» الثاني الذي سبق ذكره، وهو أول ملك للمغرب ورجل ثقافة كبير في آن واحد، توجه برحلة نحو جزر كناري ورسا في «لانزاروت Lanzarote».

يسمي «بليني Plinius» هذه الجزر بـ «الجزر الأرجوانية» ويؤكد أنه كان يوجد فيها مبانٍ مهجورة، هي دون شك معامل قديمة للأرجوان أسسها الفينيقيون وعلى التحديد القرطاجيون نحو القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي الرأس الشمالي الغربي لجزيرة «لانزاروت» رأيت الشاطئ الكبير وذراع البحر الهادئ الذي يفترض أن «جوبا» رسا فيه بسفنه.

ولاندري إن كان «جوبا» قد مكث طويلاً في هذه الجزيرة ذات الأرض الكالحة المكونة من الحمم والتي كشف فيها عن آثار حضارة الجماعات الأطلسية التي تختلف أشد الإختلاف عن حضارة الـ «غانش».

إن النصب الذي عثر عليه في إحدى قرى «لانزاروت» في «زونزاما» يشترك مع نصب «نخيلة» في المغرب ومع شواهد قبور «Gavrinis» بتلك النقوش المقوسة المتحدة المركز والتي تعود إلى طراز فني موحد. عدا عن كل ذلك يلاحظ أن جزر الكناري كان يعيش فيها قديماً، وفي كل الأحوال، عدد كبير من الكلاب. وقد اشتهرت هذه

الكلاب بمهاجمة البحارة والمسافرين وارتبط اسمها باسم الجزيرة (Canis Canaries). ومن جهة أخرى مايزال الكلب عبر العصور يحتل مكانة كبيرة في حياة سكان الكناري. إذ نجده في شعارات الجزيرة، أو منقوشاً على البرونز في الأماكن العامة، أو منحوتاً على الحجر في أطراف مزاريب المنازل القديمة. كما نجده في كل مكان من الريف تقريباً، حيث تربى سلالة من الكلاب خاصة بجزر الكناري ومرغوبة كثيراً للصيد. وقد اعتقدت في البداية أن الحافلات في كناري الكبري قد سميت «واه.. واه...» احتراماً للكلب الكناري. ولكن «جان ديل ريو أيالا» - المذكور سابقاً - أوضح لي أن هذا الإسم قد أخذ عن كوبا حيث يطلقونه هناك على الحافلات. كما أتوا مؤخراً من كوبا بالاختصاصي الكبير في صناعة تبغ «La Havane» الذي لديه سر صناعة سجائر وينستون تشرشل الشهيرة. وفي جزر الكناري ذات الطابع الفينيقي القديم والمتصفة بالحداثة والثراء الفاحش في هذا العصر، يزرع التبغ، ولكن بشكل أكثر يزرع الموز الذي تنمو أشجاره بصورة ممتازة. وتقوم شركات تجارية دولية في ظل نظام ضريبي ممتاز بشراء وتسويق الإنتاج بسرعة في كل أنحاء العالم. والسياحة في الكناري منظمة تنظيماً جيداً وعلمياً. والملايين التي ترد من السياح يتم إنفاقها على قوالب الاسمنت والفولاذ والزجاج لمئات الفنادق الحديثة. لقد جاء أعضاء هذا الدين الجديد (السياحة) أيضاً متتبّعين الشمس فوق هذه الجزر التي حدد موقعها هومير «في طرف العالم» وسميت حينذاك بحقول الـ «Elysion» حيث يعيش الناس في سلام ويستنشقون النسيم العليل المنبعث من المحيط.

الفصل الأربعون
موريتانيا
نهاية طريق العربات

في الجغرافيا السياسية الحديثة تعتبر موريتانيا دولة مستقلة. وهي جمهورية موريتانيا الإسلامية الواقعة مابين السنغال ومالي والصحراء الجزائرية وريو دي أورو المسماة رسمياً بالصحراء الإسبانية.

قديماً كانت موريتانيا ـ أي بلاد الموريين ـ مناطق ليست لها حدود إلى أن جاء الوقت الذي أطلق الرومان فيه هذه التسمية على أراضيهم الواقعة في شمال أفريقيا.

وأما بالنسبة للجغرافيا البشرية فإن موريتانيا هي مجموع أراضٍ واسعة بما فيها الصحراء الغربية التي يعيش فيها حوالي سبعمائة ألف موري حياة البداوة معتمدين على تربية المواشي والمبادلات التجارية. وهم يتنقلون دوماً في هذه المناطق المترامية الأطراف التي تكبر مساحة فرنسا بخمس مرات. وهي أيضاً بلاد أولئك الرجال والنساء المتلفعين بأردية زرقاء. وفي تلك البوادي الواسعة التي تتخللها بعض الارتفاعات الصخرية المتكلسة بفعل الشمس، والتي تكتسحها العواصف الرملية، يتنقل الموريون المتلفعون بالأزرق، بخيمهم الكبيرة الهادئة وقطعان جمالهم. والقطيع هو ميراث العائلة وممتلكاتها. وهو بمثابة حساب لها في المصرف يجب على الدوام أن يبقى تحت رقابة مالكه.

إن بقاء القطعان على قيد الحياة يفرض على أصحابها ضرورة التنقل وفي الواقع أن هناك مراع مدهشة في هذه الصحراء ليست دوماً سراباً، لأن تلك الأراضي المعتنى بها قد حافظت على حيويتها، بحيث يكفي أن تحدث عاصفة وتهطل زخة مطر غزيرة حتى نرى بعد بضع ساعات، وبفضل أشعة الشمس، ظهور أعشاب صغيرة خضراء وناعمة. أما فيما يتعلق بأصل الموريين ـ سكان موريتانيا ـ فقد طرحت آراء عديدة مختلفة.

فالبعض اعتقد أنهم يتحدرون من أولئك الذين شاركوا في رحلة حنون البحرية،

وعلى ذلك فهم «أفرو - فينيقيون» من قرطاجة. أما بعض أصحاب الاختصاص من العلماء فيعتبرونهم عرباً أنقياء، أتوا على شكل موجات متفرقة من قلب بلاد العرب وشكلوا عرقاً خاصاً بهم بعد اختلاطهم مع البربر الصحراويين الذين كانوا هناك قبلهم.

وإذا رجعنا إلى وصف رحلة حنون البحرية - الذي ورد فيما سبق - وجدنا أن موريتانيا تتطابق مع ماسمي هناك بلاد الـ «ليكسيت» الذين قدموا لحنون مترجمين رافقوه في استكشافه لأفريقيا السوداء التي كانت غاية رحلته. ويفترض أن هؤلاء الـ «ليكسيت»، جماعة من البربر كان القرطاجيون، كما يقال، يطلقون عليهم صفة «ماهور»، وكانت هذه الكلمة تطلق على بربر الغرب.

وعلى كل حال فإن لم يكن الموريتانيون قرطاجيين بالأصل فإن الإسم الذي يحملونه قد ورثته لهم قرطاجة.

الواقع أنه لم تكتشف في أراضي موريتانيا أدلة أثرية قاطعة على وجود القرطاجيين. ولكن لابد مع ذلك من الإشارة بعناية إلى عدد من الحقائق:

يجب ألا ننسى أن موريتانيا الحالية تقع على تخوم بلد الذهب. ويبدو أن طريق الذهب البري - أي طريق العربات - كان يؤدي إلى موريتانيا، وكذلك الطريق الشرقي الآتي من مناطق الجرميين والطريق الآتي من الشمال. وقد تم العثور في موريتانيا على نقوش صخرية لعربات النقل كان قد كشف عنها كل من «R. Mauny» و«Th. Monod» و«J. Gabus». كما أن هناك أماكن عديدة اشتقت أسماؤها من اللغة البونية. وحتى أن أجمل شاطئ على السواحل الموريتانية، يقع في مكان يسمى «تعنيت». وليس مستبعداً أن يكون قد وجد قديماً في هذا المكان معبد مكرس لإلاهة قرطاجة «تعنيت».

ثم إذا مانظرنا إلى الزينة والحلي عند نساء موريتانيا وجدنا كثرة استخدام اللآلئ المصنوعة من عجينة الزجاج، يضعنها حول أعناقهن أو يجدلنها مع ضفائر شعرهن بكثير من الأناقة. ومن المؤكد أن عادة استخدام هذه اللآلئ المصنوعة من عجينة الزجاج هي تذكار من قرطاجة. كما أن مايلاحظ أخيراً أن الموريتانيين تجار بارعون ولديهم مهارة كبيرة في مجال تصنيع المعادن. كما كان الموريتانيون دوماً الوسطاء في مجال التجارة والعلاقات الإنسانية بين البيض والسود.

يعتقد استناداً لما تقدم أنه في عصر قرطاجة كان أجداد الموريتانيين على تخوم بلاد السود هم بمثابة المراسلين والعملاء ومستوردي البضائع ومودعيها لكل الذين كانوا يريدون القيام بصفقات في الجنوب. وبهذه الطريقة تعرفوا على الأفرو - فينيقيين أهل قرطاجة وأبناء عمهم الجرميين، حيث أنهم أنفسهم كانوا متحدرين من اختلاط البربر مع الجماعات القادمة من قلب الجزيرة العربية. ولهذا السبب يمكن أن نتصور أن موريتانيي اليوم الذين احتفظوا بأصالتهم عبر القرون لابد أن صفاتهم الجسدية شبيهة جداً بصفات القرطاجيين.

إن ارتباط الموريتانيين الكبير بالصحراء وماتستلزم من تنقلات واسعة يذكّر بحركات الملاحة الواسعة والدائمة في البحار، التي كانت محور حياة الفينيقيين. كما أن الروحية المتقدة والمعنويات العالية لدى الفينيقيين والمتحدة مع ذهنهم الواقعي تذكّر أيضاً بالنزعات البعيدة لرجال كل من صور وقرطاجة. ومن جهة أخرى تعدّ الحكمة الواقعية الصفة الرئيسية التي تميز جمهورية موريتانيا الإسلامية الحديثة، التي ترتفع في عاصمتها «نواكشوط» على بعد بضعة كيلومترات فقط عن ساحل الأطلسي، الأبنية الشامخة في قلب البيئة الصحراوية.

وتحرص الدولة الموريتانية على وضع ميزانية معتدلة بشكل مثير للإعجاب، وذلك بالاعتماد فقط على مواردها الخاصة التي أهمها الحديد الموجود في موقع «- Fort Gouraued». ولكن هناك دائماً تساؤل، إن كان هذا المنجم الهام مع المناجم الأخرى التي يتم إيجادها تستطيع مستقبلاً أن تؤمن العمل والدخل لكل العائلات الموريتانية وتتيح لها الاستقرار التدريجي؟...

لاأعتقد أن ذلك ممكن لأسباب أخرى، هي أن الموريتانيين المتمسكين بحريتهم إلى أبعد الحدود يفضلون القسوة في الترحال والعمل على العيش برخاء بين جدران منزل محدود.

ولكن هناك شكلاً آخر للإستقرار يختلف عن الاستقرار الصناعي: فإذا كان أولئك «الرجال الزرق» في موريتانيا قبل كل شيء رعاةً وتجاراً فإن بإمكانهم أيضاً أن يصبحوا مزارعين جيدين. فالفينيقيون الذين عانوا في البداية من مشكلة مشابهة، أي الرغبة في الاستقرار والإرتباط بالأرض، تمكنوا فيما بعد من الاستقرار ووجدوا أرضاً خصبة مناسبة في أرياف تونس الغنية تساعد على نجاح الزراعة.

وهنا يجب الاستعاضة عن الصحراء ومراعيها (التي تعد معجزة) بمراع منظمة تسمح بالتربية المعقولة للمواشي، وشيئاً فشيئاً بالزراعات. ومايلزم في هذه الحال إذاً هو الماء. وماكان يبدو وهمياً قبل ربع قرن من الزمن يمكن الآن أن يكون حقيقة. والطاقة اللازمة لاستخراج المياه الجوفية المتوفرة في كل مكان، على وشك أن تصبح سهلة الاستغلال وبكلفة بسيطة. ويحاول العلماء جاهدين استغلال الطاقة الشمسية التي ستغير وجه هذه المنطقة. إن كهنة بعل و«بوقرنين» وواحة سيوه والحميريين لم يكن في تصورهم أنه سيأتي يوم يفكر فيه الإنسان بتعبئة إلههم، إله الشمس.

الفصل الحادي والأربعون
ذهب وأبنوس السنغال

«... أنا أمير الشمال والجنوب... والشمس التي تشرق والشمس التي تغيب... السهل المفتوح على ألف فجٍّ... القالب الذي تذوب فيه المعادن الثمينة... من أرضي استخرج الذهب الأحمر والإنسان الأحمر...

ملك الذهب، الذي له إشراقة الظهر وعذوبة الليل الأنثوية...»

=Senghor .S.L=

من بين شعوب البحر المتوسط المتحضرة كان فينيقيّو الغرب السباقين إلى الاحتكاك بصورة فعلية مع العالم الأسود، هذا العالم الذي ظل طويلاً يجهل أهمية الذهب الأسطورية.

كان هذا المعدن الثمين موجوداً قديماً في السنغال، كما وجد في مناطق أخرى من أفريقيا. ومن المؤكد أن القرطاجيين قد أقاموا مراكز تجارية هناك حيث يمكنهم مقايضة بضائعهم المستوردة بالذهب الأفريقي.

الواقع أن التحريات الأثرية لم تعثر على أدلة مادية تثبت تواجد القرطاجيين في أفريقيا السوداء. لكن هناك مجموعة من النقاط المتلازمة التي تساعدنا على التأكد من وجود دلائل على حضورهم وإقامتهم المنشآت في أفريقيا. لنعد مرة أخرى إلى وصف رحلة حنون البحرية، حيث تحدث عن جزيرة «كِرْنِه» الصغيرة الواقعة حتماً في مياه السنغال الإقليمية، سواء أكانت جزيرة واقعة على مصب نهر، أم كانت هي نفسها «Goree». هناك أيضاً الذهب المتوفّر في منطقة «بمبوك»، في ذلك المثلث الواقع بين نهر السنغال ورافده «La Faleme».

ومن الممكن أن نتصور الطريقة التي كان التجار القرطاجيون يتبعونها في تعاملهم مع الأفارقة وشراء الذهب منهم برجوعنا إلى نص المؤرخ والجغرافي المعروف ياقوت الحموي، حيث أن الأساليب التجارية لم تكن قد تقدمت كثيراً بين عصره وعصر قرطاجة:

«.... عندما كان سكان بلاد الذهب السود يسمعون صوت الطبل، كانوا

يخرجون من مخابئهم وينتظرون على بعد مسافة معينة بلا حراك... أما التجار فكانوا يفرغون بضائعهم ثم يبتعدون... عندئذ يقترب السود ويضعون كمية محددة من حبيبات الذهب ثم يتراجعون. بعدئذ يعود التجار ويأخذ كل منهم الذهب الموجود قرب بضاعته ويعودون من حيث أتوا وهم يضربون الطبل لإعلان رحيلهم...».

ويروي هيرودوت من جانبه أن القرطاجيين كانوا يبحرون إلى مابعد أعمدة هرقل لكي يقايضوا منتجاتهم بالذهب.

ويفترض أن يكون القرطاجيون قد رسوا في جزيرة «Goree» الصغيرة على مسافة قصيرة من «داكار» في الجهة المقابلة لـ «Cap - Vert» ففي هذه الجزيرة بالواقع ماكان البحارة القرطاجيون يبحثون عنه، وهو شاطئ رملي ناعم لرسوّ السفن، ونقاط صخرية مرتفعة لرؤية الجهات المجاورة وممارسة طقوس العبادة، إضافة إلى أنها قريبة من ساحل بلاد مأهولة تسمح بإنجاز الصفقات التجارية بسهولة. هذه الجزيرة التي لايتجاوز طولها 900 متراً وعرضها 300 متراً كان قد اكتشفها البرتغاليون في القرن الخامس عشر. إلا أن الهولنديين حلوا محل البرتغاليين بشرائهم لجزيرة «Goree» في سنة 1617. وكان الرئيس المحلي قد قبل بذلك لقاء حصوله على بعض سبائك الحديد.

كان لصورة هذه المقايضة أثرها السيء الذي انعكس في كلمات «Jean - F. Brierre» الشاعر والكاتب المسرحي الهاييتي ومؤلف نصوص «العرض المسرحي الأخّاذ في جزيرة Goree»[1] التي أوحت بالترنيمة الفريدة لأصوات الضمير. ومن ذلك:

«... حديد يا.. Denga Mafal... حديد لأجلك..
يامن عشت دائماً في عصر الأخشاب...
ماذا ستفعل بهذا المعدن الغريب؟...»

إذا فقد كانت جزيرة «غوري» على رقعة شطرنج الدول العظمى بيدقاً يتخاطفه تباعاً الهولنديون والإنكليز ثم الهولنديون من جديد، وبعدها الفرنسيون والإنكليز. وابتداءً من سنة 1785 أصبحت الجزيرة فرنسية وأخذت شكل «مدينة ريفية صغيرة تحت المدارات». وكان الحاكم «بوفلير Boufflers» الأرستقراطي المتحرر وصديق

---

(1) نظم بمناسبة المهرجان العالمي الأول للفنون عام 1966 في السنغال.

فولتير أول من أقام علاقات مع الأفارقة تقوم على أسس إنسانية جديدة. وكان مع فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين الرائد الحقيقي لحركة إلغاء العبودية، وفي الواقع كانت جزيرة غوري في تلك الأثناء تعتبر مستودعاً للعبيد. وكانت تعقد صفقات تجارية رابحة بوجه خاص بين أوروبا وغرب أفريقيا وأميركا، وكانت المنتجات الصناعية والشحنات الأوروبية المجانية ترسل إلى جزيرة غوري ومناطق أخرى من غرب أفريقيا مقابل عدد من الرقيق. وكانت حمولات من خشب الأبنوس ترسل إلى جزر الأنتيل أو إلى لويزيانا مقابل السكر ومشتقات قصب السكر. وكان القباطنة يحققون ثلاث عمليات تجارية في رحلة واحدة.

وفي هذه الأيام مازلنا نرى في غوري محلّات تجمّع العبيد سابقاً وقد أصبحت مكاناً للنزهة يوم العطلة الأسبوعية بالنسبة للبعض ومزاراً بالنسبة للبعض الآخر. أما بالنسبة للجميع فهو باعث أليم للتأمل.

بعد إلغاء العبودية خمد نشاط جزيرة «غوري» شيئاً فشيئاً، فبعد أن كانت مقر الحكومة لأعوام عديدة خلال القرن التاسع عشر تركت مكانها لـ «داكار Dakar» منذ أن ظهرت الآلة البخارية، حيث أنه لم يكن يوجد في «غوري» مكان متسع لتخزين الفحم.

على الساحل المقابل لجزيرة «غوري» تقع شبه الجزيرة المسماة «Cap - Vert» - أي الرأس الأخضر - ومدينة داكار عاصمة جمهورية السنغال، بأبنيتها الكبيرة والحديثة وشوارعها المظللة بالأشجار وميناءها الكبير وأصوات السنغاليين الصاخبة لدى مرور الملكة.

ومن المعروف أن هناك الكثير من اللبنانيين، لابل عدة آلاف منهم، في مدينة داكار يعملون في تجارة الأقمشة وتحويل المنتجات الزراعية. فهل وجدوا ياترى في هذه المدينة صدفةً؟.. أم كان لهم فيها أسلاف؟.. ويعيش هؤلاء اللبنانيون في وفاق تام مع السكان المحليين ويدفعون الضرائب ويعرفون كيف يقون مفيدين في المجتمع. ويمكن تشبيه وضعهم بوضع تجار «بوزولي Puzzoli» الصوريين إذ عاش هؤلاء على مر القرون في إيطاليا بعد دخول عصر المسيحية.

إن وجود هؤلاء اللبنانيين في داكار اليوم، ليخلّد في القرن العشرين الرواية التي ابتدأها حنون القرطاجي قبل خمسة وعشرين قرناً.

لقد ظل الناس في السنغال متمسكين بفكرة الذهب. وإن بعض الحلي التي مازال

يصوغها أرباب الحرف في داكار وسان لويس يذكرنا شكلها بالحلي التي عثر عليها في أماكن مختلفة من الطرق الساحلية الفينيقية. وهذه الحلي صنعت على شكل فتيلة معدنية مقعرة. وتعتمد أشكالها بصورة رئيسية على تنسيق من الأشكال المخروطية والنصف كروية. وكل هذه الأشكال قريبة جداً من كرات الخصوبة تلك التي تشبه الثدي في استطالتها الخفيفة والتي كانت تزين تماثيل أمهات الآلهة في الشرق، والتي مازلنا نجدها في سردينيا وإيبيزا وفي تونس.

هل وصل فينيقيو الغرب حقاً إلى السواحل الغربية لأفريقيا؟...

لقد قلنا سابقاً أنه من المحتمل أن يكونوا قد بلغوا الكاميرون، وأنهم شاهدوا البركان الذي يتطابق تماماً مع الوصف الذي قدمه حنون عما يسمى «عربة الآلهة». ويعتقد بعض الكتّاب أن كلمة «كاميرون» مركبة من كلمتين هما: «كامار + ايون» بمعنى - عربة الآلهة - من المحتمل جداً أن يكون الفينيقيون قد أدخلوا إلى أفريقيا السوداء فن صناعة البرونز. ولاغرابة إذا افترضنا أنه كان هناك طريق للقصدير يمر في أفريقيا، إذ أنه يوجد في نيجيريا على هضبة «باوتشي Baoutchi» مناجم للقصدير استثمرت قبل زمن بعيد.

يمكن في النهاية أن نقول، بما لايقبل الجدل، أن فينيقيي الغرب قد مهّدوا قبل خمسة وعشرين قرناً للحوار السلمي بين الإنسان الأبيض والإنسان الأسود.

وقد كان لانتصارات روما العسكرية تأثيرها المشؤوم في قطع تيار هذا التفاعل الإنساني المتبادل الذي كان يبدو أنه يسير في منهج جيد.

ووجب على الناس انتظار الاكتشافات البرتغالية الأولى بعد حوالي ألفي عام من الاكتشافات القرطاجية لكي يعود إلى الحياة ذلك الاحتكاك ولكي تعود من جديد أفريقيا التي تعطي وتأخذ، الفخورة بنفسها، المتمسكة بالسمات الزنجية والمنفتحة في الوقت نفسه على ثقافات وتقنيات وصداقات العالم.

خاتمة

هل حاول فينيقيو الغرب بدورهم عبور المحيط الأطلسي انطلاقاً من جزيرة «غوري Goree» وجزر «Cap - Vert» ـ الرأس الأخضر ـ أم عن طريق جزر الكناري؟...

لقد قادت التيارات «بومبار Bombard» فوق فلك مملوء بالهواء المضغوط إلى الـ «بارباد Barbade»!...

والواقع أن احتمال وصول الفينيقيين لأميركا لايمكننا استبعاده، فقد وجدت في أماكن مختلفة من أميركا الجنوبية وخاصة البرازيل، نقوش تبدو فينيقية على الأغلب. وأهم مايمكن ذكره هو «صخرة ديغتون». وبالقرب من «ريو Rio» يمكننا أن نرى مايشير إلى الفينيقيين.

إن الأسماء التي أطلقت على عدد كبير من جزر الأنتيل قد تكون من أصول سامية.

وفي أماكن مختلفة من الجزر، وخاصة في هاييتي، مازال البعض من الطاعنين في السن يتذكرون أساطير غريبة عمن قبلهم، نجد فيها دائماً خرافة الآلهة الكبيرة البيضاء والملتحية، التي أتت من الشرق وظهرت ذات صباح جميل منتصبة فوق السفن في بريق الشمس الساطعة. ومن جهة أخرى، فإن قدوم الفينيقيين إلى أميركا، والقرطاجيين على الأرجح، قد ورد على شكل حدث لاجدال فيه في الكتاب الشهير المسمى «Fair Gods and Stonex Faces» للباحث «كونستانس إيروين Constance Irwin» الذي ظهر سنة 1963 (الناشر: St. Martins). وبعد بضعة أعوام قام باحث أميركي بتقديم فرضية مثيرة حول الصلات الغربية التي كانت توجد بين الزخارف المنقوشة على المسلة رقم 5 من آثار المايا «Maya»[1] والقصة الأسطورية القديمة للكنعانيين/ الفينيقيين.

---

(1) فيما يخص النصب (المسلة) رقم 5 من «Izapa» في «تشياباس Chiapas» بالمكسيك، انظر مجموعة «Wells Jakeman» في قسم الآثار بجامعة Brigham young ـ الولايات المتحدة.

فضلاً عن ذلك، إن البيانات عن الأحجار أو الألواح التي تحمل نقوشاً منسوبة للفينيقيين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم.

وسواء كان المقصود هو النص المنقوش على حجر بارايبا في البرازيل(*) أم نصوص «Grave Creek» في الولايات المتحدة الأميركية، فإن المرء يجد نفسه أمام نماذج من الكتابة المشابهة تارة للكتابة الشرقية وتارة أخرى لكتابة قرطاجة، أو حتى لكتابة الأفريقيين البربر وأحياناً لكتابة الفينيقيين القدماء كما هو الحال في صخرة «Metcalf» الشهيرة. كان ذلك في سنة 1966، في جورجيا بمنطقة «أندروود Underwood» عندما كان شخص يدعى «منفريد ميتكالف Manfred Metcalf» يبحث عن صفائح معدنية لصنع مشواة. فوقع بصره صدفة على صخرة منقوشة، بين أنقاض طاحونة قديمة بنيت بالتأكيد قبل عام 1900، في زمن استبعدت فيه تماماً فكرة التزوير لأن علم تفسير النصوص القديمة كان حينئذ شبه معدوم.

ويحتمل أن الأمر يتعلق بكتابات هنود الـ «يوشي Yuchi» الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة حتى عام 1836. وما أعتقده هو أن تلك النقوش لم تكن رموزها قد فكت بعد. وهي ترتبط بالأشكال الخطية «A» و «B» للكتابة الكريتية. وبشكل عام، سواء قدم لنا فك تلك الرموز معلومات قيمة أو لم يقدم، فذلك لايهم كثيراً، لأن هذا الاكتشاف يشكل بحد ذاته برهاناً إضافياً على العلاقات القديمة جداً مابين القارات.

من جهة أخرى قام العديد من العلماء بتدوين الصلات الوثيقة التي توجد بين كتابات الـ «مايا» والكتابات الكريتية، أمثال: «Pierre Honore» والنرويجي «Svein - Magnus Crodys» حيث وجدا تشابهات غريبة بين الرموز الأزتيكية التي قاما بدراستها في المكسيك وبين الأشكال الخطية المرسومة على إحدى اللوحات التي يرقى تاريخها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، والتي تم العثور عليها في «فايستوس Phaistos» بجزيرة كريت.

من أكثر الأمور إثارة هو ذلك الخبر الذي جاء في الصحافة الكندية مؤخراً عن اكتشاف هام:

فقد أعلن شخص يدعى «باري فيلل Barry Fell» - وهو باحث في جامعة

(*) كان نص «بارايبا Paraiba» بالواقع أكثر نص أقام الأوساط العلمية وأقعدها على جانبي الكرة الأرضية في الربع الأخير من القرن الماضي ومازال موضع دراسة حتى الآن. انظر: الفينيقيون وأمريكا - فصول شغلت العالم - د. عبد الله الحلو. طبعة بيروت 1991.

هارفارد Harvard - أنه قد انتهى من فك رموز النقوش الغامضة الموجودة على صخرتين كان قد جاء بهما سنة 1910 شخص يدعى «سوكي Soucy.L» إلى متحف المدرسة الإكليركية في «شيربروك Sherbrooke» حيث مازالتا موجودتين حتى الآن. وكان قد تم العثور على هاتين الصخرتين بالقرب من جروف نهر «سان فرانسوا Saint Francois» عند أسفل نهر «شيربروك» في مدينة «كيبك Quebec». وثبت أنهما بالأصل صخرة واحدة وزنها حوالي 400 كيلوغرام تحطمت إلى قطعتين.

وقد توصل الباحث المذكور «باري فيلل» بالاستناد لمعلوماته في علم النقوش إلى التفسير التالي:

1 - «حملة تمخر عباب البحر تحت إمرة السيد حيرام لاحتلال بعض الأراضي...».

2 - «مارك دي هاتا Marque de Hata الذي بلغ ذلك الحد من النهر وأرسى سفينته ونقش تلك الصخرة...».

تبدو هذه الترجمة لأول وهلة، بالنسبة لكل من خبر بالمسلات الفينيقية، تبدو تماماً متطابقة مع نغمة النصوص الفينيقية شكلاً ومضموناً. لكن ماحصل أيضاً بهذا الصدد أن بريداً أرسله إليّ الأستاذ «توماس لي Thomas E. Lee» الذي كان على مايبدو يشككك في قدرات الباحث «باري فيلل» الذي فك رموز هذا النقش. وبذلك يطرح للنقاش من جديد ترجمة هذه العبارات. وسواء كان ماحصل هو فعلاً تشكك علمي دقيق، أو من قبيل التنافس بين جماعات الباحثين (حيث أن توماس لي كان مدرساً بجامعة لافال ومديراً لمركز الدراسات الشمالية) فيجب أشير بالذكر إلى الحيرة التي وقعت فيها بعد ذلك، خاصة وأنا أراقب بعناية صور الصخرة التي زودني بها مراسل صحفي من كندا.

لقد ذكرني أسلوب الكتابة بتلك النصوص التي أتيح لي أن أشاهدها في المغرب وفي تونس على المسلات أو حتى على اللوحات التذكارية المزدوجة اللغة في ليبيا مثل «دوغا Dougga» و«لبتيس Leptis» و«ماغنا Magna».

مهما تكن نتيجة المجادلة حول هذا النقش وغيره فإن الشيء الذي يبقى لاجدال فيه هو الامتداد العالمي لفينيقيي الشرق وفينيقيي أفريقيا. أما قدومهم إلى القارة الأميركية فلم ينتزع شيئاً من فضل كريستوف كولومبوس الذي كان أول من استطاع العودة وأول من قدم بياناً برحلته.

إن كون معظم النقوش تبدو منتمية للكتابة الأفريقية القديمة المشتقة من الفينيقية، هو مما يساهم في إثبات فرضيتي حول إعمار أميركا قبل زمن كريستوف كولومبوس على أيدي السود الذين يفترض أنهم كانوا يشكلون قسماً لابأس به،

وربما المجموعات الأساسية من العاملين على السفن القرطاجية[1].

وبعيداً عن تلك الاعتبارات حول البعد الجغرافي لتوسعهم، فمما لاشك فيه هو الأثر الكبير الذي تركه الفينيقيون في الحضارة العالمية.

لقد ذكرت في بداية كتابي هذا تصريحاً رسمياً للأستاذ «ساباتينو موسكاتي» الذي حدد العصر الذهبي الفينيقي بشكل خاص فيما بين القرنين العاشر والثالث قبل الميلاد. ولكن يمكن القول أيضاً أنه منذ ماقبل القرن الثالث بزمن غير قصير وحتى أيامنا هذه بقيت الروح الفينيقية المرتكزة بصورة أساسية على الواقعية والعلاقات الإنسانية الحسنة والتوسع السلمي. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كتب فينيقيو «بوزولي Puzzoli» في عام 174 بعد الميلاد ذلك الخطاب الشهير إلى صور:

«أيتها الحاضرة المقدسة... المنيعة والمستقلة عن فينيقيا وعن المدن الأخرى... والمدينة الأولى المشرفة على البحر...».

بعد مرور خمسمئة سنة على الإنهيار المزعوم بقيت صور الهلنستية فخورة بنفسها تشعر أنها فينيقية وأول مدينة على البحر. وبالرغم من أن الفينيقيين قد تعايشوا إلى درجة الإختلاط مع اليونان والرومان ثم البيزنطيين، فقد رأينا أنهم حافظوا على جوهر حضارتهم وأصالتها. إن آلهة الفينيقيين، ولغة قرطاجة التي مازالت آثارها موجودة في أفريقيا الشمالية، كانت تهزأ بانتصارات الرومان العسكرية بعد عدة قرون من تخريب قرطاجة.

ويبدو أخيراً أن الفينيقيين قد حملوا للعالم رسالتين أساسيتين:

فهم الذين أوجدوا تلك الروح التي نسميها تبعاً للأوساط والعصور: الواقعية أو الوضعية أو الحس العملي أو الذرائعية... هذه الميزات التي تعد الكتابة المبسطة رمزاً لها قد نتج عنها كما رأينا مانظنه خطأً «الفكر الغربي».

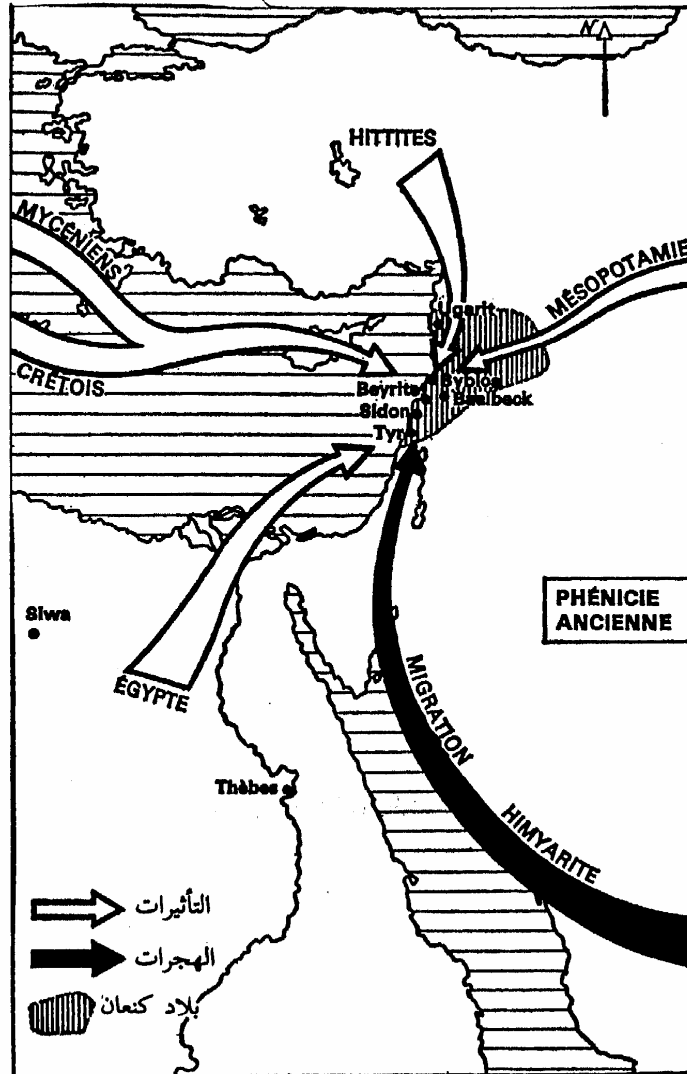
لكن إلى جانب هذه العقلانية نقل الفينيقيون إلى العالم رسالة أخرى وهي الأسبقية الممنوحة للروحانية ولكن بشكل مبسط أيضاً.

وقد تركزت هذه الروحانية على الشمس، الإله القوي المنيع المشعّ الموجود في كل مكان. وإن هذه القوة العظيمة الخارقة والمرتبطة بالحنين إلى الشرق قد مهّدت على نحو رائع سبيل الوحدانيات الكبيرة في المسيحية والإسلام بشكل خاص.

---

(1) انظر بهذا الخصوص نفس المؤلف ونفس المجموعة: Presence du monde noir (ed Robert Laffont 333 pages).

الصور والمخططات



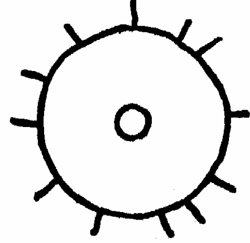
مخطط لفينيقيا القديمة وتأثيرات العالم القديم

عشتروت تمثل قرص الشمس.

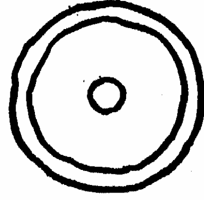


نصب من المعبد الفينيقي في «Sulcis» بسردينيا (حوالي القرن الثامن ق.م).

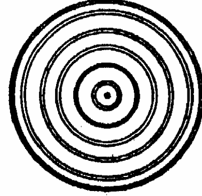
الأشكال التي ترمز للشمس والتي وجدت على مختلف طرق الفينيقيين الساحلية:



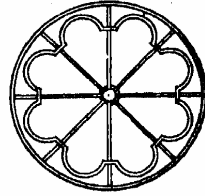
نموذج من الرموز الشمسية المنقوشة على صخر عالٍ في المغرب.
ولازالت تستخدم في أيامنا هذه في زخرفة المنازل وبعض المنسوجات.



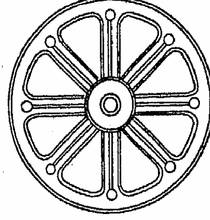
إشارة شمسية واقية لاتزال مستخدمة في الصحراء وسلاسل جبال الأطلس.



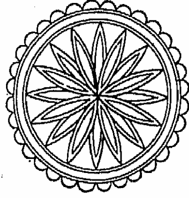
من الرموز الموجودة على الخزف والحلي في قبرص وبقية حوض المتوسط. مابين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد.
(محفوظة في المتحف الوطني ببيروت).



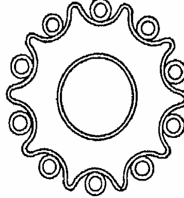
أعلى نصب يرمز لأحد قرابين الأطفال. من قرطاجة, القرن الثامن قبل الميلاد
(متحف باردو).



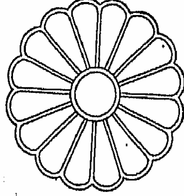
نموذج زخرفي رئيسي للنسيج الذهبي المسمى «Jugurtha» من القرن الثاني قبل الميلاد.
(متحف باردو ـ تونس).



من الحلي المستخدمة اليوم عند البربر.



أحد النصب كما يبدو من أعلاه (وجد في غرفة). من العصر البوني الحديث، القرن الثاني الميلادي
(متحف باردو ـ تونس).

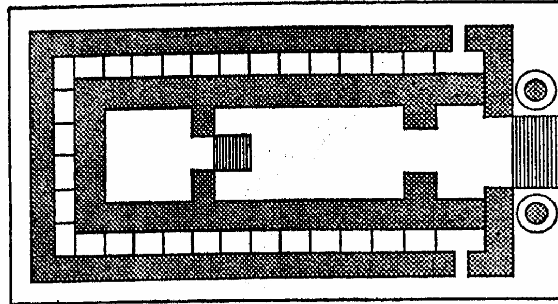


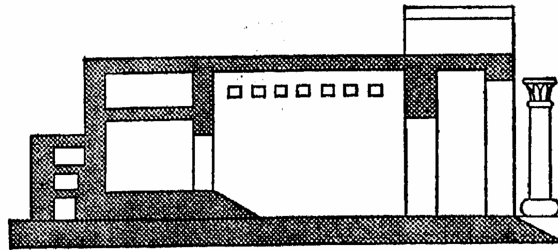
زخرفة مركزية على قدح فينيقي من قبرص. القرن السابع قبل الميلاد.
(المتحف البريطاني ـ لندن).

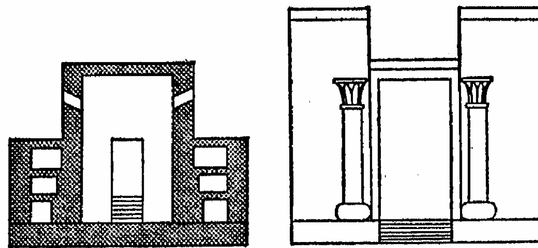
بعض حروف الأبجدية الفينيقية. مع بيان تطورها وصلاتها مع الأبجديات الأفريقية القديمة.

VALEUR	PHENICIEN XII°/X° av. J.-C.	PUNIQUE VIII°/V° av. J-C.	GREC	LATIN	TIFINAGH	LIBYQUE
a	𐤀	𐤀	A	A	•	•–
b	𐤁	𐤁	B	B	⊟Θ	⊡⊙
g	𐤂	𐤂	Γ	G	ⵅ	ⵅ
d	𐤃	𐤃	Δ	D	⊓Λ	⊓⊔
e	𐤄	𐤄	E	E		
w	𐤅	𐤅		V	••	=
l	𐤋	𐤋	Λ	L	‖	‖
m	𐤌	𐤌	M	M	⊐	⊃
n	𐤍	𐤍	N	N	|	|
o	O	O	O	O		
p	𐤐	𐤐	Π	P		
qk	𐤒	𐤒	Φ	Q	·:	⇚
r	𐤓	𐤓	P	R	□○	□○
š	𐤔	𐤔	Σ	S	ᘓ	≷
t	+	𐤕	T	T	+	+

مخطط معبد أورشليم. بناه مهندسون ومقاولون من صور.

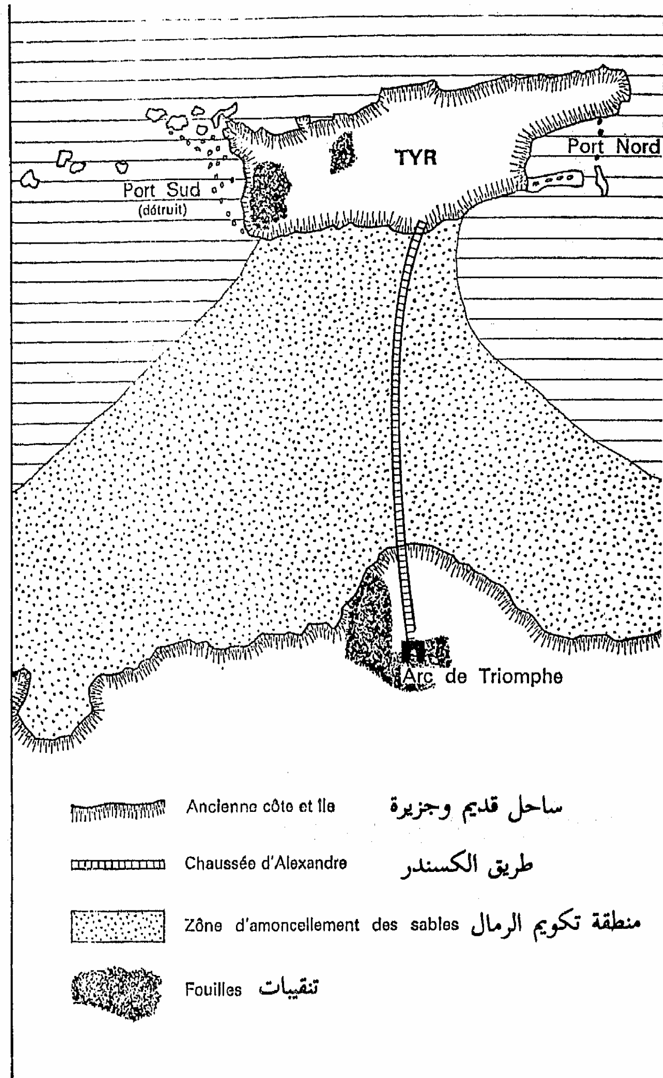


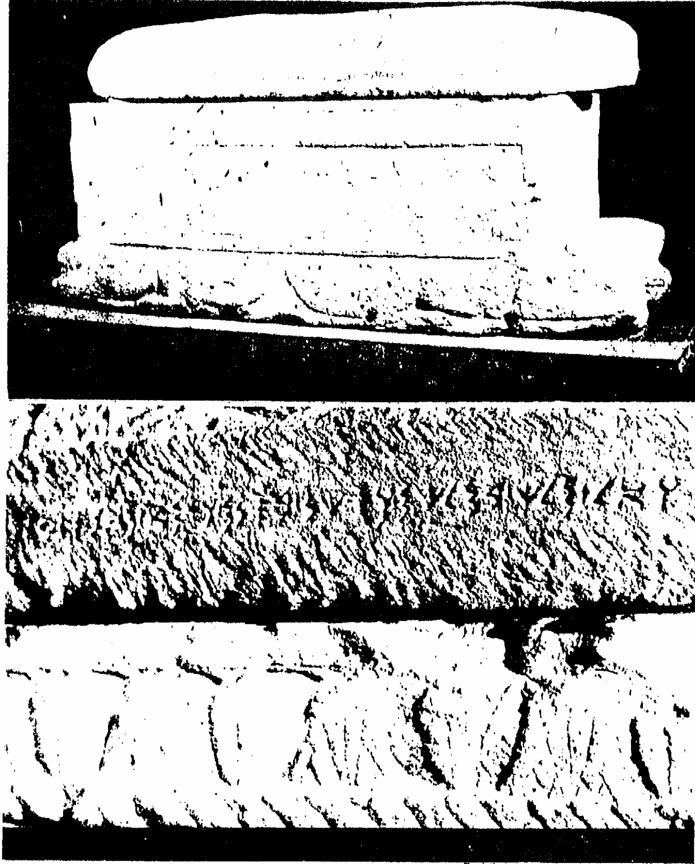




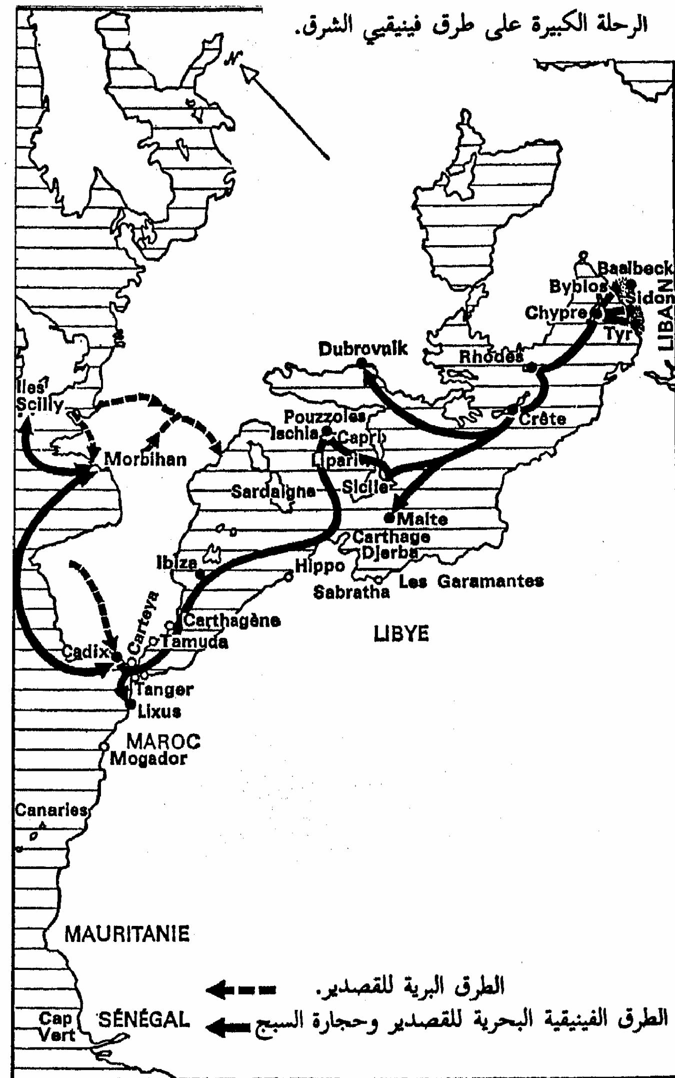


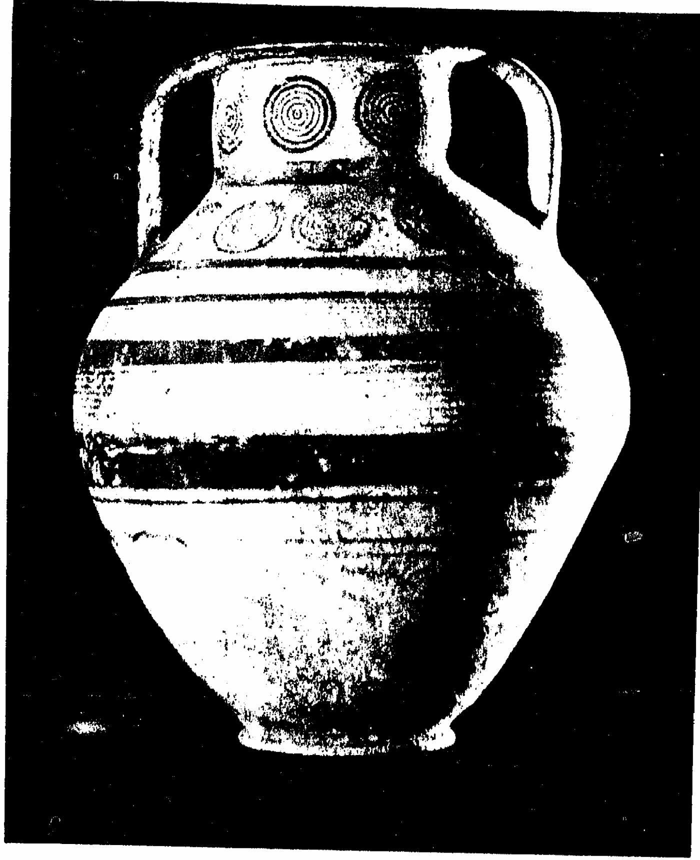
الإله بعل. من حفريات أوغاريت (متحف اللوفر).


TYR
Port Nord
Port Sud
(détruit)
Arc de Triomphe
Ancienne côte et île ساحل قديم وجزيرة
Chaussée d'Alexandre طريق الكسندر
Zône d'amoncellement des sables منطقة تكويم الرمال
Fouilles تنقيبات

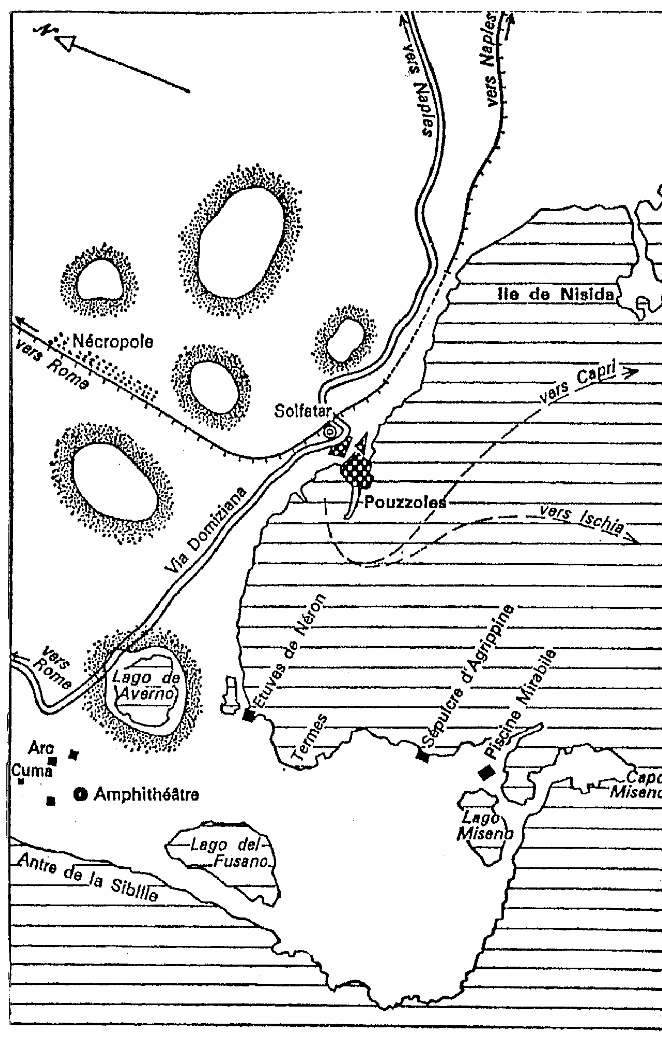


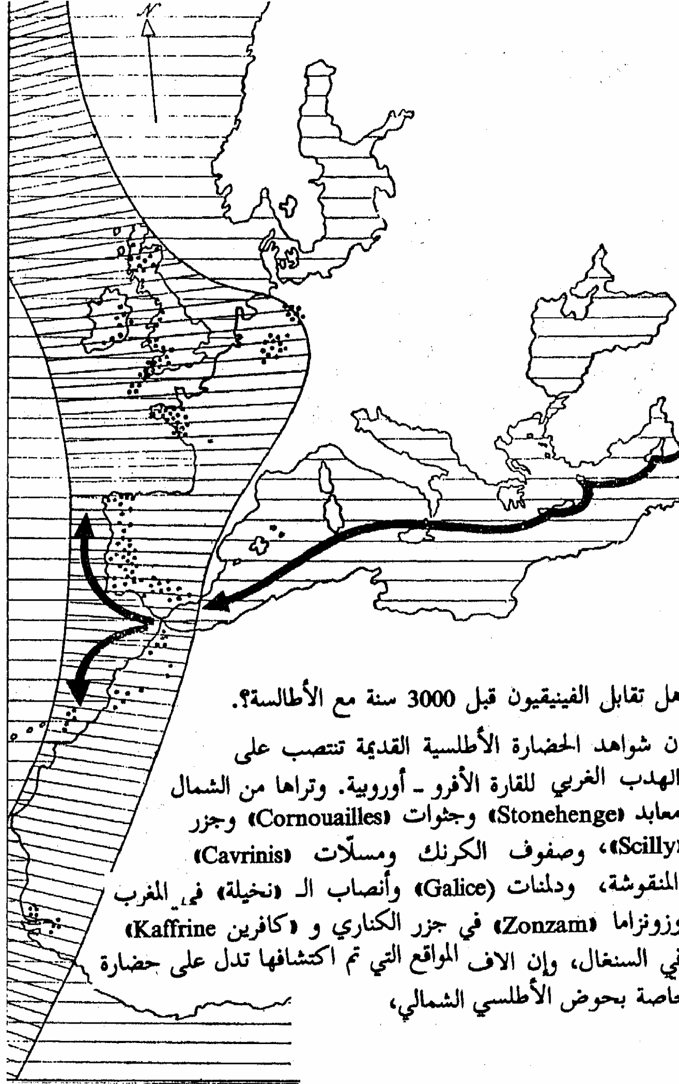
التابوت الحجري للملك أحيرام من القرن الثامن قبل الميلاد، وجد في المقبرة الملكية الكبيرة في جبيل. وهو نموذج حقيقي عن الفن الفينيقي.
(المتحف الوطني - بيروت).
في الأسفل: على محيط الغطاء تجسيد لـ «أب الكتابة» حيث أن النص المحفور يعد أقدم نموذج للأبجديات الصوتية التي نشأت عنها كافة الأبجديات الحديثة.


الرحلة الكبيرة على طرق فينيقيي الشرق.
N
Baalbeck
Byblos
Sidon
LIBAN
Chypre
Tyr
Dubrovnik
Rhodes
Crête
Iles Scilly
Morbihan
Pouzzoles
Ischia
Capri
Lipari
Sardaigne
Sicile
Malte
Carthage
Djerba
Ibiza
Hippo
Sabratha
Les Garamantes
Carteya
Carthagène
Tamuda
LIBYE
Cadix
Tanger
Lixus
MAROC
Mogador
Canaries
MAURITANIE
Cap Vert
SÉNÉGAL
الطرق البرية للقصدير.
الطرق الفينيقية البحرية للقصدير وحجارة السبج



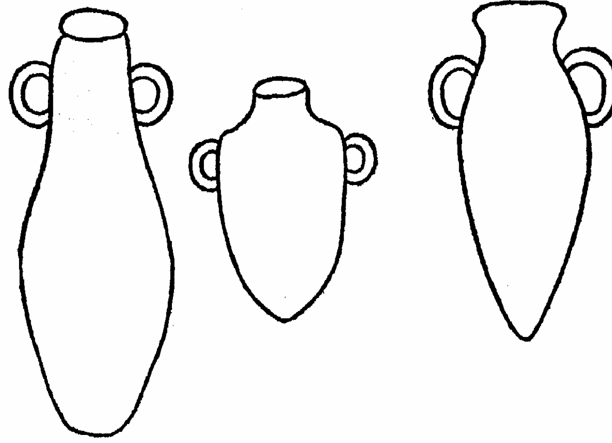
جرة قبرصية من الفترة مابين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. تتميز بشكلها المتنفخ وعنقها الواسع، وهما من خواص الفن الفينيقي. الصف المزدوج من الدوائر الشمسية الذي كان يشكل الزخارف الرئيسية يبرهن أيضاً على الصلات الروحانية العميقة التي كانت توحد بين قبرص وفينيقيا.


vers Naples
vers Naples
Ile de Nisida
Nécropole
vers Rome
Solfatar
vers Capri
Pouzzoles
vers Ischia
Via Domiziana
Etuves de Néron
Sépulcre d'Agrippine
Piscine Mirabile
vers Rome
Lago de Averno
Termes
Arc
Cuma
Amphithéâtre
Capo Miseno
Lago Miseno
Lago del Fusano
Antre de la Sibille

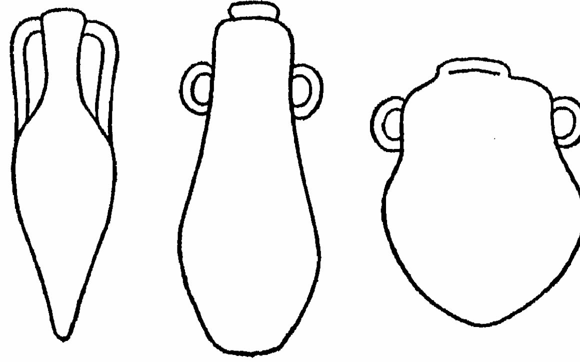


هل تقابل الفينيقيون قبل 3000 سنة مع الأطالسة؟.

إن شواهد الحضارة الأطلسية القديمة تنتصب على الهدب الغربي للقارة الأفرو ـ أوروبية. وتراها من الشمال معابد «Stonehenge» وجثوات «Cornouailles» وجزر «Scilly»، وصفوف الكرنك ومسلّات «Cavrinis» المنقوشة، ودلمنات (Galice» وأنصاب الـ «نخيلة» في المغرب وزونزاما «Zonzam» في جزر الكناري و «كافرين Kaffrine» في السنغال، وإن الاف المواقع التي تم اكتشافها تدل على حضارة خاصة بحوض الأطلسي الشمالي،



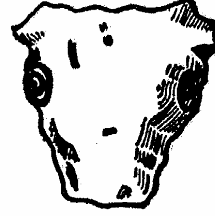
ـ نماذج خزفية ـ وثائق قدّمها وبكل ودّ متحف المرافئ القديمة في مرسيليا بإشراف الأستاذ «بينواس Benoist». في الأعلى: من اليسار: فينيقية، من اليمين: إتروسكية.



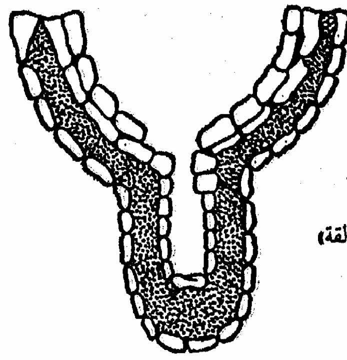
من اليسار: رودسية، الوسط: فينيقية من قرطاجة، من اليمين قرطاجية.

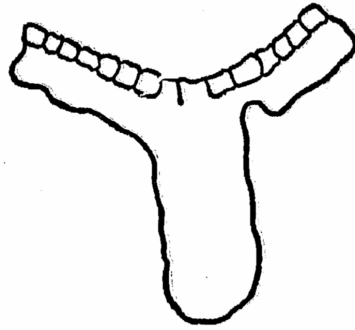


تابوت حجري صيدوني وجد في قادس. وهذا الوجه العجوز ذو اللحية الذي نراه هنا يعبر عن شخصية مرموقة. فربما كان مندوباً لصور في المستعمرة الكبرى في المحيط الأطلسي!... أو ربما كان أميرال الأساطيل البونية!... أو ربما الملك «أرجانتونيوس» الذي حكم ترشيش، تلك المملكة الأسطورية التي اختفت؟... (محفوظ في المتحف الأثري في قادس).



رأس ثور وجد في بئر مقدس.
العصر السرديني البدائي.
حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.





مجموعتان من أضرحة «عمالقة»
يوحي شكلهما برأس ثور.



ضريح من العصر البوني الحديث بدعى «Dougga».

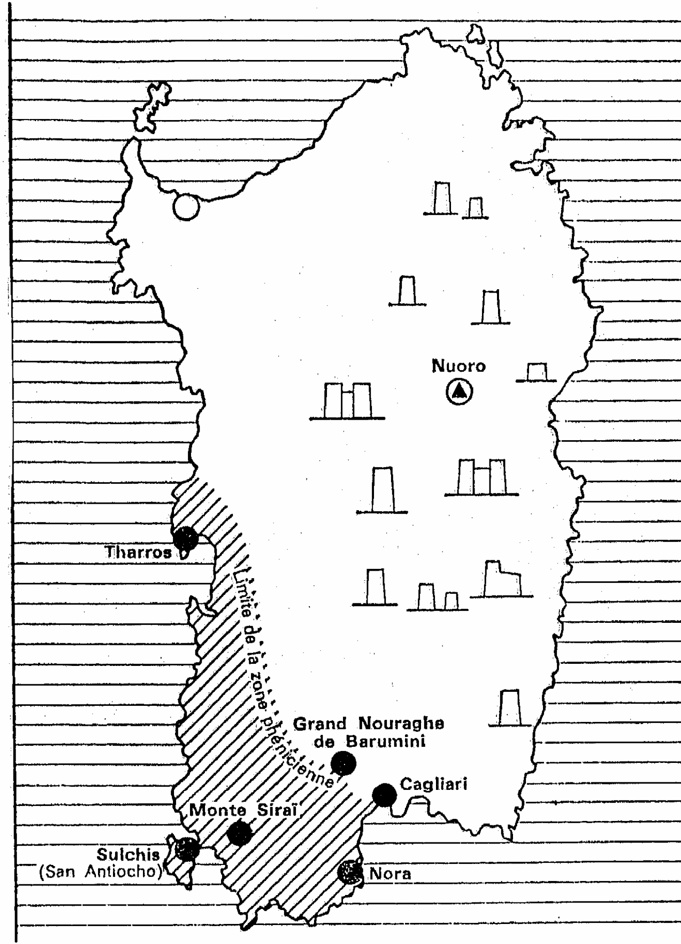
هذا الضريح الذي يحتمل أنه أقيم في القرن الأول أو الثاني الميلادي يكشف لنا من خلال هندسته المعمارية تأثيراً إغريقياً - رومانيا ويبرهن من خلال طرازه الخاص إلى أي درجة كان لايزال التأثير في أفريقيا الشمالية حياً بعد 300 سنة من إتمام = delenda est Carthago = إزالة قرطاجة.

كان ضريح «Dougga» يتميز خاصة بلوحات تذكارية تدل على إنشائه. وقد نقلها إلى إنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر قنصل بريطاني شديد الحماس لذلك. والنصوص التي توجد على هذه اللوحات هي النصوص الوحيدة المزدوجة اللغة (بونية وبربرية) الموجودة في العالم.



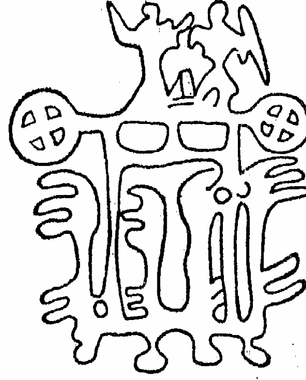
سردينيا.

كان الإله «بسّ Bess» يعتبر مجسداً لقوى الشر. نُسب إلى المصريين، وعرف أيضاً تحت اسم «مولوخ». وهو منشأ الأساطير المختلفة عن مايدعى «الغول» التي ترهب الأطفال في الشرق والغرب على السواء.

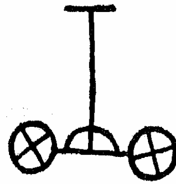


سردينيا والحقبة البونية ـ الفينيقيون وحضارة النوراج

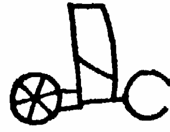
الطرق الصحراوية للعربات.



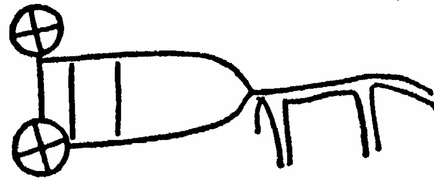
رسم لواحدة من عربات الجرميين. وادي زكزا - فزّان.



عربة مرسومة بالقلم. من عصر الجرميين. في موقع يدعى «فريت Frit».

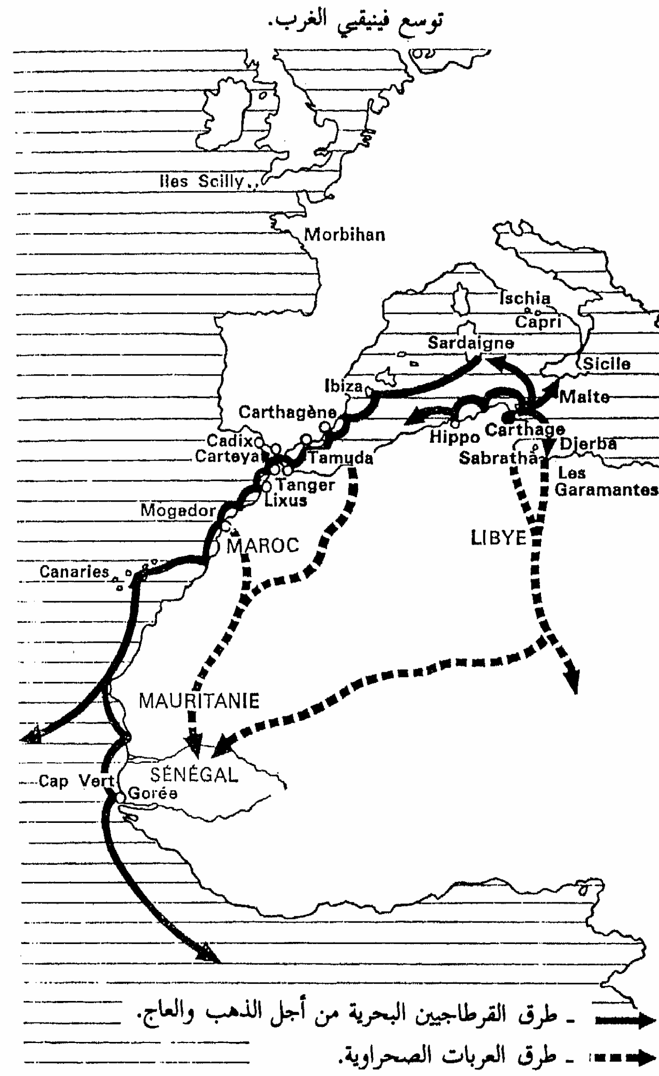


عربة «أمازماز» من عصر الجرميين. من موقع أدرار ـ موريتانيا.



العربة المسماة Kedama. من عصر الجرميين.

توسع فينيقي الغرب.





«تماثيل الثلج». وهذه التماثيل التي عثر عليها في إيبيزا هي نموذج من الفن البوني الذي طبع بتأثير محلي قوي. ويمكن الافتراض أنها كانت تمثل عبادات الخصب. (محفوظة في متحف إيبيزا).

مراجع البحث

نصوص وكتّاب قدماء

La Bible, spécialement le Livre des Rois et Ezéchiel.

Tablettes de la Bibliothèque royale assyrienne de ninive (British Museum).

الكتّاب الإغريق

Homère (VIII^{e} - VII^{e} siècle av. J.C.).
Herodote - Thucydide - Pindrae (V^{e} siècle av. J.C.).
Platon - Timée (IV^{e} siècle av. J.C.).
Polybe (II^{e} siècle av. J.C.).
Diodore de Sicile (I^{e} siècle av. J.C.).
Strabon (I^{e} siècle av. J.C.).
Plutarque (I^{e} siècle av. J.C.).

الكتّاب اللاتين

Avienus
César: Commentaires de la Gaules.
Horce.
Plaute: Le Carthaginois.
Pline l'Ancien.
Procope.

المؤرخون العرب

Yacout.
Ibn Khaldoun
El - Bekri.

مراجع تفصيلية خاصة

Victor Bérard: Les Phéniciens et l'Odyssee, Ed. A. Colin 1927.

Les Navigations d'Ulysse, T.IV, Ed. A. Colin, 1929.

La Colonisation grecque de l'Italie méridionale et de la Sicile dans l'Antiquité, Ed. de Broccard 1914.

Qui a été le premier a suivre a la trace les Phéniciens et Cadoms.

Stephane Gsell: Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette, 1918.

E.F. GAUTHIER: Le Passé de l'Afrique du Nord, Payot,1952.

Qui ont été les premiers a souligner les contributions capitales des Phéniciens a la civilisation du Maghreb. Donald B. HARDEN; pour son remarquable ouvrage de synthése:

The Phoenicians. Thames and Hudson. Londres 1962.

Alfred Murr: El, Yahve et Jésus, Editions CADMUS, Beyrouth, 1966.

Joseph M. Cahmi: De la Phénicie, Librairie du Liban, Beyrouth, 1967.

Max - Pol Fouchet: L'Art a Carthage, Editions Georges SALL, Paris, 1962.

مراجع عامة

Aboussouan (Camille): Festival de Baalbeck, Albums Programmes.

AUTRAN (C): Les Phéniciens.

BARADEZ (J): Nowelles recherches sur les ports antitiques de Carthage, Karthago IX.

BARAMKI (Dimitri): Phoenicia and the Phoenicians, Ed. Khaytas, Beyrouth.

BARRAT (Denise): Liban, escale du temps, Ed. du Centurion, 1967.

BERNABO, BREA: Sicilia prima dei Greci, Ed. Ame, 1961.

BERTHEROY (J): Le Colosse de Rhodes. P. Ollendorf, Paris, 1909.

BIBI (Heoffrey): Le Millénaire retrouve, Plon, 1962. 1963.

BORLASE (William): Observations on the ancient and present state of the Islads of Scilly, Oxford, 1756.

BOSSERT (Helmut Th): Alt Syrien, Ed. Ernst Wasmuth Tubingen.

BOVILL (E.W): The Golden of the Moors, London, 1958.

BRIGAUD (Félix): Notice historique sur Gorée, C.R.D.S. Saint - Louis du Sénégal - Archives.

CARCOPINO (J): Le Maroc antique, Paris, 1943.

CARPENTER (R): The phoenicians in the west, Amer. J. Archaeoll 1958.

CHAMPAULT (ph): Phéniciens et Grecs en Italie, d'aprés l'Odyssée, ED. E. Leroux, 1906.

CHAMPDOR (Albert): Baalbeck, Librairie de l'Humanisme, Beyrouth. 1959.

CHARLES - PICARD (G. et C): Le Monde de Carthage.

La Vie quotidienne a Carthage au tempa d'Hannibal, III^e Siècle av. J.C. Hachette 1958.

Guide du musée Alaoui a Tunis.

Les Religions de l'Afrique antique, Paris, 1954.

CONTENAU (C): La Civilisation phénicienne, 1939.

CORM (Charles): L'Art phénicien, Ed. "La Revue phénicienne", Beyrouth.

Le Liban, du Cénacle. Beyrouth.

DAVIS: Carthago and her remains.

DESJACQUES Jean et KOEBERLE Paul: Mogador et les Iles purpuraires, Hesperis 1955.

DERVEN (Claude): Rhodes, Horizons de France.

Driss (Abdelaziz): Tresors du Musee national du Bardo. - S.T.D. Tunis, 1966.

Dunand (Maurice): Byblos, Librairie Maiaonneuve. Encyclopedie de la Bible (Mot: Phenicie).

Dussaud (R.): Laphrodite cypriote, Ed. E. Leroux, 1916.

L,Art phenicien de II millenaire , Paris, 1949. Les Religions des Hittites et des Hourites, des Pheniciens et des Syriens, Paris, 1945.

Forbes (R.J): Essays in ancient technology, Hollsnde, 1957.

FUSTE (Miguel): Estudio antropologico de los esqueletos, inhumados en Tumulos de la region de Galdar (Gran Canaria), Las Palmas, 1961 - 1962.

GARCIA y Bellido (A.): Fenicios y Carthagineses in Occidente, Madrid 1942.

GAUDIO Attilio: les Empires de la mer, Julliard 1968.

GAUTHIER (E. F.): Le Passé de l'Afrique du Nord, Payot 1952.

GRIMAL (Pierre): Dictionnaire de la Mythologie, Presses universitaires de France 1951.

GROLLENBERG (Luc H.): Atlas de la Bible, Ed. Elsevier.

GSELL (S.): Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette 1913.

HARDEN (D. B.): The Phoenicians, Thames and Hudson, Londres 1968.

Punic Urns from Precinct of Tanit at Carthage, Amer. J. Archaeol.

HAYNES (D. E. L.): The Antiquities of Tripolitania, Archives of Tripoli, Lybia 1965.

HOUSSEMAINE: "Turquoises et callais", Bulletin de la société polymathique du Morbiham, Vannes 1939.

HOZ (Augustin de la): Lanzarote, Madred 1962.

HUBAC (Pierre): Carthage, Ed, Bellenand 1952.

JODIN (André): Mogador, comptoir phénicien du Marco atlantique. Ed Marocaines, Tanger 1966.

JULIEN (Ch. A.): Histoire de l'Afrique du Nord, T. I, Payot, Paris 1952.

KUKAHN (E.): Anthropoide sarkophage in Beyrouth, Berlin 1955.

LAC H. SZIRMA (W. S.): History of Penzance, St. Michael's Mount, St. Ives, London 1878.

LAGRANGE (M. J.): Etudes sur les religions sémitiques, 1905.

LENORMAND (F.): La Légende de Cadmos et les établissements phéniciens en Gréce, Ed. Lévy 1867.

LESCHI (Louis): Les Origines d'Alger, Conférence du 16 juin 1941. (Document d'Archives).

LHOTE (Henri): A la découverte des fresques du Tassili, Arthaud, Paris 1958.

La station de chars graves de l'oued l'Ar'ar.

LILLIU (Giovanni): La Civitita, dei Sardi dal neolotico all,eat,a dei Nuraghi, Ed. Rai, Milano, 1963.

"Rapporti fra la civilita nuragica e la civitita fenicio punica in Sardegne" Studi Etrushi XVIII, 1944.

LISSNER (Ivar): Civilisations mysterieuses, Laffont, 1964.

MAIURI et HACOPI: Calara Rhodos, Rodi Istituto archeologico, 1928 - 1931.

MANA DE ANGULO (J.M.): Guia del Museo archeologico de Ibiza, Ibiza, 1957.

MAQUET (J): Afrique, les civilisations noires, Horizons, Hachette 1905.

MASPERO: Histoire ancienne des peuples de l'Orient, Hachette 1905.

MEIRAT (Jean): Marines antiques de la Mediterranee Fayard.

MOSCATI (Asbatino): Communication. Congres de Palerme, 1964.

PADILLA (Simon Bentez): Una breve excursion cientifica por Gran Canaria Las Palmas, 1961 - 1962.

PARROT (Andre): "Scens maritimes des salles du palais de Sargon a Khorsabad", Revue Sumer. VI, 1950.

PERROT (Georges) et CHIPIEZ (Chales): Histoire de l'Art dans l'Antiquite, T.II, Hachette, 1885.

Tome VII, LA Grece de l'epopee la Grece archaique Hachette 1899.

PESCE (G): Nora: Guida agli Savi Bologna 1957.

PHILLIPPE (Joseph): Initiation a l'histoire du verre, Liege, 1964.

PIGGOT (Michel): The Down of civilization, Thames and Hudson, London, 1961.

PONSICH (Michel) et TARRADELL (Miguel): Garum et industries antiques de salaison dans la Mediterranee occidentale, Presses universitaires de France 1965.

POULSEN (F.): Der Orient und die Fruhgriechische Kunst, Leipzig 1912.

DEL RIO AYALA (Juan): Documents d'archives.

RODINSON (Maxime): Encyclopédia de l'Islam, (mot: char).

ROMAN Y CALVET: Los Nombres et Importancia Arqueol de las Islas Pythiusas, Barcelona 1906.

SAUMAGNE (Ch.): "Le Port antique de Carthage", Historia, 1931, vol. II.

Le "Longomare" de la Carthage romaine.

SCHAEFFER (C. F.): The Cuneifrom Texts of Ras shamra-Ougarit, Brit. Acad. Schweich Lectures, London 1939.

SIRET (Louis): Villaricos y Herrerias, R. Acad. Hist. Madred, Memorias, Madred 1909.

TRAMELLI (A.): La necropoli punica... a Cagliari, Monumenti Antichi, XXI, 1912.

TERISSE (A.): L'Afrique de l'Ouest, berceau de l'art négre, Nathan 1966.

THORON (Onffroy Vte de): Les Phéniciens a l'ile d'Haïti et sur le continent américain, Louvain 1889.

TUSA (V.): Scavi a Solunto, Oriens Antiquus III, 1964.

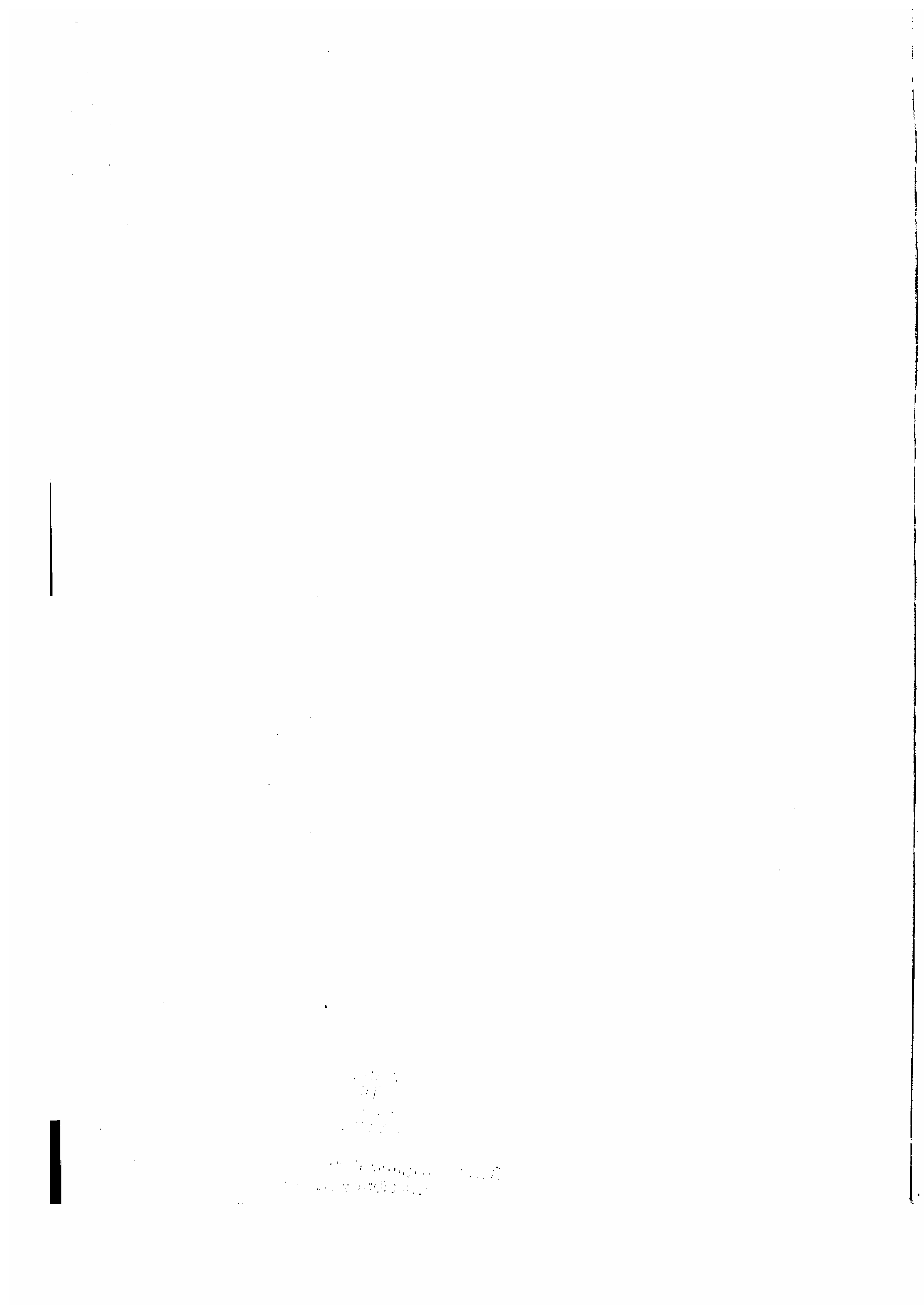
VOINOVITCH (L. Cte de): Histoire de Dalmatie, Hachette 1934.

ZAMMIT (Professeur J.): The Copper Age Temples of Tarxien Malta, Malta 1966.

ZVI (Herman): Peuples, Mers, Navires, Ed. Presses et Métiers graphique, Paris.



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)



تاريـخ الحضارة الفينيقيـة الكنعانية

في جولاته البرية والبحرية قطع الباحث في التاريخ الفينيقي «جان مازيل» خمسةً وخمسين ألف كيلومتر، وهو يتقرى خطى الفينيقيين كي يكتب هذا الكتاب، فإذا بالمراكز الفينيقية - التي كانت قلب العالم القديم كما كانت بابل دماغه - تتلامع على طريق القصدير الذي اختطه فينيقيو الشرق من جبيل (حاضرة الكتابة) وصيدون (حاضرة الفكر) وسواهما، إلى قبرص واليونان وإنكلترا وأمريكا، فلنتذكر أن الرحلة الفينيقية ترتقي إلى أربعة آلاف سنة.

إلى ذلك يتقرى هذا الكتاب طريق الذهب (البرية والبحرية) التي اختطها فينيقيو الغرب من نيويورك العالم القديم: قرطاجة، إلى جربة وطرابلس وصبراتا والسنغال وتطوان وطنجة وصقلية وسردينيا والأندلس وجزر الكناري وسواها.

فمن هم أولاء الذين اجترحوا تلك المعجزات؟ ما هو أصل الفينيقيين؟ وكيف كانت حياتهم الدينية والاجتماعية والفنية والاقتصادية؟ ما هي ابتكاراتهم وحروبهم وتأثراتهم وأساطيرهم؟

بالإجابة العلمية على هذه الأسئلة يحملنا هذا الكتاب في جولاته - مغامراته في الزمان والمكان، ويجعلنا نقرأ تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية) فنحياها من جديد.



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339